

سُلطانُ بيزنطة

The Sultan of Byzantium

رواية

«تتميز رواية ألتون بتسارع الأحداث، كما في الأحلام» — جون أشبري

THAQAFA ثقافة
Publishing & Distribution L.L.C



رواية

سلجوق ألتون

ترجمة

مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة





سلطان بيزنطة

تأليف: سلجوق ألتون ترجمة: مروان سعد الدين

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة

معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة الإنكليزية The Sultan of Byzantium

عن الأصل التركي

Bizans Sultani

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع

Translation is sponsered by TEDA

T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi

Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu

(Fevzi PaŞa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski sayıŞtay Binası



أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية



أشرت دائماً إلى الأصول العربية لاسمي كلما ذكرته لشخص ما، وشعرت بالإحراج إن أخطأ أحدهم في لفظ المقطع الأخير. عندما سألت جدتي: "كيف حظيت باسمي؟"، ردّت: "إنه اسم جد جدك". كان أسلافي أصحاب عقلية تجارية، وقد بدؤوا عملهم على أنهم مصدّرون في طرابزون ليصبحوا في النهاية أكثر الأسر ثراء على البحر الأسود. ترعرعت ضجراً من سماع أن كل أولئك الأقرباء الحمقى قد بذّروا الثروة كلها بعد حرب القرم.

كان عذر جدي للانتقال إلى إسطنبول قبول أمي في كلية الحقوق حين أنهت تخرّجها من المدرسة الثانوية في طرابزون، لكن ممارستها المحاماة بقيت محدودة بقضايا مرتبطة بالبناء السكني للأسرة في غلطة حيث عاشوا، والمبنى التجاري الذي امتلكوه في صقلية. كان آخر موضوع خلاف ثار بين جدّيَّ يتعلق بابنتهما الوحيدة التي أُغرمت بالمستأجر الأمريكي لديهما. وفي النهاية، تزوجت أمي بول هاكيت بموافقة أبيها. كان بول الممثل الإقليمي لصحيفة أعمال عالمية. وفي السنة التالية، في مستشفى خاص يبعد سبعين خطوة عن منزلنا، جئت إلى العالم. وعندما بلغت الثانية توفي جدي، وبعد أربعة شهور تطلّق والداي. عاد بول هاكيت إلى بلده من دون أن يترك أثراً خلفه، وانتقلنا إلى شقة جدتي المجاورة لشقتنا.

كان عقد بيتنا قد انفرط بسبب علاقة بول هاكيت مع امرأة كندية لعوب، وكنت قد بلغت الثامنة حين اكتشفت هذا من بوابنا الذي زوّدني على الأرجح بالمعلومة بموافقة جدتي. كانت أمي تنزعج دائماً حين تراني في الصباح، واستمر مزاجها السيئ هذا إلى لحظة تلقينا نبأ وفاة بول هاكيت، وزعم عالم النفس العجوز الذي جُررت إليه أن تلك الحال كانت بسبب "فعل منعكس لا إرادي" من قبل أمي تجاه طليقها.

تحكّمت جدتي بالأسرة، وتصرّفت وأمي مثل قريبين عنيدين متنازعين دائماً. لقد أدّت جدتي فريضة الحج، وذهبت في رحلة إلى مكّة المكرّمة بعد وفاة جدي، وكلما أشار الناس إليها "بالحاجة ألفية"، كانت تمرّر بإبهامها حبّات مسبحتها بسرعة أكبر. بدت مشرقة بالتقوى، ولم تفوّت إلا نادراً فيلماً تركياً قديماً على التلفاز، وقد تحمّلتُ تلك الأفلام الرديئة

جداً فقط من أجل متعة سماعها وهي تشتم الشخصيات الشريرة، مستخدمة أسماء الممثلين الحقيقية. ولإسعادها كنت أذهب إلى المسجد باكراً لأداء صلاة الفجر، وأصلّي صلاة العيد، وأصوم في بداية رمضان ونهايته. يمكن رؤية قصر توبكاب ي من نافذة الحمّام؛ الذي تحافظ على نظافته بطريقة شرق أوسطية، وقد زوّدتني بتحذير صارم: "لا تنظر إلى القصر حين تفعل رقم اثنان"، ولم أسمح لنفسي بإطلاق ريح مسموعة في ذلك الحمّام طوال أعوام.

رداً عن سؤالي: "أليست لدينا أي صورة لأب ي؟". جاء جواب جدتي الساخر: "إذا أردت رؤية ما يبدو عليه عديم الفائدة، انظر إلى المرآة!". بفضل أب ي "عديم الفائدة"، لم أكن أشبه أمي؛ المرأة ذات الوجه النحيل والشعر الأجعد والعينين الصغيرتين والقبح الذي لا تخفف منه إلا ثياب أنيقة عُرف عنها أنها ترتديها. كان من المألوف بالنسبة إليها قضاء ساعات عديدة في صالون تجميل. ولأنها طموحة وقوية الشخصية، بدت مزيجاً متمرّساً من الغموض والغدر. وعندما لم يبدُ أربعة وثلاثون مستأجراً تجارياً واثنا عشر سكنياً كفاية لها، اشترت ثلاثة مبانٍ إضافية تطل على الشارع بالقرب منا بسعر رخيص.

لم تشترِ لي أمي ألعاباً أبداً، أو تنظم أي حفلات بمناسبة ذكرى ميلادي أو حتى تساعدني في إنجاز فروضي المدرسية. وعشت وأنا أظن أنها بإساءة معاملتها لي تنفّذ نوعاً من الانتقام من طليقها. متجاهلاً إهمال أمي، كنت ألتمس المساعدة في واجباتي المدرسية من أوجينيو جنيالي أو كما كنا نشير إليه مازحين "لورد غلطة". كان مشرقياً يدعوه المهاجرون من الأناضول إنجين بابا، وأستاذاً متقاعداً في تاريخ الفن، ورجلاً حكيماً دائم الشباب (بدا دائماً في الستينيات من العمر)، تعلّمت كيف أقرأ الموسوعات مادة مادة، وأحفظ المعاجم، وأميّز طُرزاً معمارية بملاحظة واجهات المباني الحجرية المهجورة، وإصدار أوامر إلى البحر، وسرد أحاجي إلى السماء.

في العام الذي بدأت دراستي الابتدائية فيه، كان أوجينيو من اشترى لي قِرِلّى محنّطاً احتفاءً بالمناسبة، وبعد ذلك لم أعد أنظر إلى أي دمية أخرى، وأسميته "تريستان" متأثراً بما لا يعلمه إلا الله. كان طوله قدماً، ومنقاره حاداً، وظهره وذيله ذوَي لون أزرق باهر وعنقه

أبيض، وجناحاه بلون أخضر داكن.

كان أجمل مبنى على شارع خوجة علي هو آسبيلانديت للشقق السكنية، وبدت الزخارف البالية على كلا جانبيه تميل إلى الداخل، في حين تبدو المباني التي تواجهه مقوّسة؛ وكأنها في احتفال مبجّل. عشنا في الطابق الأعلى من المبنى الحجري في شقتين فسيحتين. وفي كل مرة دخلت فيها المصعد العتيق ومددت يدي نحو زر الطابق السابع حيث تقع شقتنا انتابني إحساس مألوف بالبرودة. كان دخول غرفة المعيشة من المصعد يترافق عملياً بظل بيزنطي وعثماني لشبه الجزيرة التاريخية، وهناك - مؤطراً بالنوافذ - في المقدمة، بحرٌ يمتد من البوسفور إلى القرن الذهبي، وتكوّن تلك البانوراما الضبابية خلفية ألعابي الطفولية. بعد إنجاز فروضي، كنت أجلس بجانب النوافذ وأوجّه حركة الملاحة بعصا تحكم خيالية، وأجعل بحر مرمرة ينكمش إلى بركة، وأبدع قصص حب عن القباطنة، وأفراد فرقهم، وركّاب سفن الشحن العابرة، وقوارب الصيد والخطوط البحرية. عندما ترتفع الشمس وتشرق مثل مسلاط أفلام فوق البحر، كنت أبدأ حرباً بين مجموعتين عدائيتين من جيوش الأمواج، فيندفع جيش مرمرة من البحر الأسود إلى البوسفور، في حين يتدفق متمردو عرمرم إلى المكان من الاتجاه الآخر، وقد أدرت الحرب مع كل التأثيرات الدرامية المحتملة في حين ارتعش جناحا تريستان المسكين على حجري.

تمتعت المباني المجاورة، وأصغرها عمره 150 عاماً، بحياة سطوح عاشتها النوارس، وتخيّلت انزعاج تريستان حين عقدت صداقة مع نورس صغير أصبح مغرماً بشرفتنا. سمّيت صديقي النورس علياً، وحاولت تغذيته بانتظام، وعندما ضبطته يأكل روثه ذات يوم، تحوّلت فوراً إلى نباتي. كنت كلما شعرت برغبة في رؤية برج غلطة - تعويذة حظّي - أسرع إلى المطبخ، وأدفع الستارة المزركشة جانباً، فيبدو ذلك الصرح الأسطواني البالغ ارتفاعه سبعون متراً وكأنه يتقدّم خطوة نحوي. بُني البرج أصلاً من الخشب في العام 528 في عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيان، ثم أُعيد بناؤه من الحجارة من قبل أهل جنوة في العام 1348، ورمّمه العثمانيون عام 1510. كان النظر إلى البرج حجراً حجراً مثل القيام برحلة ثلاثية الأبعاد في الوقت، وعندما أصل إلى قبعته المخروطية، تنتابني رغبة ملحّة بكوز مثلجات،

وأفقد كل أمل بفن أو شعر تركي ؛ لأن أحداً من رسّامينا أو شعرائنا لم يقفز من شرفاته. كنت أنظر عبر منظاري بحثاً عن وجوه غامضة ومثيرة للاهتمام بين السائحين الضجرين المحتشدين حول البرج ، في حين يسرد مرشد يشبه إنساناً آلياً عبارات مبتذلة.

أخبرني أوجينيو: "كان برج غلطة دائماً وسيطاً بين البيزنطي والعثماني".

التقيت العازب الدائم أوجينيو جنيالي ؛ أبـي الروحي كما اعتبرته ، بوساطة ألبرتو الذي ذهبت معه إلى المدارس نفسها ؛ وصولاً إلى دراستنا الجامعية ، وقد عاش مع أمه وشقيقته الأكبر سناً إلسا في شقق دوغان الفخمة التي لا تبعد كثيراً عن البرج. كان أوجينيو جارهم ، وقد هجر أبو ألبرتو الإيطالي أمه اليونانية من أجل الانتقال إلى ملبورن ، لكن على الأقل كان بمقدور ألبرتو البقاء مع أبيه الذي كان قبطان يخت في فصول الصيف ، عندما تعمل أمه العاملة النشيطة محاسبة في فندق وتقهقه دائماً حين تلفظ اسمي بالعكس. كانت إلسا خضراء العينين ، وأكبر مني بعامين ، وأول حبيبة لي ، وظننت أنها تحبني أيضاً ؛ لأنها اعتادت أن تمسك ذراعي أو تقرص وجنتيَّ في طريقنا لمشاهدة الأفلام. لكن في السنة التي كان يُفترض بها أن تبدأ فيها دراستها الثانوية ذهبت لزيارة عمتها في جنوة ، حيث اكتشفت العالم القذر ، وفي النهاية انتقلت إلى البندقية لتشرع في حياة جديدة.

انتسبت إلى مدرسة أوكوموسا الابتدائية ، التي كانت تبعد 222 خطوة عن المنـزل ، وتقف بتكلّف على منحدر شارعنا المائل ، وهناك بذلت كل جهودي للفوز بشهادات شرف لا تُحصى ؛ أولاً لأثير إعجاب جدتي ، ثم بضع فتيات بقين متحفّظات ، لكن كل ذلك ذهب سدى. بعد إلسا لم أقع في الحب مجدداً ، أو أقُم بأي مغازلة من النوع الفاتن ، وتملّكني خوف كبير من أن أُواجه بالرفض ، وقد أثار أولئك الفتيان الذين تصرّفوا مثل مهرجين لإثارة إعجاب البنات اشمئزازي. قالت جدتي - ظناً منها أنني متغطرس - إنني نسخة طبق الأصل عن جدي.

انتقلت إلى المدرسة الثانوية النمساوية التي تبعد 155 خطوة عن المنـزل ، وقال أوجينيو: "حسناً ، ستتعلّم الألمانية والإنكليزية جيداً". ثم صمت تماماً. في تلك الأيام ، كان شائعاً تشبيه المدارس بالسجون. وبالنسبة إلي ، بدا المكان مثل أحد تلك المستشفيات

الميدانية التي نراها في الأفلام الطويلة، ودُهشت من تلاميذ كانوا يخشون دروس اللغة؛ لأن كل كلمة تعلّمتها غذّت شهيتي للمزيد، وبدا الأمر كما لو أنني قد حللت قطعة أخرى في أحجية فسيفسائية. كان مدرّسي المفضّل السيد تي. ب.ي، الذي زوّدنا بين الحين والآخر بقول مأثور للمؤلّف المفضّل لديه إلياس كانيتي، وعلّمني لعب الشطرنج وقال: "لن أكون مسؤولاً إذا أصبحت مهووساً بها". وقال إنني سأتقن بنحو طبيعي عدّة لغات، ولم أخذله. بحلول وقت تخرّجي، في عامي الثاني عشر، كنت قد تعلّمت الإيطالية، والفرنسية، وبعض التركية العثمانية؛ الكافية على الأقل لحل رموز النقش على النافورة الجافة بجانب برج غلطة.

جعلت جدتي تشتري الموسوعة البريطانية باللغة التركية، وأخبرتها أنها كتاب مدرسي مطلوب. قرأت خمس صفحات في اليوم، وأنهيت المجلّدات الاثنين والعشرين سطراً بعد آخر في ثماني سنوات. كنت في الصف الثامن ومشغولاً بعلم الحشرات حين فُتح باب غرفتي بحرص، وأثار أثر السخرية في الابتسامة المتواضعة لعقيلة قليلاً من الشك لدي.

قالت بصوت هادئ ورتيب: "توفي والدك". كنت أقرأ ببعض الشك جملة "هناك أكثر من 700,000 نوع معروف من الحشرات، ويوجد على الأقل ذلك العدد منها لا يزال مجهولاً ..."، وتساءلت من أين حصلت على النبأ، لكن كل ما قلته هو: "كيف؟".

قالت فقط: "تناول العنب ولا تسأل عن الكرم الذي جاء منه". ما جعل دمي بارداً.

أرسى نبأ وفاة أب.ي السلام بيننا؛ فقد شعرت عقيلة بالارتياح، وتخلّت عن دور الأم تماماً لتتبنّى دور الأخت الكبيرة، وبدا هذا مفيداً حين احتجت إليه، وأنا أسامحها.

á á á

كنت وألبرتو نشعر بالسعادة دائماً حين نزور جارنا في طريق نزولنا التلة من غلطة إلى توفاني، وفي أيام دراستنا الثانوية جرت كل الأحداث الجنونية الرئيسة في مقهى نزيه الذي يجثم على الحدود بين المقاطعتين. كنا نضطر إلى دفع رشوة لدخول ذاك المكان الذي تعبق منه رائحة الشاي المعتّق ودخان لفائف التبغ، وقد بدأت الإثارة في اللحظة التي دفعنا فيها أول علبة لفائف تبغ في يد الساقي الثرثار. زبائن نزيه المعتادون من سائقي

سيارات الأجرة، وموظفون حكوميون، ومتقاعدون، وعاطلون عن العمل، ومهووسون بالميسر. لعبت وألبرتو الورق وتمنينا سراً أن يندلع شجار مثير، ومرة جاء شاب ثمل إلى طاولتنا بعذرٍ واهٍ وبدأ يكيل الشتائم لنا من نوع "أنتم جبناء غلطة الكافرون، عودوا من حيث جئتم!". ظهر فجأة رجل ممشوق القوام في الثلاثينيات من عمره، وأمسك أذن المتطفّل، وجرّه إلى الباب وألقاه خارجاً، وهكذا التقينا "الألباني"؛ إسكندر إلباسان أشقر الشعر. كان إسكندر أَبِيْه - دعوناه أَبِيْه كناية عن "الأخ الكبير" - قد انتقل بعد أن فقد زوجته في أثناء مخاضها، من منزل حميه في الضاحية وجاء إلى غلطة. لم أزر أبداً متجر المجوهرات في السوق المسقوف الذي يمتلك جزءاً منه، وابتسمت من دون أن أعير اهتماماً إلى زبائن مقهى نزيه الذين افترضوا أنه مهرّب آثار. كان مستمعاً صبوراً يلفظ كلماته بوضوح، وعلى نحوٍ يمكن فهمه بلهجة مهاجر، وهو أول من أخذني عبر الباب الدوّار لميهاني، ووجد الممرضة السلافية؛ أول من أخذتني إلى السرير. يوماً ما، انتقل إسكندر أَبِيْه إلى الطابق الأرضي في البناء السكني الهادئ قبالتنا على الطرف الآخر من الشارع، وبمرور الوقت أصبح المؤتمن على أسراري والمدافع عني، وقد اعتادت عقيلة أن تدعوه "فارس غلطة" البروليتاري.

قال أوجينيو إن البيزنطيين وضعوا أهل جنوة في غلطة لأسباب لوجستية، و"نحن جليد طافٍ انفصل عن جبل جنوة الجليدي قبل 800 عام والتصقنا بالقسطنطينية". ربما لهذا السبب لم أُدهش عندما زرت جنوة من رؤية انعكاسات غلطة هناك؛ التي كانت في أيام عزّها مقاطعة تقطنها أقلية من صفوة الطبقة الوسطى، وقد قالت جدتي: "لكن، عندما وصلنا إلى هنا بدت مثل معسكر أشباح". كان أولَ من أنعش غلطة هم المهاجرون من شرقي الأناضول، ثم في التسعينيات أُعيد اكتشاف فضائلها الجمالية والعملية من قبل أجانب يعلّمون في المدارس الخاصة الجديدة، وبعد ذلك غزا كتّاب ورسّامون والمزيد من الفنانين وبعض المهنيين الذين ظنّوا أنهم يتمتعون بروح بوهيمية تلك المباني الحجرية التي لا تزال صامدة بمرور الوقت.

كان مالك مقصف دجلة في شارع غلطة الرئيس ديوران من ديار بكر، وسرت شائعة أنه

قد عُذّب في أثناء قضائه خمس سنوات في السجن كسجين سياسيّ، وهو يعرف جيداً أن ذلك يجذب الشباب اليافعين إلى مقهاه بالرغم من الطعام التافه الذي يقدّمه. توجد إلى يسار المدخل لوحة إعلانات "الشرارة" حيث يثبّت ديوران عبارات مبتذلة من أعلام الجناح اليساري، ومقتطفات من قصائد وكتابات مقبولة، وساعدتني إحدى توصياته في التصالح مع الشعر الذي قد حوّلته المدرسة الثانوية إلى شيء كريه. كان عنوان تلك التحفة الفنية قصيدة رائعة بحد ذاتها، وبفضل قصيدة أحمد عارف قيود كسرها الشوق، بدأت كل يوم من أيامي بقراءة الشعر، وشرعت في جمع مجموعتي الشعرية. كنت كلما تمعنت في قصيدة، شعرت بسعادة مثل التي تنتاب المرء بعد حل معادلات رياضية، أو ربما بعد الانتقال على رقعة شطرنج فيها مربعات لا تُحصى. وجدت سكينة في الشعر، ووبّخت كل من دخل غرفتي، بمن فيهم جدتي، واكتشفت الإثارة الخالصة مع إغواء كاراكا أوجلان الشاعر الشعبي من القرن السابع عشر، وأخفيت حتى عن إسكندر أَبِيْه حقيقة أنني قمت بأمور مشينة أحياناً فوق أبياته. لم أعرض القصائد التي كتبتها في أعوام دراستي الثانوية إلا على سلجوق ألتون؛ وهو صديقٌ مقرّب من أوجينيو، ويفضّل الجانب المولع بالكتب فيه على جانب المؤلف، وعندما أعلن أن شعري "ليس ميئوساً منه"، جرّبت حظي بالترجمة. بدت نسختيَّ من مونتاله وكفافي لي مثل قفا سجادة حريرية، وقال أوجينيو: "حسناً، ماذا يمكنك أن تفعل إن رفضت روح الشاعر التعاون معك؟".

في الأيام الخوالي كان المكتب العقاري تحت مقصف دجلة تماماً محل مصلّح الساعات بانايوت ستليانيديس. وفي أثناء دراستي الإعدادية، كان بانايوت في العقد السابع من عمره ويعمل بمفرده. نظراً إلى عدم وجود أحد يصلح ساعات اليد والحائط آنذاك، عمل أساساً على القطع القديمة المستعصية التي يرسلها إليه بائعو التحف، وكنت أشعر بالسعادة حين يسمح لي بمشاهدة عمله، ويبهجني سماع الدقّات المتزامنة لساعة المحل العتيقة وساعات الطاولة، وأحبس أنفاسي حين يضع المكبّر على عينه ويمسك ملقطه الصغير الخاص بيده. كان بدن الساعة الداخلي معقداً مثل لوحة تحكم طائرة بالنسبة إلي، وعندما يمسكها بالملقط ويجعلها تتك يصبح الأمر رائعاً مثل رؤية مومياء مصرية تستيقظ، وكان بانايوت

الحرفي الماهر يضحك بصوت خافت حين أرتبك من عدد المهمات القصيرة التي يطلب مني تأديتها. كانت تجثم في وسط طاولته ساعة فرنسية عتيقة ، واعتدت أن أراقب فاغر الفم تأرجح الطائر المعدني ذي ألوان قوس القزح في قفصه المطلي بالذهب من اليمين إلى اليسار مع كل ثانية تتك. توقف قلب المعلّم بانايوت عن الخفقان بعد خمسة أيام من منحي الساعة التي تركها له والده ، ولم يكن لديه أولاد ، وهو الحلقة الأخيرة من سلالة أسرة ستليانيديس التي امتهنت إصلاح الساعات أربعة أجيال. بعد موته ، باعت أرملته بناءهما لأمي وعادت إلى موطنها خيوس مع باقي ساعات اليد والحائط العتيقة الخاصة بزوجها.

á á á

عندما سأل الناس عمّا أريد أن أصبح عليه حين أكبر ، أجبت بنفاد صبر: "مصلّح ساعات". وعندما استفسرت جدتي عن الموضوع الذي أرغب بدراسته قلت: "علم الإشارات" ، ثم التزمت الصمت. كان هدفي أن أكون طالب أمبرتو إيكو في جامعة بولونيا ، وسألتْ حاجة ألفية ، بعد أن اكتشفتْ أن علم الإشارات يعني لغة الإشارة ، إن كنت أحمقَ ، ثم قدّمت عرضاً غضّت أمي الطرف عنه: إذا اخترت الهندسة أو إدارة الأعمال فستتكفّل بتعليمي في أمريكا. بتوجيه من أوجينيو - الحائز على دكتوراه من بركلي - قدّمت طلبات انتساب إلى عشرات الكليات ، وبإصرار من سلجوق ألتون أضفت كولومبيا إلى القائمة في اللحظة الأخيرة ، وعندما وصلت رسالة القبول من كلية الاقتصاد في جامعة كولومبيا ، قرأتها ثلاث مرات ، في ساعات مختلفة من اليوم.

لاحقاً فقط ، عندما كنت أملأ نماذج التسجيل عرفت أن كولومبيا في نيويورك ، وفي أربعة أعوام من دراستي الجامعية عشت في مدينة مَعلْميّة ، ورأيت أن الأثرياء والفقراء الجريئين فقط يمكنهم الاستمتاع في نيويورك ، في حين أن الباقين منا ينبغي أن يقبلوا بفلسفة العادي.

انقضت الأعوام بسرعة ، من دون قصص حب ومغامرات ، وقبل أن أدرك ذلك عدت جواً إلى تركيا وأنا أحمل درجة إجازة من جامعة كولومبيا. هل كنت أنا أم بلادي التي حدث لها شيء ما؟ على متن الطائرة المتجهة إلى إسطنبول من نيويورك ، تساءلت عن العناوين

المزعجة المملوءة ترّهات التي سأراها عند الهبوط ، وبدا عدد كبير من مواطني بلدي لا يشعرون بأي سوء بشأن الفساد المستشري باستمرار أكثر من عدم تسجيل لاعب كرة القدم المفضل لديهم هدفاً. في الحقيقة ، لم يكونوا يقرؤون الصحف ، أو يكترثون إلا لمتابعة مسلسلاتهم التلفازية بشغف ، ولم أكن منصفاً بشأن البرلمان الذي انتخبوه أيضاً.

حظيت بوظيفة في قسم استثمار في مصرف كبير إرضاءً لأسرتي ، لكنني لم أستطع تحمّل الزملاء الحمقى أو الإدارة المترهّلة. إضافة إلى هذا ، ينبغي أن أعترف أنني كرهت تلقي الأوامر ، وفي نهاية شهري الأول استقلت ، واثقاً بأن جدتي ستعلن: "مثل جده تماماً".

ظننت أن بمقدوري امتهان عمل أكاديمي في الاقتصاد ، فالحاجة ألفية تحب ألقاباً رزينة مثل حاكم/جنرال/أستاذ ، ووافقت على تمويل إقامتي المؤقتة خارج البلاد ما دامت العملية ستنتهي بحصولي على درجة أستاذ. كان أستاذي المفضّل في كولومبيا أصيل فرحي ؛ ابن أسرة بلاط من إسطنبول ، الذي يدرّس في برنامج دكتوراه في كلية اقتصاد لندن ، فقدّمت طلب انتساب وقُبلت في فصل الشتاء ، ما عنى تمديد "عطلتي" آنذاك ثلاثة شهور. ذهبت إلى إيطاليا لمدة أسبوعين ، وهناك التقيت إلسا التي كانت تدير معرضاً فنياً في البندقية ، وتشاطر منزلها مع رسّامة تفوح منها رائحة مرقّق طلاء.

قالت الرسّامة: "تبدو مثل أحد نبلاء المتوسط القدامى أولئك ، ومن النوع الذي ستحب النساء إبادته".

أثناء العشاء في المنزل ، أخبرتني إلسا عن ألبرتو الذي هاجر إلى أستراليا ويدرّس آنذاك الكيمياء في إحدى مدارس سيدني الثانوية ، وعن زوجته التي تعمل في قسم الموارد البشرية في مستشفى ، والتي كانت أكبر منه بستة أعوام. حجزت تذكرة إلى أستراليا لرؤية ألبرتو مجدداً ، لكن الرياح لم تجرِ كما تشتهي السفن ، فزوجته لم تفوّت فرصة لتوبّخه ، وتحمّلت منزلهما الكئيب أسبوعاً ، ثم ركبت قطاراً إلى أديليد ، وفقط لأن اسمها أرارات ، توقفت في محطة منعزلة في منطقة نائية لمدة يومين. سافرت جواً من سيدني إلى الإسكندرية ؛ محطتي الأخيرة ، وتجوّلت هناك بين الأماكن التي قد عزل كفافي فيها نفسه ليسرد قصائده الأخيرة.

كان الخريف قد انتصف حين عدت إلى إسطنبول، حيث انتابني سأم كبير من زفاف صديق قديم من المدرسة الثانوية، وأصابني الشراب الرخيص الذي قدّموه بصداع. وفي طريقي إلى المنزل، جلست على مقعد خشبي أمام البرج، وتحدّثت مع أطفال يلهون هناك جاء أفراد أسرهم مهاجرين من شرقي الأناضول، ولم يُدهشوا حين ذكرت أسماء البلدات الصغيرة والقرى الأصغر التي قدموا منها جميعاً. نهضت، آملاً أن أصحو بعد المشي بهدوء في الشوارع الهادئة والمقفرة في المساء البهيج، وبدأت السير في اتجاه النسيم العليل الذي يهبُّ نحوي. كان الشارع الضيق كثيراً ويتسع بالكاد لدراجة هوائية مصدر إزعاج، وبعد أن توغلت فيه قليلاً رأيت فتاة في السابعة أو الثامنة تبكي أمام مبنى شبه مهجور لا يوجد فيه إلا ضوء واحد في الطابق الثالث، وترتدي كنزة وسروالاً صغيرين جداً ولا تنتعل حذاءً، وترتعش. لم يسعني إلا التفكير بأن دموعها أجمل من اللآلئ، وتأثّرت كثيراً فخلعت سترتي ودثّرتها بها. كانت الفتاة ذات العينين الخضراوين الداكنتين خيال ابنة ديوران أَبِيْه التي أحضرها أبوها كثيراً إلى مقهاه حين كانت صغيرة، وهي بنت جميلة، وتذكّرتها تجري إلي وتلف ذراعيها حول ساقي كلما رأتني. لقد توفي ديوران بالسرطان - ليرحمه الله - حين كنت في نيويورك، ثم تزوجت أرملته صديقاً قديماً له كان ديوران يعدّه ذا شخصية مريبة. أخبرتني خيال آنذاك أن أمها قد ماتت في المستشفى قبل يومين، وأن زوج والدتها طردها من المنزل.

عرفت أنني لن أتلقى جواباً، لكنني قرعت جرس باب الأحمق عديم الفائدة رغم ذلك، ثم استدرت إلى الفتاة المرتعشة وقلت: "تعالي وابقي معنا الليلة. ستتخلّصين من ذلك السكّير، إن شاء الله، غداً". آنذاك، رفعتها وحملتها على ظهري، وبكت حتى غطّت في النوم ورأسها على كتفي، وبدا أن خفقان قلبها الصغير ودفء جسدها يثقلان كاهلي، فسالت دموع من عينيّ. كنت رجلاً كسولاً بكل معنى الكلمة؛ لم يفعل بعد أي مآثر لأحد، وتلقت أمي المفاجأة في أثناء مشاهدتها التلفاز.

قلت: "عقيلة، هذه الأميرة هي أختي الجديدة".

في اليوم التالي دفنت وإسكندر أَبِيْه والدة خيال، ومقابل حفنة من المال سلّمني زوج

الأم الطفلة وغادر غلطة إلى الأبد.

كانت خيال قوية مثل أبيها ، وتغلّبت على صدمتها بقليل من العون من عالم نفس ، وكبرت لتصبح شابة ذكية وفاتنة. هي الآن تلميذة في المدرسة الثانوية النمساوية ، وتريد أن تصبح طبيبة ، وتفرق شعرها من المنتصف ؛ لأنني أحبه على هذا النحو ، وتدعو جدتي "حاجة جدة" ، وأمي "ماما عقيلة" ، وتذهب مع الحاجة الجدة إلى قبر جدي ، ومنتجع المياه المعدنية في جونين ، وتزوران شقيقتها في أرتوين. هل هي قاعدة أن تلازمك عادة مزعجة قديمة من المهد؟ نظراً إلى أن الأشقاء الأكبر سناً ينبغي أن يتزوجوا أولاً ، خيال مقتنعة - في ضوء عزوبيتي المؤكدة - أن دورها لن يحين أبداً ، وتحب أن تشتكي: "ماما عقيلة ، لن أحظى أبداً بفرصة لأتزوج".

á á á

قضيت سنواتي الأربع في لندن طالب دراسات عليا أعيش في شقة قرب المتحف البريطاني ، وبمقدوري المشي من هناك إلى الجامعة في خمس عشرة دقيقة. كانت واجهة المبنى الآجري تبدو وكأن ليغو قد شيّدته ، ولم ألحظ إلا بعد أن انتقلت إليه اللوحة في الردهة التي تثبت حقيقة أن حائز نوبل بيرتراند راسل قد عاش هناك. في إحدى المناسبات الدينية جاءت أمي مع خيال لزيارتي ، فاصطحبت الفتاة إلى حديقة حيوانات لندن ؛ لأنها أرادت الذهاب إليها ؛ قبل ذلك لم أكن قد ذهبت حتى إلى السيرك ، ظناً مني أنه رمز استعباد. لكن ، عند قفص الأسود - هل كنت مستيقظاً أم أحلم - التقت عيناي عيني تلك اللبوءة اليافعة ، وحدّقنا إلى بعضنا وقتاً طويلاً ، ثم جاءت إلى حافة القفص وأحنت رأسها ؛ كأنها تريد مني أن أربت عليه ، في حين وقفت باقي أسرتها تحملق إلي بتعاطف ؛ وكأنها تنتظر إشارتي للهجوم ، ورحّبت القطط الكبيرة الأخرى - بما فيها النمور والفهود - ب.ي من بعيد بهزّ ذيولها. ذهبت في الشهر التالي مجدداً إلى حديقة الحيوانات ، واستمتعت ثانية بطقوس الضيافة عينها ، وخطر لي أن تلك القطط النبيلة ربما تميّز صديقاً حقيقياً من أول نظرة. فكّرت في تريستان بشوق كبير ، فقد تعلّمت بفضله الأسماء اللاتينية لمئات أنواع الطيور. وكنت كلما تعمّقت معرفتي بالناس ، ازداد احترامي للحيوانات. أحببت الأطفال

دائماً ؛ خاصة الفتيات الصغيرات المشاغبات اللواتي تسيل أنوفهن ، وكنت أذهب إلى ساحة النفق فقط لأعطي المتسوّلين الصغار هناك فكّة. قالت جدتي: "إذا لم أوصِ بثروتي للمؤسسة الخيرية للأطفال ، أخشى أن تفعل أنت ذلك".

في الأعوام الستة الأخيرة ، كنت أدرّس يومين أسبوعياً في جامعة البوسفور. وفي السنة الماضية ، حين رُقّيت إلى أستاذ مساعد ، سألت جدتي: "ما الذي يعنيه هذا ؟".

قلت: "حسناً ، إذا كان الأساتذة جنرالات ، فسأكون عقيداً".

قالت: "حسناً ، في هذه الحال تهاني".

بدأت التدريس يوماً واحداً في الأسبوع في جامعة عبد القادر هاز أيضاً ؛ ببساطة لأنني لم أسأم أبداً من المشي إلى ذلك المبنى العتيق عند القرن الذهبي. دعاني كل الطلاب ، الذين يفقدون براءتهم حين يبدؤون بجني المال ، "هوكام" وتعني "أستاذي" وقد أثلج هذا صدري. في وقت فراغي كنت أقرأ الشعر ، وأدرس علم الإشارات ، أو ألعب الشطرنج ، وأكوّن أحاجي سودوكو ، وإذا خرجت مصادفة إلى المدينة ، تنتابني رهبة من ناطحات السحاب الضخمة الجديدة ، وأشعر بالأسى حقاً على كل أولئك الناس الذين يتجولون في الأرجاء مرتدين سراويل جينز زرقاء. كنت قد اعترفت لتريستان أنني مستعد تماماً للعمل مع أي قائد سياسي صادق يمكن أن ينقذ البلاد من أن تتحوّل إلى فقرستان ، لكن باستثناء هذا لا أجد سبباً يلزمني البقاء في غلطة.

في أثناء أول عطلة صيفية لي حين كنت في كولومبيا ، أصبحت جار جدتي بعد أن انتقلت إلى شقة أمي الفارغة على الدوام ؛ التي أثّثتها بقطع عتيقة من منازل غلطة القديمة: طاولتي ، وكرسيّ البالي ، وطاولاتي الصغيرة ، والتماثيل النصفية عليها لأفراد أسرتي. قال أوجينيو الذي سمع أنني قد شاهدت التمثال النصفي لتريستان: "أنت فريدٌ من نوعك". علّقت بعض الخرائط القديمة على جدار غرفة المعيشة في الأماكن التي لا تشغلها رفوف مكتبة أمي ، وحملت إحداها نقشاً من 1559 لسيباستيان مونستر ، وهي الغرض الأكثر إثارة للاهتمام ضمن مجموعة نفيسة قد تركها أحد أجدادي - لم تستطع حتى جدتي أن تتذكره - خلفه. تصوّر الخريطة التي وصفتها خيال بأنها رواية تصويرية مضغوطة في ورقة واحدة ،

غلطة قبل الفتح ، ويبدو كل شيء فوضوياً خلف أسوار القلعة العتيقة ، في حين يقف برجنا منتصباً وقوياً بجانب قناة ري.

جمعت عدّة كتب خرائط قديمة بمال وفّرته من جدتي لمصاريف الدراسة ، وتلقيت دروساً في اللاتينية لأتفحّصها بإمعان. لم تفشل أبداً كل أسماء المدن على تلك الخرائط في أن تكون شعرية ، وجذبتني تلك التي ركزت عليها ، حرفاً بحرف ، إلى داخل أسوارها ، وذهبت في جولات نموذجية ، وافترضت أنني ينبغي أن أختبر ما قد جرى للإنسانية بسبب أخطاء فردية.

اعتاد ألبرتو - الذي أرغمته أمه على الإصغاء إلى موسيقى كلاسيكية نصف ساعة كل ليلة لأنها ظنّت أنها تشحذ عقله - أن ينقل عني في المدرسة كلما سنحت له الفرصة. بالنسبة إلي ، كانت الموسيقى الكلاسيكية مثل تهويدة متواصلة ، والموسيقى الشعبية خضاراً منوّعة ومعلّبة. في إسطنبول يوجد الكثير من متاجر الأدوات الموسيقية في شارع غالب ديدي الذي يصل مقاطعة غلطة بجادة الاستقلال. سألت خيال مرة: "أَبِيْه ، هل تحاول جعل الناس يفكرون ويضحكون في الوقت نفسه ؟". وأخبرتها أنني أسرع في ذلك الشارع حتى لا تلقي الأدوات المعلّقة في نوافذ المتاجر نغمات غير موسيقية علي. كانت نغماتي الموسيقية ، ولا تزال ، صوت الريح وهي تهب عبر أزقّة حينا ، وصرخات النوارس ، وصفارات الإنذار ، وصافرات القطارات ، والأذان ، وأجراس دور العبادة ، وقهقهات البنات الصغيرات ؛ كانت طبيعية وخالية من التوقع. إذا كنت في مزاج جيد لسماع سيمفونية ، كنت أقوم برحلة طويلة جداً.

يُودَع دخلنا من الإيجار في حساب جدتي المصرفي ، وبعد النفقات يُقسّم الباقي إلى نصفين ؛ إلى دولار وليرة تركية ، ويُوضع في ثلاثة حسابات منتجة للريع ؛ واحدٍ لكل منا ، لكنني وأمي ليس مسموحاً لنا أن نمس حسابينا. تضع جدتي 7500 دولار في حسابي كل شهر ، ويُعدّل هذا المبلغ دورياً على أساس يعادل راتب رئيس الوزراء ، وأنا واثق أن المبلغ الخاص بأمي يعادل راتب الرئيس ، في حين أن خيال ينبغي أن تقبّل يد جدتها لتحصل على حصتها.

جمعت ساعات يد، وقمت برحلات طويلة، وكان الافتقار إلى سبب لتوفير المال مصدراً لحريتي. في أعوام دراستي، تجولت عبر الأناضول لأرى قلاعها وجسورها ومناراتها العتيقة، وذهبت إلى جنيف لأنظر بإعجاب إلى ساعات اليد خلف واجهات المحال، وإلى تاريفا لأشاهد الحيتان القاتلة، وإلى خليج دروريدج لأزور محمية الطيور، وإلى عُمان لأرى الرّاي اللسّاع، وإلى أوديسا لألعب الشطرنج مع معلّم يرتدي ملابس أنثوية. دُهش الناس من عدم معرفتي المرأة الصامتة ضمن المجموعة في نزهة مع ماريتا وشالك في متنزه هارناس الطبيعي في ناميبيا، وكان ماريتا وشالك أسدين مروّضين؛ والمرأة ذات العينين البنفسجيتين نجمة هوليوود التي تدعى أنجلينا جولي.

تحب خيال مشاهدة الصيادين على جسر غلطة، وأذهب إلى هناك معها إن لم تكن على وفاق مع حبيبها. وفقاً لبعض الرايات المعلّقة على الجسر بأوامر من العمدة، اليوم - 29 أيار 2008 - هو الذكرى 555 لفتح إسطنبول من البيزنطيين، وهذا يعني أنني سأبلغ الثالثة والثلاثين غداً، وذكّرتني تلك الرايات بكل احتفالات ذكرى مولدي التي لم يُحتفل بها، لكن كما قال أوسكار وايلد: "بعد الخامسة والعشرين، الجميع بالعمر نفسه". في احتفالات ذكرى مولدي أُصاب بالسأم من عدم السأم أبداً.

ينبغي أن أتصل بالسيدة أولغا التي تعرفني باسم إنجين غلطالي من كشك هاتف. ولأنني بدأت بقراءة قصائد مواطنها لجوزيف برودسكي، وليس لأنني أقمت علاقة مع فتاتين في الوقت نفسه، تدعوني أولغا المدرّسة المتقاعدة "سلطاني".

بَاء

في بداية مسيرتي المهنية في التدريس أخبرني أوجينيو: "كل واحد من تلاميذك مثل شمعة مُنحت إيّاها لتصونها، لا تنس هذا".

فعلت أكثر مما هو مطلوب مني، وأضحى قلبي دافئاً بشعلتهم المتمايلة. أوجدت جواً خالياً من التوتر في صفوفي، ونجحت في أن أصبح المؤتمن على أسرارهم، ومرة في السنة كنت آخذهم إلى غلطة وأرشدهم عبر أزقّة الحي المتداخلة. كتبت لي طالبات رسائل حب، وحاول طلاب - يعرفون حبي للشعر - تعريفي إلى نساء في قسم الآداب، وكنت أدرك

جيداً أنهم يحترمونني بسبب رحلاتي غير الاعتيادية.

عقدت العزم على السفر جواً إلى عاصمة إريتريا في 15 حزيران 2008، فقد أردت الاطلاع على فن العمارة في أسمرا، وفي الوقت نفسه لقاء ليو بونتو الذي استقر في المدينة من أجل اسمها الجميل، ولعب بعض مباريات الشطرنج. بعد ذلك خططت للقاء صديق الدراسة القديم جيمس هيل في دار السلام، وكنا ننوي قهر كليمنجارو فوق سهل سيرينغيتي.

في صباح 5 حزيران، فتحت المغلّف الذي سلّمني إيّاه ساعٍ، وأصبح واضحاً لي أنني ينبغي أن ألغي خططي إلى أسمرا. قرأت على الورقة الأرجوانية التي أخرجتها منه دعوة غامضة:

سيدي المميز،

كنت صديق جدك، ليرحمه الله، وسأكون سعيداً برؤيتك في فندق فورسيزنز في السلطان أحمد غداً عند الساعة 14:00. أرجو أن تجلب معك خريطة كريستوفورو دي بوندلمونتيبوس تلك التي تحتفظ بها في المنزل، لكن لا تنزعها من إطارها. لست مهتماً بخريطة بوندلمونتيبوس، والغرض الآخر أكثر أهمية بكثير، ولدي نبأ رائع لك.

سيلتقيك أحد مساعديَّ في الردهة، وآمل أن يبقى اجتماعنا سراً بيننا.

مع فائق الاحترام،

نيكوس أسكاريس

كانت الكتابة بخط اليد وبحبر أسود. قرأتها مرتين، لكن أول ما أثار انزعاجي هو جملة الاحترام الأخيرة المبالغ فيها من صديق جدي هذا، والتي بدا أنها قد أُقحمت هناك، وربما تكون تحذيراً باكراً بعبء قادم. عندما نفضت الغبار عن الخريطة المؤطرة التي رسمها عام 1 فلورنتين قس بوندلمونتيوس ووضعتها على طاولتي، تساءلت عن أسكاريس ذاك الذي لم يغفل علامة التشكيل في اسمي. نظرت إلى غلطة على النقش تحت الزجاج، وبدت الأسوار التي تطوّق المدينة من الشمال والغرب ترقص هالاي في دائرة حول البرج، وظهرت الآثار البيزنطية داخل أسوار المدينة جبانة مثل بيادق على رقعة شطرنج. اتصلت هاتفياً

بالفندق ، وسألت عن نيكوس أسكاريس ، وقلت للرجل الذي أجاب بصوت حاد النبرة: "أتصل لأسمعك تقول إنك لا تقدّم عرضاً غير قانوني". عندما ردَّ أسكاريس بتركية فصيحة ونطق المقطع الثاني من اسمي على نحو صحيح أيضاً شعرت بالارتياح نوعاً ما ، فغلّفت الخريطة الصغيرة بحرص ، وجهّزت نفسي للقاء. فجأة ، بدأت أتساءل عن طبيعة عبء محتمل ، وغيّرت رأيي وقرّرت ألا أتصل بالسيدة أولغا. ومن دون سابق إنذار شعرت بشوق إلى جورج سفريس ، فأنزلت الأعمال الكاملة من على الرف وفتحتها عشوائياً:

ما الذي تبحث عنه يا صديقي القديم ؟
بعد كل تلك الأعوام
تحت سموات غريبة
بعيداً عن أرضك
لقد عدت إلى وطنك من المنفى
متعلّقاً بكل تلك الذكريات

á á á

عندما أذهب إلى ساحة السلطان أحمد يبدو لي أنني أعود إلى عهود مختلفة من الماضي ، ووجدت نفسي هذه المرة في الجو الاحتفالي للمضمار البيزنطي. لاحقتني أصوات المشاهدين المتحمّسين على كل الطريق المؤدي إلى مسجد السلطان أحمد...

في الطرف الآخر من الساحة يقف فندق فورسيزنز مثل خفير ، وقد شُيّد أصلاً ليكون بناءً حكومياً ومقراً للخدمات العامة ، ويتمتع بتاريخ مظلم ؛ لأنه كان سجناً لما يدعى مجرمي الرأي. عندما دخلت الردهة الهادئة ، تجسّد رجل ضخم ملتح أمامي.

قال بتركية مثالية تقريباً: "أهلاً بك يا سيدي ، أنا ثيو باباس ، وموجود هنا لأصطحبك إلى السيد أسكاريس إذا سمحت". عندما مشيت خلف الرجل تفاحي الوجنتين الذي لم يبدُ عليه أنه في سنّ أكبر من أربعين عاماً ، كنت أفكر أنه يظهر مثل رجل دين ومدير أمن في الوقت ذاته ، وفكّرت أن الساحة الأنيقة التي تجاوزناها كانت بالتأكيد ساحة تدريبات

السجن.

قال ثيو بابتسامة: "جناح السيد أسكاريس كان مكتب آمر السجن".

كان نيكوس أسكاريس رجلاً ضئيلاً وقبيحاً في العقد السادس من عمره، له لحية خفيفة، ووجهه جامد مثل قناع، وتساءلت عن نوع الصفات الإيجابية التي يتمتع بها للتعويض عن مظهره. كان هناك رجل آخر في الغرفة الفسيحة، ذو لحية حمراء، ويضع نظارة، وكان يدعى كاليغاس؛ مساعد أسكاريس الآخر. بدا أن الثلاثة يتمتعون بصفتين مشتركتين: جميعهم ملتحون ويرتدون بذلات. كان بمقدوري أن أخمّن أنهم يعملون لكنيسة أو منظمة خيرية، ورأيت على الطاولة رزمتين، فوضعت الحقيبة التي تضم الخريطة المطلوبة في الرسالة بجانبهما، ثم طلبت كأساً من الشراب. أخرج أسكاريس ماءً معدنياً لنفسه من الثلاجة، وأشار لي نحو الطاولة، فيما جلس باباس وكاليغاس على كرسيين خلفه مباشرة. تكلم كاليغاس الذي يبدو في الخامسة والثلاثين تقريباً التركيةَ بطلاقة أيضاً. كدت أتعوّد على إصرارهم على ألاّ يفشلوا في إظهار احترام مطلق تجاهي.

قال أسكاريس: "قبل أن نتطرّق إلى الموضوع الرئيس يا سيدي، أود أن أطرح عليك سؤالاً، إذا سمحت لي. في جملتين، كيف تعرّف بيزنطة؟".

"في سالف العصر والأوان كانت بيزنطة مرادفة للخداع، لكن هذه الصورة قد تغيّرت تدريجياً. بالنسبة إلي، دمجت بيزنطة الشرق والغرب، وأصبحت أبرز حضارة في وقتها، ثم أشعلت شرارة النهضة".

"يا له من موجز رائع! يمكن إضافة أنه لم تبقَ أي إمبراطورية أخرى حية ومفعمة بالنشاط أكثر من ألف ومئة عام. في بيزنطة، لم ينتقل المـلك دائماً من الأب إلى الابن البكر. ومن أجل السماح للشخص الأكثر جدارة باعتلاء العرش، كانت تجري عملية انتقاء مرنة، وبسبب هذا شهدوا أوقاتاً متقطّعة من النزاعات الدموية. لكن، ألم تعانِ روما واليونان الإغريقية من مشكلاتٍ مشابهة؟ نظراً إلى أن وسائل الاتصال في تلك العهود لم تكن متطوّرة كما هي الحال في بيزنطة، يبقى تاريخها المسجّل ناقصاً.

تبدأ عظمة بيزنطة مع رغبتها بمواصلة تراث اليونان وروما التي كانت وريثتهما الطبيعية.

كما قلت ، أصبح ذلك الإرث أكثر ثراء بلمسة من الشرق.

وضعت بيزنطة أسس الحداثة ، وأنشأت مؤسسات اجتماعية حكومية ، ونظّمت القطاعات العسكرية والتعليمية والمالية والقانونية والتكنولوجية ، وجعلت الرياضة والترفيه جزءاً متمماً من الحياة. ولزيادة جودة الحياة ، كوّنت تنظيمات لتحسين الرعاية الصحية ، وتخطيط المدن ، وتنظيم الحرف ، والأزياء ، وصناعة المجوهرات ، والآداب الاجتماعية. وبوصفها نموذجاً يحتذى أثّرت على جيرانها في العلم ، والثقافة ، والفنون. ومعروف أيضاً أن علماء بيزنطة الذين تدفقوا إلى أوروبا بعد سقوط القسطنطينية مهّدوا الطريق أمام النهضة.

في أثناء العصور الوسطى ، كان الشرق عموماً متفوقاً على الغرب من الناحية العسكرية ، وأنقذ البيزنطيون مستقبل أوروبا بسد الطريق أمام الجيوش الشرقية إلى القارة غير المستعدة. باختصار ، كانت بيزنطة الحضارة الأكثر أهمية في التاريخ. وإذا كان البشر يتضرّعون شكراً للهبات التي تُسبغ عليهم ، ينبغي أن يأتي اسم بيزنطة في مكان متقدم".

لم يثر إعجابي أن أسكاريس يحب بيزنطة ، وقاطعته بطلب كأس أخرى من الشراب ، ثم جلست وأنا أستمع إلى الجزء الثاني من كلامه المسهب الذي يقصد به ربط مونولوجه بموضوع العمل. شعرت بالفضول بشأن عرضه ، لكنني عرفت أنني لن أوافق ، وربما يفسّر هذا سلوكي الهادئ الذي بدا أنه يفاجئ الفريق. ما كنت مهتماً به في الواقع هو كيفية تعلّم هؤلاء اليونانيين المملّين الثلاثة تكلم التركية بطلاقة.

جلس أسكاريس والاثنان خلفه مجدداً ، وتابع أسكاريس ذو الوجه النحيل بنبرة أكثر حدّة:

"طوال أحد عشر قرناً حكمت بيزنطة إحدى عشرة سلالة. وفي عهد الأخيرة ؛ سلالة بالايولوجي ، اعتلى أحد عشر إمبراطوراً العرش لمدّة 192 عاماً. حكم بالايولوجي الإمبراطورية أطول مدة ، وفي أحلك أوقاتها ، وقد أسّسها مايكل الذي انحدر من أسرة نبيلة. وفي الواقع ، إن اسمه الأخير ، ويعني "كلمة قديمة" ، دليل على جذوره العميقة. ينبغي عدُّ أداء سلالة بالايولوجي في أثناء حكمهم ناجحاً ؛ نظراً إلى الظروف ذلك الوقت ، وكان الإمبراطور

الأخير؛ قسطنطين السادس بالايولوجي، في الخامسة والأربعين حين اعتلى العرش عام 1. ويعد قائداً قدوة؛ ما جعل كلاً من الجيش والشعب يزعمان أنه منهم. وعندما رفض شروط السلطان محمد الثاني للاستسلام، بدأ الجيش العثماني المكوّن من 80,000 رجل بحصار القسطنطينية في 2 نيسان 1453، في حين كان الجيش البيزنطي يضم نحو 70,000 جندي، ومهمته الدفاع عن مدينة انخفض عدد سكانها إلى 60,000. وضع الإمبراطور ثقته في أسوار المدينة - التي قد فشل الغزاة في اختراقها 800 عام - ودعم حلفاء مثل البابا نيكولاس الخامس والملوك الأوروبيين، لكن المساعدة ضد خمسة وخمسين يوماً من الحصار تأخرت في الوصول، ولم تكن إلا رمزية فقط. بدا الأمر أن البابا أراد طعن ظهر بيزنطة الأرثوذكسية؛ لأنها لم تعترف بسلطته أبداً.

فقد الجيش قوته الدفاعية، وشعر الناس الذين عانوا ضائقة اقتصادية خانقة بالقلق، وصرف قسطنطين انتباه الشعب بوعود فارغة، ودفع لجنوده أجوراً بصهر الأواني المعدنية النفيسة الخاصة بدور العبادة، لكن جهوده البطولية لم تكن كافية، وفي 29 أيار 1453 استسلمت القسطنطينية! عُرضت جثة قسطنطين الحادي عشر بثيابه الإمبراطورية عبر شوارع المدينة، لكن 53,000 مدني وجندي جعلتهم القوات العثمانية عبيداً كانوا واثقين تماماً أن الجثة لم تكن لإمبراطورهم، وصدّق معظمهم أنه قد اختفى بين الأسوار الضخمة، وسيظهر بحلول يوم الاستقلال مجدداً.

كتب جورج سفرانتزيس أن قسطنطين الحادي عشر توفي في القتال على أسوار المدينة. وفي ذلك الوقت، حظي هذا الزعم بالمصداقية، ولفّق المؤرخ نفسه أيضاً قصة أن العثمانيين أحضروا جيشاً من 200,000 جندي لحصار المدينة. لم يكن سفرانتزيس - الذي ولد عام 1401 - المؤتمن على أسرار الإمبراطور فقط، وإنما خليله وأمين سره الخاص. من ناحية أخرى، كتب المؤرخ نيكولا ديلا توسيا، والشاعر أبراهام من أنجورا، والأسقف البيزنطي ساميل أن الإمبراطور هرب على متن سفينة.

عند نهاية الحصار، كان الإمبراطور في التاسعة والأربعين من عمره، وإذا أخذت بالحسبان متوسط العمر في تلك الأيام، فلا بد أنه كان قوياً مثل أحد أجدادنا في الخامسة

والسبعين من العمر. ربما لم يكن بمقدوره القتال سيفاً بسيف مع العثمانيين ، لكنه فعل أكثر من ذلك. وبوصفه قائداً عاماً ، نسّق نشر الجيش على طول أسوار دفاعية تمتد خمسة أميال. مع اقتراب النصر العثماني ، التمست حاشيته المقرّبة منه الانسحاب إلى موريا ، حيث يمكنه البقاء في المنفى لبعض الوقت ، والعودة إلى العرش حين تصبح الظروف مناسبة ؛ كما فعل مايكل الأب المؤسس للسلالة. عندما رأى جيشه يتفكّك أمام عينيه ، ونتيجة شعوره بالضغط من تلك الاقتراحات الجبانة ، فقد قسطنطين وعيه ، فوضعت ثيابه على ضابط سُحقت جثته ، ثم أوثقت يدا الإمبراطور وقدماه ، ووُضع على متن آخر مركب من جنوة يغادر المدينة ، وأغفلت كتب التاريخ حقيقة أن الإمبراطور قد اختُطف.

كان ضمن قائمة أسماء النبلاء على قائمة ركاب المركب ستة بالايولوجي ، واثنان كانتاكوزني ، واثنان كومنيني ، واثنان لاسكاريس ، واثنان نوتاراس. كان لوكاس نوتاراس الدوق الأكبر للقصر ، وكان هو وسفرانتزيس صهرَي بالايولوجي ، لكنهما لا يحبّان بعضهما أبداً. بدا نوتاراس رجل دولة غامضاً ؛ مواطناً من جنوة والبندقية على حدٍّ سواء ، ويمتلك ثروتين كبيرتين في كلا المكانين.

استسلم نوتاراس وسفرانتزيس للعثمانيين ؛ لأن السلطان ضمن للنبلاء حياتهم ، لكن نوتاراس قُتل بعد أسبوع من سقوط المدينة لأسباب مجهولة ، في حين أن سفرانتزيس ، من جهة أخرى ، هرب إلى ميسترا القاعدة الأخيرة في الإمبراطورية.

لنعد إلى مركب جنوة. وفقاً لقائده ؛ القبطان زورزي دوريا ، ترجل الركاب البيزنطيون في خيوس وكريت ، ومن هناك انتشروا إلى موريا وكورفو وعدّة بلدات إيطالية. ذهب الإمبراطور وأقرباؤه مع ابنة لوكاس نوتاراس وشقيقته في بادئ الأمر إلى البندقية ، وهناك نقلوا الثروة التي تراكمت في حسابات أسرة نوتاراس إلى أقرباء الإمبراطور.

لم تطأ قدم قسطنطين أبداً بعد ذلك تراب البندقية أو جنوة ، وعاش باقي حياته متوارياً عن الأنظار في بلدات إيطالية حاملاً لقب والدته ؛ دراغاس ، وتزوج أرملة نبيلة من رافينا وأطلق اسم أمه هيلينا على ابنته المولودة حديثاً آنذاك. أخفى هويته الحقيقة عن الجميع ، حتى إن زوجته لم تعرف إلا أنه أمير بيزنطي كهل ، ولم تعمّر زيجات الإمبراطور السابقة

طويلاً بسبب وفاة زوجتيه بالمرض ، وكانت كلتا الإمبراطورتين سيئتي الطالع إيطاليتين. عاش قسطنطين اثنين وعشرين عاماً أخرى ، كاتماً اكتئابه الشديد ، وتوفي في الحادية والسبعين من عمره. عرف دائماً أنه لن يعود أبداً إلى القسطنطينية ، لكنه لم يتكيّف إطلاقاً مع هذا ، وفي الواقع ، وضع "قائمة انتقام". كانت أوروبا ، بتخليها عنه في وقت الحاجة ، قد خانت بنحو سيئ بيزنطة التي حمت دائماً خاصرتي الأولى من الهمجيين الآسيويين. لست في موقع يخوّلني إفشاء معلومات تفصيلية عن القائمة ، لكن يمكنني إبلاغك حكايتين مثيرتين للاهتمام.

توفي نيكولاس الخامس ، البابا الذي أضحى هدفاً للعنات بيزنطية كثيرة ، فجأة بعمر الثامنة والخمسين. كانت تلك صدمة ، فقد بدا دائماً موفور الصحة وخالياً من الأمراض الخطرة. قيل إن سبب الوفاة هو "النقرس" لإخفاء حقيقة أنه قد سُمّم. ثانياً ، توفي السلطان محمد الثاني عام 1481 عن عمر ناهز التاسعة والأربعين عاماً فقط. شيء مثير للاهتمام ، أليس كذلك ، أن يدون التاريخ سببي الوفاة - نقرس أو سم - له وللبابا. وفقاً للشرق ، كان النصارى من سمّموا "محمد" ، ووفقاً ل-لغرب كان ابنه بايزيد الثاني. وشخصياً ، أظن أن هذين الاسمين كانا في أعلى قائمة الانتقام.

لم يلتقِ قسطنطين سفرانتزيس مجدداً أبداً ، وربما أراد تفادي المخاطرة ، وقد توفي أمين أسراره عام 1477 داخل دير في كورفو. لم يترك النبلاء الثلاثة الذين رافقوا الإمبراطور على متن المركب خدمته أبداً ، وعندما توفي قسطنطين في العام 1475 عهد بثروته السرية وعرشه في المنفى إليهم ، فأسّس هؤلاء جمعية سرية أسموها نوموفيلاكس (نومو)، التي تعني "حرّاس القانون" ، وبمرور الوقت ضاعفوا الثروة الموروثة ، ونفّذوا المهمات على اللائحة واحدة بعد أخرى.

كان حفيد قسطنطين الوحيد ؛ ماسيمو دوربينو ، تاجراً طموحاً ، ولم يكن هناك ميناء تقريباً في الشرق لم يزره. تزوج امرأة يونانية من سميرنا واستقر في إسطنبول عام 1503 ، وعندما تزوجت ابنته الوحيدة ؛ أيرين ، ابن باشا واعتنقت الإسلام باسم جديد هو آمنة ، انتقلت الإمبراطورية البيزنطية في المنفى إلى العثمانيين. كانت إحدى مهمات نومو دائماً

انتقاء إمبراطور من شجرة أسرة السيدة آمنة ؛ لأن قسطنطين أراد أن يتعامل أحفاده "المختارون" فقط مع محتويات القائمة ، ولا يستطيع أحد تنفيذ أيٍّ من تلك المهمات إلا بعد انتقائه إمبراطوراً من ثَم "اختياره".

استمرت نومو في العمل آخر 533 سنة ، وفي كل ذلك الوقت لم يصبح العرش البيزنطي في المنفى شاغراً أبداً ، وأول ما يشرع به الإمبراطور الجديد هو أن يقسم على السرية ؛ ينبغي ألا يشاطر سره أحداً ؛ حتى زوجته ، وعقوبة هذه الخيانة هي ... الموت!".

توقف أسكاريس عن الكلام ليقوّم ردّة فعلي ، وربما أظهر وجهي تعبير ممثل سئم من نصه. طلب إذني ليفتح الرزمة التي قد أحضرتها ، وانتابني القليل من الشك حين أخرج ملقطين صغيرين من جيبه. لكن ، عندما مسَّ نقطة معينة على حافة الخريطة ، انشطر الإطار المعدني من الأسفل. أغمض عينيه تقريباً ، وبدا أنه يتضرّع بصمت ، وكان واضحاً أنه لن يتأثر بأي شيء أقوله أو أفعله ، ثم باستخدام ملقطيه أخرج بمهارة ورقة من بين الخريطة والإطار المعدني. هل كان عليها نصف صورة ؟ أظهرت اللوحة رجلاً طويل الوجه ملتحياً يعتمر خوذة مزينة بنسر له رأسان ، واتضح أنه جلالته ، يبدو أنه ينتظر الحافز المثالي لمخاطبة شخص في الأسفل. مدَّ أسكاريس آنذاك يده داخل الرزمة الأرجوانية الموضوعة على الطاولة وسحب خريطة أخرى ، وباستخدام الطريقة نفسها مجدداً ، أخرج ورقة منها ووضعها أسفل الأولى. أضحت الصورة آنذاك مكتملة حتى الحزام المزخرف ، ومن طريقة مدّ جلالته يديه ، بدا أنه يلتمس العون.

نهض أسكاريس ومساعداه فجأة ، ووقفوا باستعداد وهم ينظرون إلى الأسفل. قال أسكاريس: "سيدي المحترم ، هذا نقش للإمبراطور البيزنطي الأخير ؛ قسطنطين دراغاس بالايولوجي الحادي عشر ... وأنت يا سيدي سليله الأخير ، وهذا يعني أنك الإمبراطور البيزنطي الحالي في المنفى ؛ قسطنطين بالايولوجي الخامس عشر ...".

شعرت بأنني متسمّر إلى الطاولة من مرفقيّ ، ولم أترك السيد "عينا البومة" يكرّر جملته ، كي لا يزداد التوتر في الجو. كانت كل خلية في جسدي تبعث رسالة إلى دماغي ، وتساءلت إن كان رأسي سيُسحق ويظهر القرح على لساني فجأة ؟ كنت بالتأكيد ضحية خطأ

فادح ، وطلبت من الثلاثي الواقف أمامي مثل مجموعة حرّاس شخصيين أن يجلسوا.

قلت: "أتساءل أولاً ، ما نوع الدليل الذي لديكم عن هذه المعلومات الغريبة؟ وثانياً ، إذا لم تكونوا أتراكاً ، فكيف بمقدوركم أن تتكلموا لغتي بطلاقة؟".

مال أسكاريس بحماسة إلى الأمام ، ثم أخرج ألبوماً أرجوانياً من الحقيبة الجلدية ، واقترب مني. رأيت على الصفحات التي قلّبها بنحو شعائري صوراً لأحد عشر شخصاً ، من دوربينو وصولاً إلي ، ونسيت الخلاصة التي سردها علي وهو يقلب الصفحة ، وبدت مكافأتي الوحيدة في تلك الجلسة أن أعلم أن أسرتنا قد انتقلت إلى طرابزون في القرن الثامن عشر. كلما أسهب السيد "عينا البومة" في الكلام ، قلّت فرصي في اكتشاف أي أخطاء ، وأجريت تحليل موقف سريعاً: بعد إقرار القانون الحديث الذي يطلب من الأسر اعتماد الألقاب ، انتقى جدّي الخيار الأفضل لنا ؛ "أصيل" التي تعني "نبيل". باستثناء اسمي ، كانت كل الأسماء التي حملها أجدادي مرادفات إسلامية لأسماء أباطرة بيزنطيين: يحيى/جون ، ميكائيل/مايكل ، إسحاق/إيزاك ، رومي/رومانوس. كنت على وشك إضفاء بعض الدعابة على الوضع بإبداء ملاحظة عن أن هذه المقاربة الشاملة لم تُغفل أمي - عقيلة/صوفيا - حين أثار شيء ما في مؤخر ذهني انتباهي ، ويتعلق بتسميتي تيمناً بجد جدي ، يحيى أصيل ، حين كنت لا أزال طفلاً ، لكن الإعلان أُجِّل ثلاثين عاماً. بدأت الاحتمالات الأكثر تشويقاً تدور في عقلي مثل أسئلة متعددة الخيارات في فحص.

غيّرت الموضوع ذهنياً ، وطلبت معلومات عن نومو ؛ فتغضن جبين نيكوس أسكاريس.

"تابع أحفاد النبلاء الثلاثة الذين أسّسوا التنظيم المهمة ، وانتقلت إدارة نومو عادة من الأب إلى الابن ، وأولئك الذين لم يُرزقوا أولاداً تبنوهم ، وصدّقت زوجاتهم أن أزواجهن كانوا ببساطة مستثمرين أثرياء. كان هناك دائماً ثلاثة أشخاص في الإدارة ، ولم يعارضوا بعضهم بعضاً أبداً.

لم يفشلوا أبداً في زيادة الثروة التي ورثوها ، ولم يكونوا على عجلة من أمرهم أو يقدموا على المخاطر. لا أحد يعرف كم مليار دولار قيمة الميزانية العمومية ل-نومو هذه الأيام ، لكن يقال إنها لا تستثمر في العقارات أو سوق الأسهم. أماكن إقامة أعضاء التنظيم ولقاءاتهم

سرية أيضاً ، وهم يعتنون بالأباطرة الذين اختاروهم ، ولا يلتقون شخصياً إلا أولئك الذين يعدّونهم جديرين بذلك. هناك شخص يضع قناعاً ينقل الأوامر إلي ، وهو على الأرجح ليس على تواصل مباشر مع أفراد نومو أيضاً ، والمعلومة الوحيدة التي يمكن أن أقدّمها لك هي أن تركيتي التي تفي بالغرض تعدُّ تحديداً سبب وجودي هنا ، ولا يمكنني إبلاغك أي شيء آخر ، طبعاً سيكون حدسك قد أخبرك أننا لا نستخدم أسماءنا الحقيقية في سياق مهماتنا.

يمكن أن نعرض عليك نسخة من الوصية التي وقّعها جدّك وتركها مع نومو ، وسترى التوقيع نفسه على الزاوية السفلية اليمنى من الخريطة التي أحضرتها. في اللحظة التي تؤدي فيها القسم بقبول شرف التاج الإمبراطوري ومسؤولياته ، ستُكلّف بمهمة خاصة".

قلت: "حتى إذا صدّقت أنني سليل ماسيمو دوربينو ، فكيف سيثبت هذا أنني سليل الإمبراطور الأخير ؟".

"في الواقع ، توجد براهين في الوصية ، أو على الأقل دلائل يمكن أن ترقى إلى براهين. لكن ، صحيح أنك لست في موقع يسمح لك بتحليل كل هذا. إذا تمكّنت من التواصل مع نومو ، يمكن أن يزوّدوك بكل البراهين التي تريدها ، وحتى اختبار الحمض النووي ، ولهذا السبب أتخيل أن هناك فحصاً ملكياً ينتظرك في مكان ما ، ونحن في خدمتك ؛ إن سمحت لنا. هذه نقطة تحوّل في تاريخنا ؛ لأن الوقت قد حان للتعامل مع البند الأخير على قائمة قسطنطين الحادي عشر ، وعندما تُنجز هذه المهمة ، سيعني هذا أن تجربة مهمة جداً قد انقضت ، وستقرر عندئذ مع أعضاء نومو ، مستقبل التنظيم ، وقد يعني هذا إغلاقه".

"أولاً ، أريد معرفة سبب اختياري للمهمة النهائية. ولماذا انتظرتم حتى الآن لتعلنوا عن هذا ؟".

استرخى الثلاثي بنحو ظاهر للعيان ، وبدا واضحاً أنني قد طرحت السؤال المتوقع. شبّهت كاليغاس الذي طلب الإذن للإجابة عن سؤالي بالحاخام المرتبك في أفلام فنية ، وربما كانت لحيته الحمراء تلك زائفة ، وشعرت برغبة بنتفها.

"تأثرت بيزنطة بالشرق ، ولم تستطع التخلي تماماً عن معتقدات الشرك من العهد الوثني ، وبقيت القوة الغامضة معروفة دائماً. اسمع ، حكمت إحدى عشرة سلالة

الإمبراطورية التي عاشت أحد عشر قرناً، وتعاقب أحد عشر إمبراطوراً في السلالة الأخيرة، وأنت المرشح الحادي عشر لتكون إمبراطوراً في المنفى. رمز بيزنطة هو النسر برأسين، والتعبير العددي له هو أحد عشر (II)؛ الذي يعدُّ أيضاً رمز القيادة والوحدة... خسرنا القسطنطينية في 29 أيار، وولدت أنت في صباح 30 أيار، ولم يولد إمبراطور آخر في مثل هذا اليوم ذي المغزى... خمسة هو رقم المصير؛ وتكوّن الذكرى 555 لخسارتنا القسطنطينية... ثلاثة هو الدلالة المبجّلة للارتياح، وقد بلغت للتو الثالثة والثلاثين...

سأُطلعك على بعض الأمثلة المستقاة من سيرتك الذاتية. رغم الصعوبات الأسرية، لم تتحوّل إلى طفل مشكلة، وكنت طالباً مثابراً وصادقاً ومحبوباً. تابعت نجاحك في بعض أبرز الجامعات في العالم، وأنت مثقّف ومحب للفنون يجيد خمس لغات. لم تحاول التملّص من خدمتك العسكرية الإلزامية، وبمقدورك دخول الحياة السياسية بفضل جواز سفرك الذي يتيح لك دخول أيّ بلد؛ في حال توافر شروط موضوعية، وتتمتع بكرامة تجعلك لا تتقبّل الأوامر من أشخاص آخرين، وكبرياء تمنعك من مغازلة الفتيات. وإذا تقابلت وجهاً لوجه مع أسد يتحوّل إلى قط منزلي، والغموض الذي تتمتع به جدير بالاحترام. سيدي، أنت الإمبراطور الذي بقيت بيزنطة في المنفى تنتظره طوال 555 عاماً الماضية! بفضلك، ستجد روح قسطنطين الحادي عشر - الذي مات من دون تحقيق ما يرجوه - السكينة، ونحن نخاطبك بفخر صاحب الجلالة".

كان ذلك الثناء الذي أتلقاه بجرعات أكبر وأكبر قد بدأ يضجرني. بالرغم من هذا، صدّقت ما أخبرني إيّاه موظفو نومو هؤلاء، وكدت أتعاطف تقريباً مع التنظيم الذي قد لاحقني حتى إلى فنادق الغرام. بوصفي محباً للألغاز، شعرت بالفضول بشأن الاختبار الذي ينتظرني، وبفضول أكبر بشأن البند الأخير في الوصية الأخيرة لقسطنطين الحادي عشر، وظننت أنني ربما قد وجدت المشروع الذي سيخرجني من غلطة مجدداً.

كانت الحكمة التي أنهيت بها الاجتماع: "قالت جدتي دائماً إنك ينبغي أن تفكّر مرتين؛ حتى إذا كنت تشتري ثياباً داخلية فقط". بدأ ثيو - الأقل طموحاً والأكثر وداً بين الثلاثة - يرتّب حقيبتي، ورأيت في عينيه براءة طفل يثق بطبيبه. مشوا معي إلى المخرج، وعندما

اجتزنا الساحة قال أسكاريس ، وهو يسرد معلومات تاريخية: "يقوم هذا الفندق على أسس بالاتيوم ماغنوم - القصر الكبير - الذي بدأ قسطنطين الأول الكبير بناءه في القرن الرابع. عام 1204 ، نهبه من يدعون الصليبيين ، أو السارقين اللاتينيين أولاً ، ثم هدموه".

تبادلنا تحيات الوداع على أن نلتقي ثانية في اليوم التالي وفي التوقيت نفسه. عرفت أن لا أحد سيطلب مني إبقاء أمر هذا الاجتماع سراً.

á á á

كنت أظن في أثناء طفولتي أن جسدي قد ينشطر إلى قسمين لأن جانبه الأيمن تركي والأيسر أمريكي. ذكّرني المنقّبون عن الآثار بجانب فورسيزنز بذلك الانقسام ، ما جعلني أتساءل إن كنت بيزنطياً من فوق الخصر وعثمانياً من أسفله.

عندما سلكت طريقي عبر السلطان أحمد ؛ القلب الكئيب ل-بيزنطة ، هل كنت أمشي عبر حقل ألغام قاتل آنذاك زرعه أسلافي ؟ صدح الأذان فجأة من مآذن المساجد العثمانية ، وأدركت أنني كنت أدوس الأرض بثبات أكبر بأصابع قدميَّ ، وأرفع كتفيَّ عالياً ، ومشيت عبر سيركجيه في طريقي إلى جسر غلطة.

خطر مقطع شعري من كاراكا أوجلان في ذهني:

في العالم الذي لن يبقى للسلطان سليمان
ستُقتلع هذه الجبال يوماً ما من جذورها
وأرواح تعفّنت ألف سنة
بمشيئة الله ستُبعث يوماً ما.

قبل أن تصبح إسطنبول قسطنطينية ، عُرفت المقاطعة باسم سيكوديس التي تعني باليونانية "بستان التين". كانت آخر ثلاث أشجار تين في غلطة تخص أسرتي ، وتنتصب في الحديقة إلى يمين مبنى شقتنا ، حيث توجد أيضاً بركة مزخرفة تظنُّ جدّتي أنها تبدو مثل قبر ؛ ولهذا السبب لم يكن مسموحاً لنا دخول الحديقة. في أوقات الصيف ، عندما تعبق رائحة التين العطرة في الشارع كله ، ستقول: "الشجرة تبكي لأنها لا تستطيع حمل الثمار". اعتدت أن أغمض عينيَّ وأستنشق ذلك العبير ، وحين كنت لا أزال في المدرسة الثانوية ، كان معنى الغموض بالنسبة لي استنشاق رائحة شجرة التين تلك وتخزينها داخل نفسي.

شعرت بالسعادة حين عرفت أن اسم مقاطعتنا مشتق من أهل غلطة "البربريين" ، وكانت تلك أول مرة أسمع فيها الكلمة الإيقاعية "بربر"، وظننت أن أهل غلطة كانوا بالتأكيد فرساناً أبطالاً تمتد جذورهم إلى بلاد الغال. وفقاً للحلاق أبوستول ، كان المواطنون الأكثر ورعاً بعد المبعوثين هم الحكام البيزنطيين الذين قبلوا النصرانية ديناً رسمياً لهم ، ووحّدوا الكتاب المقدّس. وكلما جلست على كرسيه العتيق ، كان يضغط على إحدى أذني بمقصّه ويقول: "عجباً ، كدت أبترها". لم يستطع ابنه إبعاده عنا إلى تسالونيكا ، على الأقل حتى شُلّت قدماه ولم يعد بمقدوره المشي ، وقد زعم أبوستول أنه عندما سلّم البيزنطيون غلطة إلى أهل جنوة ، هبّت ريح عاصفة على سقوف الحي.

شوارع غلطة مثل أوراق في رزمة متنافرة ، وهدف أي شخص يغوص في تلك المتاهة هو بالتأكيد ألا يتسرّع ليخرج من الطرف الآخر سليماً. كل شارع بيت من قصيدة لن أجرؤ على تذكّرها ، وبرأي تريستان كنت وغلطة الفصل المفقود في رحلات غوليفر. عرفت المباني التذكارية من طريقة تنهّدها ، وقد قبَّلَت الشوارع - الممهدة بحجارة من أسوار المدينة القديمة - قدميَّ مع كل خطوة قطعتها ، وبدأت دائماً رحلتي عبر الوقت بفرك الأسوار المسودّة التي بقيت من بالازو كوميونيل القرن الرابع عشر ، وكنت أراقب جيش النمل وهو ينحدر بنحو شعائري من تحت الواجهة المتصدّعة. يقول الناس إن "أجمل دَرَج في العالم" هو دَرَج كاموندو الذي يتقوّس صعوداً من شارع الصيرفة القديم ؛ جادة المصرف. ثم إن

أسرة كاموندو؛ المتبرعين الأسخياء ل-متحف اللوفر، هم المالكون السابقون أيضاً لمبنانا السكني. وبسبب الطريقة التي تتداخل بها شوارع حيّنا لاقت المدينة صعوبة في تفكيك المباني القديمة المهجورة لكن المهيبة، بالرغم من أن مكانتها تتدهور كلما ازداد بعدها عن البرج، وهي برأيي تمنحك انطباعاً عن رجال أرستقراطيين يرتدون سترات سوداء ونساء أنيقات يرتدين عباءات سهرة حريرية. هل تقترب المباني المتهالكة من بعضها في الليل لتتشاطر متاعبها؟

كانت أصوات الأذان، وأجراس دور العبادة، وصرخات النوارس كلها بطريقة ما السيمفونية التي نستمتع بها وتكسر جدار الصمت. وكلما رأيت تلك المدن المتناسقة في روايات تصويرية، تنتابني رغبة بالخروج إلى أحد شوارع غلطة في وقت متأخر من بعد الظهر. ينعم أهل غلطة بحياة من نمط مختلف، وموقفهم مثير للاهتمام، ويعجبني هذا. إذا أردت أن ترى كم نحن قبيلة صغيرة حقاً، فعندها ينبغي أن تعدّ تلك الشقق القليلة المضاءة، ويمكنك التوثق من وجود مبانٍ أكثر من الأشخاص في غلطة. هناك حقيقة ليلية وهي أن الشوارع التي تتردّد فيها أصوات الأطفال في أثناء النهار تصبح خاوية، حتى من القطط، لكن تلك الأزقّة من الوحدة هي التي تعلّمني الموسيقى.

هل سأفضُّ الصحبة مع الشوارع التي مشيت فيها مستغرقاً بالتأمل؟ كنت أتجاوز المستشفى الذي ولدت فيه حين رأيت دخاناً يرتفع إلى السماء؛ كأنه على جناحين، وأصابني المشهد بقشعريرة لأنني أدركت أنني بعد أوجينيو كنت أخطط لكي أصبح "أمير غلطة" التالي.

كلما صعدت برج غلطة شعرت أنني أؤدّي أذاناً؛ دعوة إلى الصلاة، ط-و-ي-ل-ة، وفي هذه المرة كنت أتجول على شرفته بوصفي "المرشح لمنصب الإمبراطور البيزنطي في المنفى"، لكنني لم أجد وصفاً يعرّف حالي في أيٍّ من لغاتي الخمس. لو كان أوجينيو مكاني لألقى خطبة مسهبة، ورفع قبضته اليمنى: "آه، كنت سابقاً ملكاً لأسلافي، أيتها المدينة الجاحدة". ثبتُّ ناظريَّ على المساجد العثمانية المتوارية خلف ستارة هشّة من الضباب، وقد منحتني جدتي خمسين دولاراً حين تعلّمت عدّها كلها أول مرة من غرفة معيشتنا من

دون تلعثم، وبلغ عمرها ستين عاماً قبل أن تكتشف أن أجدادها الجورجيين قد تخلّوا عن النصرانية. وكانت شاكرة لأنها قد أُحضرت عروساً إلى أسرة مسلمة أصيلة.

كان السر الذي قد كُشف لي خدعة طبعاً، لكنه أعجبني رغم هذا، وتساءلت عن ذلك البند الأخير على قائمة قسطنطين الحادي عشر، وأردت مواجهة نومو قبل الشروع في اختبارهم الغامض. وبخلاف هذا، كلما كنت أجلس إلى رقعة شطرنج كنت أحسُّ بتناقض.

في طريقي إلى المنزل تجاوزت محل الحلاق أبوستول؛ الذي صار متجر فساتين أنيقة آنذاك، وكنت أتوقف دائماً وألمس قبضة الباب المصنوعة من حديد الصّب كلما مررت بجانبه. عندما كان أبوستول يغسل شعري بعد قصّه، كنت أتوقع دائماً منه أن يقول: "أيها الوغد الشاب، لست وسيماً، لكنك محظوظ. وجهك مثل تمثال نصفي قديم لأمير". أعاد لي دائماً نصف أجرة قص الشعر، قائلاً: "اشترِ لنفسك لوح شوكولا". وقبل أن يهاجر إلى تسالونيكا أُقيم له عشاء وداع، وكنت الطالب الوحيد هناك، وجعلته يبكي حين قرأت قصيدة لأوكتاي رفعت.

á á á

استيقظت وقت الصلاة، وأذان الفجر يصدح من مسجد بركة زاد؛ أول مكان عبادة يُبنى بعد الفتح. كنت مشغولاً جداً في البحث عن معلومات بشأن بيزنطة عبر الإنترنت ونسيت تناول الفطور.

كان الفريق كله ينتظرني في ردهة الفندق، والثلاثة جميعاً يرتدون بذلات سوداء أنيقة مع ربطات عنق أرجوانية جعلتني غير مرتاح قليلاً (كان الأرجواني هو اللون الرسمي للقصر الإمبراطوري). هل كانوا يعرفون كيف سأجيب، وهم يسخرون مني في المقام الأول؟ عندما ذهبت إلى غرفة الاجتماعات أسفل الردهة تماماً خطرت في ذهني فكرة عن "شِعر السجن"، ولم أعرف سبباً لهذا لكنني تساءلت عن طعم الحبس في سجن.

طلبوا مني الجلوس على كرسي ضخم بذراعين، وقدّموا لي حزمة أوراق، وشعرت بالسرور لتسلّمي وثائق بالتركية واليونانية واللاتينية تخص انتخابي إمبراطوراً بيزنطياً في المنفى. رأيت في أدنى النص التركي توقيعات تخص أسر بالايولوجي، وكانتاكوزني وكومنيني

(حكَم الكومنيني من 1081 إلى 1181). في أثناء ارتدائي ثيابـي الرسمية من أجل الاحتفال سألت: "لماذا أعضاء نومو ليسوا هنا ليشرّفوا هذه المناسبة التاريخية ؟ أم إنكم أنتم أعضاء نومو المعنيون بهذا ؟". لم يستطع باباس الذي يساعدني بارتداء الثياب ، منع نفسه من الابتسام ، وحدّق أسكاريس إليه وقال: "إذا لم يكونوا يشاهدوننا الآن ، فهم يصغون بالتأكيد يا سيدي العزيز. كل شيء من أجل بيزنطة وضمان سلامتك".

بعد وقت قصير ، وضعت يدي اليمنى على علبة فضية داكنة نُقش عليها شعار النبالة البيزنطي وأدّيت القسم: "أقسم إنني لن أكشف سري لأحد... وإنني سأعمل لمصلحة بيزنطة العليا... أقسم على هذا". وبإضافة التوقيع المبتكر حديثاً لقسطنطين الخامس عشر على المرسوم الموضوع أمامي انتهى الاحتفال ، وجثا أسكاريس وكاليغاس وباباس على ركبهم اليمنى وأصواتهم الواهنة تسرد مقطعاً يبدو مثل ترنيمة.

أُبلغت بواجباتي ومسؤولياتي: بعد شهرين من تعلّم "الحقيقة البيزنطية" ، ستبدأ عملية الاختبار ، ولاجتياز الامتحان ينبغي أن أحلَّ بسرعة لغز المهمة الأخيرة على القائمة في وصية قسطنطين الحادي عشر ، ثم سألتقي نومو لنناقش طريقة تنفيذ المهمة واقعياً. إذا لبّيت هذه التحدّيات بنجاح ، ينبغي أن ألبّي أيضاً معيار "المختار" ، وكان الموعد النهائي مساء 30 أيلول 2009.

في أثناء هذه المدة سأقدّم نفسي على أنني موظف في مؤسسة استثمارات لندنية هي رسيب للتمويل ، وسأكون باحثاً في الاقتصاد ، وسيحوّل كل شهر 30,000 جنيه إلى حسابـي المصرفي (لا بد أن نومو زبون ذو امتياز في مؤسسة الاستثمار عينها). سأتلقى المعلومات في مركز أبحاث التاريخ البيزنطي في المدينة نفسها (كانوا على الأرجح رعاة مجهولين له أيضاً).

كما هي الحال مع كل صاحب جلالة طبعاً ، هناك بعض القيود. لن أطرح أسئلة عن نشاطات أجدادي أو أعمال نومو ، ولن أحاول أبداً التطفّل على السير الذاتية لأفراد الفريق.

á á á

أولاً ، نقلت النبأ إلى أسرتي بأنني ذاهب إلى لندن لأعمل خبيراً اقتصادياً في مؤسسة

سمسرة، وسأحصل على إجازة من دون راتب من وظائفي التدريسية. تساءلت أمي عن طريقة اكتشافي هذا العمل الجديد (بمساعدة صديق من كلية الاقتصاد في لندن)، وكنت أعرف أن جدتي ستقول: "الحمد لله!" في اللحظة التي ستسمع فيها أن راتبي سيكون أربعة أضعاف راتب رئيس جمهوريتنا.

عندما كنت أقدّم طلب الإجازة ومضت فكرة في ذهني: هل نسي كاليغاس أن يذكر شغفي بالشطرنج حين كان يسرد الإيجابيات في مسيرتي المهنية؟ أم إن تقويمهم لمهارتي منخفض فعلاً؟

بوصفها حاضرة ، لم تكن لندن قديمة مثل إسطنبول أو حديثة مثل نيويورك ، وعندما ذهبت إلى هناك لدراسة الدكتوراه ، تأخرت قليلاً في تقدير هذا. ظننت بيكاديلي اسماً إيقاعياً لحي ، وذكّرتني الأكاديمية الملكية للفنون بخان سلجوق ، وكنت واثقاً أن نزلاء فندق مريديان بيكاديلي قد جاؤوا جميعاً إلى البلدة لإنجاز عمل مهم جداً.

خصّني موظف الاستقبال في المريديان ، بعد سماعه أنني سأكون نزيلهم لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً ، بالجناح رقم 905 في الطابق الأعلى. وقد أعجبتني الغرفة الفسيحة كفاية. خارج النوافذ الشبيهة بالأقفاص ، تلألأت بانوراما المدينة التاريخية مثل واحة ، ونقلت تركيزي إلى برج ساعة بغ بن الذي بدا مرهقاً مثل أولئك المشاهير الذين تعبوا من التقاط صور لهم ، وذكّرني ببرج غلطة (في خيالات طفولتي ، كانت كل أبراج العالم أبناء عمومة). أخفضت ناظري إلى الطرف الآخر من الشارع ، حيث وقع بصري على واترستون ، وهناك في أضخم مكتبة في أوروبا ، بدا ممكناً تماماً أن يكون الكتاب الأخير لشاعر مغمور ينتظرني لأعثر عليه ، وكان ذلك احتمالاً مغرياً.

كانت دار شاثام الجديدة المبنى الأكثر كآبة في الشارع ، وتقع خلف الأكاديمية الملكية ؛ أرض المعارض. حتى لا أختصر طريقي ، كنت أمر بانتظام عبر سوق بيرلينغتون ، حيث يبيع كل متجر نوعاً مختلفاً من وسائل الترف ، ويقف حراس أمن يبدون مثل مديري حلبة في سيرك ، وقد بدا ذلك مضحكاً ؛ أعني الطريقة التي يشبكون بها أيديهم بغطرسة خلف ظهورهم في أثناء إصدارهم تحذيرات للمارة. راقبت دائماً ولبعض الوقت الرجل الذي يفتقر إلى أي موهبة ويرتدي بزّة وينتعل حذاءً لامعاً ، وبدا واضحاً لي أنه يهزُّ رأسه من اليمين إلى اليسار ليحافظ على تسريحة شعره. كان لتلك المتاجر التي تثير في النفس رهاب الاحتجاز ، وتديرها على الأرجح الأسر نفسها منذ عام 1819 مستويين ، وقد ظننت في وقت ما أنه عندما تُغلق السوق في المساء يصعد أصحاب المحال إلى الأعلى ليعيشوا هناك.

بدت دار شاثام من بعيد مثل قطعة فحم مستطيلة ، وهي تزداد قبحاً حين تقترب منها. كانت مهمة موظف الاستقبال عند الباب الرئيس جعل بداية يومك بائسة ، ولم أكن أرغب

بمعرفة هوية النزلاء في الطوابق الخمسة الأخرى ، لكن الطابق الأعلى برمّته يحتضن مركز أبحاث التاريخ البيزنطي. ووفقاً للإنترنت ، تضم مكتبة المركز 40,000 كتاب بسبع عشرة لغة ، في حين تضم باقي المساحة البالغة عشرين ألف قدم مربعة غرف حلقات دراسية ، وقاعات عرض ، وأرشيفاً. كان الأثاث في قسم المكتبة - باستثناء الرفوف - حديثاً ، وأحببت التناسق بين السجاد الأرجواني والأرضية الغرانيتية الرمادية.

أنهيت جولتي الاستكشافية القصيرة وذهبت إلى مكتب المعلومات ، حيث استقبلتني امرأة بيضاء الشعر تتصرف مثل دمية ، وأجلستني على كرسي قبالة طاولتها. التزَمت الصمت وقتاً طويلاً كفاية لأقرأ اسمها "السيدة جوسلين ل. هارتلي-سينغروس" على البطاقة المعلّقة بسلسلة حول عنقها ، وقد استوعبت الاسم الطويل وهمست باسمي فقط لها.

"أنا أكاديمي من إسطنبول ، وتخصصي هو الاقتصاد القياسي ، وأرغب بمعرفة المزيد عن التاريخ البيزنطي. إذا تمكّنت من مساعدتي فسأكون شاكراً جداً يا سيدة هارتلي-سينغروس".

قالت: "كان زوجي قبرصياً ، وأنت لفظت لقبه بنحو ممتاز مثل قبرصي. أمر رائع أخيراً أن أرى تركياً هنا! هل يمكنني أن أسأل عن الوقت الذي خصصته لتحقيق هدفك ؟".

رداً على السخرية في نبرتها ، عبست وقلت: "في الظروف المثالية ، ربما شهر".

لا أعرف نوع النظرة التي رمقتها بها ، لكن السيدة هارتلي-سينغروس مالت إلى الأمام فوق طاولتها ، قالت: "أشعر بالسعادة لرؤية عالم شاب مثلك مهتم ببيزنطة ، وأنصح ببرنامج من مستويين. أولاً ، تاريخ زمني ، ثم الحضارة البيزنطية والكتب التي تبرز مأسستها. إذا أردت ، يمكنني تحضير قائمة أساسية لك".

في شيء مثل الفزع بدأت بجمع قائمة قراءة ، في حين تفحّصت كرّاس المركز الذي أسّسه كما يُزعم مالك سفينة من أصل يوناني ، وافتُتح عام 1853 ، على الأرجح بأموال أسلافي. بفضل الإرث الخيري "للمؤسس" ، لم يكن المركز بحاجة إلى مد اليد إلى العالم الخارجي لتغطية النفقات ، ولم يقبل أيضاً هبات أو أعضاء ؛ وهي حقيقة كانت كافية لتوكيد شكوكي.

للمساعدة في تعليمي عن بيزنطة من ولادتها إلى موتها (330-1453)، اقتُرحت علي أسماء ثلاثة مؤلفين ؛ اثنان منهم أكاديميان. كان ينبغي أن أختار واحداً منهم، لكنني فضّلت قراءة الثلاثة كلهم ؛ ما يعني تغطية 2222 صفحة في عشرة أيام. في الواقع، انتابني فضول بشأن كون المرء مشاهداً الدراما الملحمية نفسها كما يقدّمها ثلاثة مخرجين مختلفين.

انهمكت في قراءة الكتب وملحقاتها بصبر كبير، وشعرت أنني أبحث عن شيفرة سرية سأتعرّفها في اللحظة التي أراها فيها. راودتني شكوك بنفسي فقط حين شعرت بالهدوء على نحو استثنائي، رغم الوقت الطويل الذي قضيته في الانتقال بين القرنين الرابع والرابع عشر.

á á á

بيزنطة ؛ من القوقاز إلى إسبانيا، ومن جنوبي أوروبا إلى شمالي أفريقيا. ستصبح بعد قرنين فقط من تأسيسها أعظم الإمبراطوريات وأكثرها تحضّراً على الأرض. وبسبب تناقضات داخلية وتطوّرات خارجية، اضمحلّت مثل مادة في ساعة رملية. عندما استولى محمد الفاتح على القسطنطينية عام 1453، كانت الإمبراطورية على فراش موتها، وقد جاءت الضربة القاضية حقاً من الجيش الذي خرج في الحملة الصليبية الرابعة بأمر من البابا. عام 1204 نهبت هذه المجموعة المجنونة من المجرمين المدينة في أثناء ما يدعى الانعطافة وأسّست المملكة اللاتينية، وعندما طُردوا منها سنة 1261 بقيت المدينة الفقيرة معدمة ومدمّرة، ولم تستعد قوتها أبداً بعد ذلك.

كان السبب الداخلي الرئيس لهذه النهاية المحزنة مرونة قوانين نقل السلطة ؛ لأن الإمبراطور قد اختار خليفته، لكن الجيش والكنيسة والقادة المدنيين يمكن أن يتدخّلوا. بدا هدف العملية السماح "لأفضل رجل" بالظهور. وإذا استولى شخص غير متوقع على العرش عبر التآمر والخيانة، يعد ذلك أمراً جيداً أيضاً ؛ لأنها إرادة الله. جاء باسيل الأول (867-886) ؛ وهو قروي من أدريانوبل، إلى العرش بهذه الطريقة ليصبح في نهاية المطاف "باسيل العظيم". في الواقع، لم يكن من الممكن تفادي أن تنتج عن هذا النظام فوضى إدارية دائمة. خضعت بيزنطة التي عاشت أحد عشر قرناً لحكم ثمانية وثمانين إمبراطوراً ؛

تعرّض خمسة وستون منهم لانقلابات من داخل القصر، ولقي تسعة وعشرون حتفهم، في حين لجأ ثلاثة عشر إلى الأديرة.

إذا كنت أرغب بتلخيص تاريخ في ثلاث كلمات، فستكون صيغتي: التاريخ = طموح + فرصة - أخطاء بسيطة.

بحلول نهاية يومي الثالث أصبحت ومختصة المعلومات في المكتبة مقرّبَين من بعضنا، ونقضي استراحة القهوة معاً، ونطرح على بعضنا أسئلة بيزنطية.

"أي إمبراطور تُوّج بعد تتويج ابنه؟".

"زينو (474-491)".

"أي إمبراطور لم تأسف على دق عنقه؟".

"فوكاس (602-610). كان الإمبراطور البيزنطي الأكثر قبحاً، والأقل موهبة، والأكثر ميلاً إلى العنف. نظّم تمرّداً، وجعل كل أبناء الإمبراطور موريس يُقتلون أمام عينيه، بمن فيهم رضيع في المهد، قبل أن يأمر بتمزيق الإمبراطور نفسه إلى أشلاء. كان قبيحاً جداً ما جعله يطلق لحيته لإخفاء وجهه".

"كيف عبر هرقل (610-641) من أوروبا إلى آسيا في أثناء ذهابه للحرب مع الفارسيين؟".

"أخافه منظر الماء، لذا وضعوا صفاً من المراكب واحداً بعد الآخر عبر البوسفور ليمشي عليها. صُنعت جدران من نباتات في قدور فخارية على جانبي الممشى لإخفاء الماء، وانتهت الرحلة بالنصر".

"من كان أشهر توأم تنجيم في بيزنطة؟".

"الإمبراطورة أيرين (797-802). حتى تتمكن من السيطرة على بيزنطة، أمرت بقلع عيني ابنها قسطنطين السادس، وسجنته في الغرفة التي ولد فيها، وتوّجت نفسها إمبراطورة. عرض شارلمان، الأب المؤسس لأوروبا، الزواج بها من أجل إنشاء أعظم مملكة في كل الأوقات، وفي أثناء وضع الخطط لنقل العاصمة من آخن إلى القسطنطينية خُلعت أيرين عن العرش".

"من هو الإمبراطور الذي كانت أمه تركية من البحر الأسود؟".

"ليو الرابع (778-780)".

"ماذا كانت الرسالة الأكثر فاعلية التي أرسلتها بيزنطة إلى جيرانها العدائيين؟".

"أرسلها باسيل الثاني (976-1025) الذي هزم الجيش البلغاري عام 1014 وأعاد أسراه إلى بلدهم. لكن، قبل أن يفعل هذا فقأ عيونهم جميعاً باستثناء واحد من كل مئة؛ حتى يستطيع أولئك الذين بقيت لديهم عين واحدة قيادة الآخرين. توفي الملك البلغاري؛ صمويل، حين رأى جنوده البالغ عددهم 14,000 جندي بهذه الحال مفطور الفؤاد بعد يومين".

كان ستيفن رونسيمان وسيريل مانغو مؤلفي اثنين من الكتب التي اخترتها لاكتساب وجهة نظر ثقافية واجتماعية-اقتصادية عن بيزنطة، والشيء المشترك بين هذين العالمين أن كليهما عاشا في إسطنبول وقتاً طويلاً. عندما قلّبت صفحات كتابيهما أصبحت أكثر توافقاً مع أسكاريس بأن بيزنطة قد نقلت الحضارة إلى معاصريها والحداثة إلى كل الإنسانية، ومع كل صفحة بدا أنني أرتقي خطوة أخرى نحو الغيوم. في تلك الأثناء واصلت التضرّع كيلا أكون ضحية دعابة سيئة كبيرة.

كانت بيزنطة أمة مختارة مبجّلة، ووريثة كل من الحضارتين الرومانية واليونانية، ولم يكن البيزنطيون مخطئين تماماً بالسخرية من الكاثوليك؛ لأنهم هم الذين أسّسوا أول دولة نصرانية وبنوا الكنيسة الأكثر روعة؛ آيا صوفيا. بالنسبة إلى بيزنطي، أن تكون غير متعلّم جريمة تماثل تقريباً كونك سيئ الطالع، وقد عاشوا أحد عشر قرناً بسبب نظامهم التشريعي الذي أُقيم على قوانين مدوّنة، لكنهم عاشوا في فوضى بسبب نظامهم الإداري الذي افتقر إلى قوانين مكتوبة.

ثابرت على قراءة كتب تحتوي صور أيقونات، وفسيفساء، ولوحات جدارية. ازدهت ثياب المواطنين البيزنطيين، وبزّات الجنود المشاة، وحتى سروج خيولهم الحربية وركابها بتصميمات رائعة.

رأيته في قسم كتب العمارة؛ كأنه كان ينتظرني فحسب على قاعدته الخاصة، وكُتب

على الغلاف الجلدي الأرجواني للكتاب الضخم بحروف مطلية بالذهب نزهة في بيزنطة. كان رقم هذا المثال عن فن الكتب 003 في نسخة من 999، وسيتبين لي لاحقاً أنه العمل الذي سيمثّل نقطة التحوّل في حياتي. لكن أول مهمة لي في الصباح كانت استنشاق رائحة الصفحة المطبوعة، ثم وضع يديَّ حول الكتاب بعناق كبير، وبغض النظر عن تقليبي الصفحات البالغ عددها 333 صفحة ببطء قدر استطاعتي، بقيت غير راضٍ مثل طفل استُدعي باكراً من الملعب. كان الكتاب مجموعة وثائق لكل الصروح البيزنطية الرائعة القائمة والمهدّمة.

كانت هناك 111 تحفة معمارية؛ كلها قائمة وتحتل مساحات واسعة ومعزّزة جمالياً بعناصر بسيطة ومتناسقة: قصور، وكنائس، وأسوار المدينة، وميادين سباق الخيول، وقنوات، وأقواس نصر، وأبراج، وثكنات، ومدارس، ومستشفيات، ومكتبات، وخزّانات، وبرك، ومتنزهات، وجسور، وإستادات، وفنادق، وحمّامات، ومباني بلدية، ونوافير، وإسطبلات... لكل واحدة منها واجهة فريدة وأصيلة، وأحزنني التفكير في الحاضرة الرمزية التي بدا من الممكن أن تصبح إسطنبول عليها لو أن تلك المباني قد بقيت قائمة. ورأيت تحت صورة كل مبنى، المصوّر من زوايا مختلفة، وصفاً له بأربع لغات. بدا طبيعياً أن يحظى القصر الكبير بحصة الأسد من الاهتمام، وكان مدينة ضخمة بحد ذاته، شرع في تشييده أب بيزنطة قسطنطين نفسه في القرن الرابع، وامتد ذلك ستة قرون أخرى بإضافة جميلة إثر أخرى. بدأ مجمّع القصر حيث يقوم مسجد السلطان أحمد الآن، وامتد من دون توقف إلى شاطئ مرمرة، وتحوّلت هذه التحفة الفنية طوال قرون إلى أنقاض من قبل الصليبيين الذين زاروا القسطنطينية؛ ظاهرياً للاستراحة في رحلتهم في طريقهم إلى القدس. اعتدت أن أستكشف القصر الكبير الذي يبدو من قصص ألف ليلة وليلة حجراً بعد آخر، وأشتم أولئك الرعاع الجاهلين الذين صنّفهم البيزنطيون على أنهم "لاتينيون"، إلى جانب البابا الذي تلاعب بهم ودوق البندقية الذي تعاون معه. تذكرت كيف شمل الفاتح بحمايته كل الصروح البيزنطية بدءاً من كنيسة آيا صوفيا التي حوّلها إلى مسجد، وتساءلت: هل أظهرت أوروبا للغزاة الذين نهبوا القسطنطينية - من دون استثناء مكتبتها التي لا تُضاهى -

عُشر رد فعلها على تدمير العرب لمكتبة الإسكندرية ؟

لم يكن لدى الإمبراطور قسطنطين الأول أي أمل بإفساد روما بالشِّرك ، وأسّس بعد اعتناقه النصرانية عاصمة جديدة لنفسه. كان هدفه في 330 ، حين وضع أساسات المدينة الجديدة - دُعيت أولاً روما الشرقية ، ثم القسطنطينية تيمناً به - أن يجعلها أكثر روعة من روما الأصلية. وضع معظم الأباطرة الذين جاؤوا من بعده تحقيق هدفه نصب أعينهم ، وفي النهاية استمرت مدينة قسطنطين تسعة قرون على أنها عاصمة الأرض.

فتنتني خريطة نافرة من أربع صفحات في وسط نزهة في بيزنطة ، ورأيت روعة المنمنمات تنعكس في رسوم 111 موقعاً معمارياً. من أجل تقليب الصفحات ، كان هناك زوج من القفازات ، وعدسة مكبّرة لفحص النقوش ، فأمسكت العدسة في يد ، وتمتمت دعاءً قصيراً لبداية ميمونة ، وبدأت رحلة بين القرنين الرابع والرابع عشر. سمعت شتائم الصيادين وهم يخرجون إلى عرض البحر من ميناء إليوثريوس ، وهمهمة الخفير الليلي وهو يقوم بدورية على درب نايكي ، والتمتمة المتعبة للماء المتدفق عبر قناطر فالنس ، وضوضاء الحشد المستعد للصراخ في المضمار ، وصلوات التهدّج التي ترتفع من كنيسة بانتوكراتور ، وقهقهة شابات يتنزهن في جادة ميسي ، ورائحة التوابل التي تنشرها سفينة ترسو في ميناء البوسفور ، والأصوات العالية المنبثقة من خان عند بوابة بلاتي ، والنسيم الذي يهب من القرن الذهبي ويداعب بلطف أسوار فينير البحرية ، وهمسة الطراز المعماري في حوض أجيوس ، والشكوى المليئة بالأسى لإمبراطور ذهب إلى سريره مكتئباً ؛ سمعت ذلك كله.

كانت المقاطعات السكنية في المدينة ، التي ضمّت 500,000 نسمة في القرن الخامس ، ممثّلة بمربعات رمادية الحواف. ويمتلك الأشخاص الأكثر ثراء ساحات ، لكن كل المنازل الأخرى تتمتّع على الأقل بنوافذ أو شرفات بارزة. قرأت أن تفاصيل التخطيط الحضري ، مثل عرض الشوارع وارتفاع المباني ، كانت مفصّلة بقوانين مكتوبة.

لم أضع جانباً العدسة المكبّرة ذات المقبض الأرجواني حتى لم يعد هناك حوض أو شارع واحد غير مستكشف. نما عنصر الغموض في رحلاتي باستمرار ، وكانت الميزة المشتركة للأباطرة الذين التقيتهم في القصور ، حين لم يكن هناك يأس ، هي انعدام الثقة

بهم.

سينتهي تعليمي في المركز حين أقرأ كتابين آخرين وأشاهد عملاً وثائقياً من ستة أجزاء عن سلالة بالايولوجي وقسطنطين الحادي عشر. انتهت مرحلة اختباري الأولى التي بدأت تثقيفية بخدعة، وإذا كان تنظيم نومو يراقبني فلا بد أن أعضاءه قد أُعجبوا بعملي الافتتاحي.

á á á

كان الشفق الإمبراطوري عنواناً مميزاً لكتاب عن حقبة السلالة الأخيرة، وقد جذبني إليه. بدا الكتاب من كونستانس هيد بالياً قليلاً حين جذبته من زاويته على الرف. وكان السبب الثاني لاختياري إياه هو أنه يتألف من 169 صفحة، ولم أكن أرغب بقراءة مأساة طويلة ومملة عن أسلافي. أولاً، تفحّصت ملياً الصور بالأبيض والأسود؛ التي يمثّل معظمها نقوشاً من القصر تضمها آنذاك مكتبات عامة في أوروبا، ورأيت أثر تلميح باهت في تعبير مايكل بالايولوجي؛ مؤسس السلالة. في نقش آخر، بدا أن الأباطرة التسعة كلهم قد تلقوا أمراً بأن يبتسموا بخوف، أم هل كانوا يبعثون رسالة اعتذار؟ كانوا جميعاً يتمتعون بوجوه نحيلة، وأنوف طويلة، ولحى كثّة، ولم أجد صعوبة كبيرة في تخيّل أجدادي على فرعٍ فوقهم تماماً؛ في شجرة أسرة تخطيطية.

كان آل بالايولوجي آخر سلالة في بيزنطة، وأطولها استمراراً (1261-1453)، وتعاقب تنصيب الأباطرة من السلالة الحادية عشرة من الأب إلى الابن، ومن الشقيق الأكبر إلى الأصغر، أو من الجد إلى الحفيد، وشارك جون الخامس بالايولوجي العرش مع حميه جون السادس كانتاكوزني لبعض الوقت. أنهت سلالة بالايولوجي حقبة السلب والنهب للإمبراطورية اللاتينية (1204-1261)، وبذلت بموارد محدودة جهوداً كبيرة لإعادة بناء العاصمة المدمّرة، وحاولت العيش بسلام مع الملوك الأوروبيين، والفاتيكان، والسلاجقة، والعثمانيين. إلى جانب القسطنطينية، تكوّن باقي الإمبراطورية من خمس جزر في إيجة، إضافة إلى ميسترا ومحيطها في جنوبي بيلوبونيسيس. من ناحية أخرى، بدت حروب العرش التي اشتركت فيها النساء أيضاً، مثل قتال على مقعد القبطان في تيتانيك صدئة ستغرق قريباً. ذكر التاريخ المدوّن مايكل لأول مرة في نيقية؛ إزنيق الآن،

في قصر جون الثالث فتاتزيس (1222-1254)؛ الإمبراطور في المنفى، وعدَّ الإمبراطور نبيل بالايولوجي ابناً بالتبني. كان مايكل فاتناً، وطموحاً، وجندياً جيداً. وفي أثناء عمله حاكماً لتراقيا، أصبح موضع شبهة لخطاباته المضادة للإمبراطورية، لكنه أنقذ نفسه من عقوبة قاسية بفصاحته، واستطاع الزواج من ثيودورا؛ ابنة ابن أخ الإمبراطور. في السنة التالية؛ توفي الإمبراطور بداء الربو، وخَلفه ابنه ثيودور الثاني لاسكاريس (1254-1258). نظراً إلى أن مايكل فهم جيداً ما كان الإمبراطور الجديد يفكّر فيه بشأنه، توارى عن الأنظار مع السلاجقة، وقاتل إلى جانبهم ضد المغول العدائيين. أقام ثيودور الثاني علاقات جيدة مع السلاجقة، واستعاد مايكل، ونصّبه في موقعه السابق بعد أن أقسم هذا الأخير على الإخلاص له، لكن مايكل انتهز أول فرصة سنحت له ليُلقى في السجن مجدداً، ليتخلّص منه بفصاحته مرة أخرى أيضاً. حكم الإمبراطور أربعة أعوام قبل أن يمرض ويتوفى، ولم يكن عمر الابن الذي خَلفه؛ جون الرابع لاساكاريس، إلا سبعة أعوام فقط. تآمر مايكل على قتل الوصي على الإمبراطور الجديد، وأصبح الإمبراطور-الشريك، تاركاً شريكه اليافع في الخلفية.

في شتاء 1261، استُخدمت أسهل طريقة تسبّب العمى على الإمبراطور سيئ الطالع البالغ من العمر إحدى عشرة سنة؛ فقد عُرّضت عيناه لشعاع قوي من الضوء حتى لم يعد بمقدوره الرؤية. استهجن البطريرك أرسنيوس فعل مايكل القاسي واعتبره غير لائق دينياً، وبالمقابل انتقد مايكل أرسنيوس، وعيّن بطريركاً جديداً سيوافق على تنصيبه إمبراطوراً. وهناك تقارير متناقضة بشأن الطريقة التي انتهت بها قصة جون الرابع؛ فقد قيل إنه حُبس في قلعة على البحر الأسود أو ساحل مرمرة حتى وفاته، أو سُجن في دير، أو استعاد بصره وغادر إلى صقلية.

في أثناء صيف 1261، عندما كان مايكل الثامن بالايولوجي يدخل القسطنطينية انسحب الجيش اللاتيني بهدوء من دون قتال، وكلّف الإمبراطور جيشه بإعادة بناء "مدينة المدن" التي تحولت إلى أنقاض، وفرض ضرائب خاصة من أجل القيام بهذا العمل. بعد تحقيق السلم الأهلي، تآمر مع جنوة ضد البندقية، ومع المغول ضد السلاجقة، وآنذاك

حدث توطين أهل جنوة في غلطة. كان الملك الصقلي تشارلز صهر الملك اللاتيني بالدوين الثاني - الذي طرده مايكل من القسطنطينية - قد خطط لهجوم انتقامي ضد مايكل في ذهنه ، وحظي بموافقة البابا عليه. ذهب مايكل الثامن إلى البابا طالباً العون في مفاوضات مع تشارلز ، لكن الرد الذي حصل عليه كان أنه إذا لم تنضم الكنيسة الأرثوذكسية إلى الكاثوليكة وتُحلَّ "المعضلة الدينية" ، فبإمكان بيزنطة أن تذهب إلى الجحيم.

وعد الإمبراطور بتحقيق الوحدة المرغوبة ، لكنه واجه بعد عودته إلى الديار مقاومة شرسة من الكنيسة والجيش والشعب. لحسن الحظ ، بفضل بعض التطوّرات الميمونة ، لم تستطع أوروبا شن هجومها المخطط له. لكن ، عندما توفي الإمبراطور بسبب زكام أُصيب به حين ذهب إلى تراقيا لقمع تمرد ، تلقى معاملة خائن ، ولعنت أرملته - بموافقة الكنيسة - مايكل الثامن بالايولوجي الذي عمل جاهداً لإنقاذ مستقبل بيزنطة.

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً ، فقدت بيزنطة معظم جاذبيتها لملوك أوروبا الطموحين ، ومعظم قوتها أيضاً ؛ ما حرّر أباطرتها من اقتراف أخطاء جسيمة. ساعدت حروب على العرش ضمن الأسرة نفسها في تسريع الرمال الزمنية ؛ رغم أنها تباطأت أحياناً حين استطاع إمبراطور عاقل الإمساك بالعرش. وإلى وقت تتويج مانويل الثاني بالايولوجي ، كانت بيزنطة تُعامل مثل تاجر مفلس. وعندما حان دوره ليصبح إمبراطوراً ، لم يكن مانويل الثاني - وهو فيلسوف ، ودبلوماسي ، ومولع بالكتب ، ومحب للفن - قد تجاوز الأربعين بعد (أثارت انتباهي عادته في كتابة مذكّراته) ، وتميّز بالاحترام ، وأقام علاقات جيدة عموماً مع كل من القوى الأوروبية والعثمانيين. وعندما عانى من جلطة بعمر الرابعة والسبعين ، حاول بمساعدة الأخ ماثياس أن يصبح قساً لكنه توفي بعد أسبوعين. كان لديه ستة أبناء من الأميرة الصربية هيلينا ، وخَلَفه البكر ؛ جون الثامن بالايولوجي (1425-1448).

كان جون الثامن أرستقراطياً ، وإنساناً اجتماعياً ، ومحباً للموسيقى ، وغامضاً بطريقة ما ، لكنه في الوقت نفسه جنديّ وصيّاد ماهر أيضاً ، وقلبه إلى جانب كنيسة أرثوذكسية وكاثوليكية موحدة. تزوج ثلاث مرات لكنه لم يُرزق بولد أبداً. وبسبب ميوله الكاثوليكية لم تُنظّم له جنازة إمبراطورية لائقة. من بين إخوته الثلاثة ، لم يثق إلا بالأكبر بينهم ؛

قسطنطين ، وأورثه العرش في وصيته. ورغم هذا ، حاول الأخ الأقل موهبة ؛ ديميتريوس ، انتزاع العرش منه ، لكن أمهما الحذرة ؛ هيلين دراغاسيس ، تدخّلت لتمنع ذلك.

كانت أم الأب المؤسس لبيزنطة ؛ قسطنطين العظيم ، تدعى هيلين ، وسرت كهانة وهي أنه عندما يصبح قسطنطين ثانٍ تسمّى والدته هيلين إمبراطوراً ، تكون نهاية الإمبراطورية وشيكة. طبعاً ، عندما أصبح قسطنطين الحادي عشر بالايولوجي ابن هيلين دراغاسيس (1449-1453) إمبراطوراً بعمر الخامسة والأربعين ولم يغيّر اسمه ، حوّل كل المؤرخين الكهانة بسعادة إلى ملحوظة هامشية.

á á á

قرأت الكتاب بحرص ، وسجّلت مثل طالب مجتهد ملحوظات كثيرة ، وبدا الأمر وكأنني أكتب بصبر تعويذة لنفسي بتحويل السلوك العقيم لأسلافي إلى جمل جافة. توقفت عند الصفحة 143 ودوّنت سيرة موجزة ، على أمل الانتهاء من قصة قسطنطين الحادي عشر في ثلاثة فصول قصيرة ، وخطّطت لإنهاء الإمبراطور الخالد لدونالد م. نيكول في جلستين. فكّرت في تصفّح رف "المصادر التركية" ، وهذا ما فعلته. وبدا كل من الكتب البالغ عددها ، ومعظمها من مطابع جامعية ، قد بلي ؛ على الأرجح بسبب أغلفتها الكرتونية. وامتدت يدي إلى كتاب سمافي آيس العمارة أواخر بيزنطة ، عن صروح عهد بالايولوجي.

قرأت في القسم المكتوب بالعثمانية عن ترميم كنيسة خورا ملحوظة بالإنكليزية ، بحبر أرجواني: "هذه اللوحات الجدارية هي التي تجعل خورا أكثر أهمية حتى من آيا صوفيا!". شعرت بالدهشة ، فقد بدت هذه الكتابة القوطية الأنيقة مألوفة لي ؛ ألم أرَ رسالة كتبت بهذا القلم في إسطنبول ؟ صوّرت الصفحة لأتمعّن فيها لاحقاً ، وإذا كان حدسي صحيحاً ، فسأتابع الأمر في الولايات المتحدة ، وسأفعل هذا من دون إبلاغ نومو ، فربما تكون مهمتي قد سلكت آنذاك منعطفاً أكثر حساسية. ستتطلّب زيارة أمريكا عذراً مقبولاً ، فلجأت إلى الإنترنت ، وبين المراكز البيزنطية هناك ، برز دومبارتون أوكس الواقع في واشنطن العاصمة ، ويضم مكتبة أبحاث ومتحفاً صغيراً.

قالت جوسلين ، بسخرية في نبرتها: "إنه الأول في مجاله".

كان الإمبراطور الخالد متوافراً في مكتبات أكاديمية ، وشعرت بقليل من الدهشة حين ضبطت نفسي معجباً بصورة تمثال قسطنطين الحادي عشر على غلاف النسخة التي اشتريتها من بلاكويل. قرّرت انتظار عودتي إلى إسطنبول لأقرأها ، وأن أتوجه إلى المنزل بعد يومين إضافيين من مشاهدة الأعمال الوثائقية في المركز. أبلغت أسكاريس برغبتي بإكمال تعليمي في دومبارتون أوكس بعد زيارة الصروح البيزنطية في إسطنبول طبعاً ، فأومأ موافقاً باحترام سُررت برؤيته ، بعد أن رحّب أولاً بالفكرة بعينين متسعتين.

á á á

تُغلق المكتبة عند الساعة 5:30 ، وعادة أُنهي مغامراتي في العصر القديم برأس يضجُّ ألماً ، وأشعر بالسعادة حين أستعيد توازني بالانسجام مع الإيقاع الفاتن للندن.

مشيت في كل مساء تقريباً إلى هيف (مطعم) في شارع بنتينك لتناول العشاء ، واكتشفت هذا المطعم النباتي في طريقي إلى مكتبة دونت التي يقع قبالتها عند زاوية تقاطع ثلاث طرق بناءٌ يشبه برج غلطة. إذا لم يكن لدي برنامج خاص للأمسية ، كنت أتوقف بعد العشاء عند واترهاوس ، قبالة فندقي. والأكثر أهمية من مليوني كتاب منتشرة في أرجاء طوابقه الخمسة أنه يبقى مفتوحاً حتى العاشرة ، وهناك اكتشفت الشاعرة باسكال بيتيت وقرأت مسرحية أسخليوس. حاولت أن أخمّن أياً من الناس الموجودين حولي من عملاء نومو ، لكن لم أرغب بأن تتحوّل هذه اللعبة إلى عادة. وإذا صدّقت أنني ملاحق ، فسأفضّل التفكير في أن ذلك لسلامتي الشخصية وليس خوفاً من خيانتي للمهمة. لم يكن ينبغي لي على الأرجح التوقف عند ذلك المقهى في غولدرز غرين الذي يرتاده عادة محبو الشطرنج ، وقرّرت إخفاء ذاتي الأكثر عمقاً عن نومو ، والسماح بإظهار عاداتي ورغباتي المعتادة (توفي الإمبراطور باسيليسكوس جوعاً في السجن عام 477 ، ودُفن الإمبراطور زينو حياً عام 491 ...).

تزامنت رحلتي لرؤية تاجر العاديات والكتب النادرة الذي أتعامل معه ، والنظر إلى الساعات على الواجهات ، ومشاهدة السوق مع ساعة الازدحام. وبدأت التفكير أن آل بريت حبسوا أنفسهم جميعاً في منازلهم بسبب وجود أشخاص من سبعين أمة مختلفة يقتلون

لغتهم. ذهبت في بعض الأمسيات على متن حافلات لمشاهدة نوافذ متاجر مملوءة علامات تجارية عالمية ، وألقيت التحية على دمى العرض المرهقة. وعند الشفق ، تبعت الأثر الذي ترسمه المباني الحجرية الضخمة ، ودخلت مشارب تحمل أسماء تراجيدية كوميدية ، وشربت شاي البابونج لتسلية الثمالى المملين. في غرفتي ، لم تكن قارورة الشراب بعيدة إطلاقاً عن متناول يدي حين شاهدت أقراصاً مدمجة لأفلام الأخوين كوين واحداً بعد آخر (دُقّت عنق الإمبراطور موريس عام 602 ، ومُزّق الإمبراطور فوكاس إلى أشلاء عام 610 ، وتوفي الإمبراطور هرقل عام 641 تحت وطأة التعذيب...).

في أول عطلة نهاية أسبوع في لندن ، طلبت من أسكاريس إيجاد غانيتين لي ، وشعر كلانا بالإحراج حين حدّدت: "ينبغي ألا تكونا نحيلتين جداً أو تحبّا الشجار". في تلك الليلة ، صعدت م. من براغ وأو. من برنو معي إلى غرفتي ، وكانت كل منهما حيوية وأطول مني. ولأثير إعجابهما ، سردت مقطعاً شعرياً لمواطنهما الشاعر ياروسلاف سيفرت - جائزة نوبل ، 1984 - وفزعت كلتاهما مثل فتاتين صغيرتين عثرتا على رسم غير محتشم. (سُمّم الإمبراطور قسطنطين الثالث عام 641 ، وضُرب كونستانس الثاني حتى الموت عام 668 ، وقُطع رأسا الإمبراطورين لونتيوس وتيبريوس الثاني عام 705...).

ذهبت لمشاهدة الأسود المحتجزة في حديقة حيوانات لندن ، وأضحت آب.ي التي كانت شبلاً لعوباً في آخر مرة رأيتها فيها ، أميرة القفص آنذاك. مستلقية على المنصة الخشبية ، بدت على وشك أن تغفو ، في حين أن رفيقها لوسيفر يغط في نوم عميق.

صرخت: "آب.ي ، مرحباً يا فتاة ، آب.ي".-

رفعت رأسها فجأة ، والتقى بصرانا ، وبدأت تحرّك رأسها صعوداً وهبوطاً ، ثم نهضت ببطء على قائمتيها الأماميتين ؛ وكأنها تتوضّع لنحت تمثال لها. وبحركة من رأسها أشارت إلى لوسيفر النائم ؛ كما لو أنها تقترح: "لا يمكنني النزول إليك الآن بسبب هذا الفتى".

ذهبت إلى الحوض المائي في لندن ، وهناك شعرت أولاً بالانزعاج من الحشود التي لا تنتهي من الأطفال الذين يصرخون في الفسحة الكهفية المعتمة ، لكن ، تذكرت عندئذ أنني لم أصرخ قط بمثل هذه السعادة في طفولتي. نظرت إلى اللسّاع والقرش والوحوش البحرية

التي تحتل موقعاً بين أفراس البحر والنباتات. هل بدت أسماك اللسّاع تتحدّى البشرية ؟ لا ؟ بنظرات وعيد، رفعت خطومها نحو أشخاص واقفين عند نهاية الحوض، ثم تراجعت وزعانفها تخفق مثل لعنة على حشدٍ ما. وفكّرت في أنني إذا أصبحت إمبراطوراً، فسآمر بالتأكيد بتجهيز حوض مائي مليء باللسّاع والقرش.

تجاوزت بسرعة مقر دراستي القديم وصولاً إلى المتحف البريطاني، وبدا محرجاً نوعاً ما رؤية ضعف القسم البيزنطي وسط خزينة الأغراض التي سُرقت من القارات الأربع. اتخذت موقعاً على الدرجة الدنيا من السلالم الهادئة في الساحة، وأغمضت عينيَّ، وأرحت رأسي على ذراعيَّ، وذراعي على ركبتيّ. ثارت أربعة أعاصير صامتة من الأناضول، وبلاد الرافدين، ومصر، والصين واجتمعت عالياً في الجو، وارتجلت بانضباط وانسجام موسيقى في أثناء تلوّيها ذهاباً وإياباً... (قُطع رأس الإمبراطور جستنيان الثاني عام 711، وقُلعت عينا الإمبراطور فيليبيكوس عام 713، وفقد الإمبراطور قسطنطين السادس عينيه عام 797، وطُعن الإمبراطور ليو الخامس ثم قُطع رأسه عام 820، وطُعن الإمبراطور مايكل الثالث حتى الموت عام 867...).

في ليلة أخرى، أرسل أسكاريس فتاتين جامايكيتين إلى غرفتي، ولم أعرف أنهما ستكونان توأماً متماثلاً. كانت ساق إم. اليسرى اصطناعية حتى ركبتها، ونظراً إلى أنها تقرأ للشاعر ديريك والكوت، دعوتها لمشاهدة "مصيدة الفئران" معي، وقد عُرضت المسرحية، المأخوذة من قصة آغاثا كريستي 23,000 مرة منذ 1952، وارتعشت حين ظهر القاتل في المشهد الأول. كنت أفكر بشأن محنتي التي ستصل إلى ذروتها بعد ستة أسابيع، وصدّقت م. أنني كنت الوريث الشرعي لمنظمة تعمل في نوعٍ من الأعمال المشبوهة. (سُمّم الإمبراطور قسطنطين السابع عام 959، وسُمّم الإمبراطور رومانوس الثاني عام 963، وطُعن الإمبراطور نايسفوروس الثاني فوكاس ثم قُطع رأسه عام 989، وسُمّم الإمبراطور جون الأول تزيميسكز عام 976، وسُمّم الإمبراطور رومانوس الثالث أرغيروس وخُنق عام 1034، وتوفي الإمبراطور مايكل الخامس عام 1042 بعد فقء عينيه...).

لم تكن لدي أي فكرة عن مكان إقامة مساعديَّ الثلاثة، لذا التقيتهم على مائدة العشاء

في مطعم فندقي. كان حوار أسكاريس مع النادل مثيراً للإعجاب ، وتكلم بنبرة طبقة مخملية ، واستخدم مفردات غريبة ومتكلّفة ، وكنت مستعداً للتخمين أنه قد أنهى تخرّجه من جامعة بريطانية ممتازة وعاش في لندن. كانت إنكليزية كاليغاس جيدة أيضاً ويتمتع بثقة بالنفس ، في حين أن باباس بالكاد يعرف الإنكليزية ، وبدت الصعوبة التي واجهها مع قائمة الطعام مسلّية ، وفكّرت أنه ربما قد وُظّف كخدمة شخصية لأحد ما ، وإلا فما هو السبب ؟ إذا لم يكن ضليعاً في هذه الأمور السطحية ، فهو على الأقل يتمتع بقلب دافئ.

أصدرت أوامر إلى فريقي ، وطلبت منهم الحديث عن أنفسهم ، لكنني لم أسألهم إطلاقاً عن ماضيهم. لذا ، من أجل إنقاذ الأمسية ، بدأت أرتجل بشأن هذا وذاك ؛ ممهداً للحديث عن موضوعي ، ولخّصت تاريخي التعليمي ، ثم عرضت مقاطع من حياتي الخاصة. كان أسكاريس رجلاً حكيماً ، ولكنه عمليّ ويحب إنهاء ما بدأه. وبدا أنه يرغب بإخفاء مناقبه ، ولاحظت أنه قد انزعج قليلاً ؛ لأنني جلست إلى طاولة واحدة مع كاليغاس وباباس. التقيت الرجل مرتين إضافيتين قبل العودة إلى إسطنبول ، وبدت تصرفاته متقنة ومتزنة دائماً ، وشعرت بالودّ نحوه. وكنت واثقاً أن عمله الغامض قد منعه من الزواج أو تطوير أيّ هواية. التقينا أول مرة في مشرب الفندق ، وشعر بالإحراج حين طلب إذني للمغادرة بعد أن تناول قارورة الماء المعدني الثانية ، ليلحق القطار المتجه إلى وينشستر. (قُلعت عينا الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينز وسُمّم عام 1071 ، وخُنق الإمبراطور ألكسيوس الرابع أنجلوس ، ثم قُطع رأسه عام 1183 ، ومُزّق الإمبراطور أندرونيكوس الأول إلى أشلاء بعد تعذيبه عام 11 ، وتوفي الإمبراطور إسحاق الثاني حين فقد عينيه عام 1193 ، وخُنق الإمبراطور ألكسيوس الرابع عام 1204 ، وقُلعت عينا ألكسيوس الخامس مرتزوفلوس وبتر لسانه في السنة ذاتها - 1261 - التي فُقئت فيها عينا الإمبراطور جون الرابع لاسكاريس...).

قدّمت لجوسلين قارورة عطر كهدية وداع حين غادرت المركز ، ولم أكن شجاعاً كفاية لأختلف معها في الرأي حين قالت بنبرة واثقة: "لا تحاول إخفاء الأمر ، أنت هنا لإجراء بحث من أجل روايتك البيزنطية".

"أو رواية بوليسية أكون بطلها".

"هل لها عنوان ؟".

"... سلطان بيزنطة...".

"حسناً ، هذا عنوان مثير ل. الأنغلو-أمريكيين الذين لا يُعدّون غرباء عن السلاطين وبيزنطة ، وسلطان بيزنطة هو اللقب الذي دُعي به محمد الثاني بعد فتحه القسطنطينية".

(أُصيب الابن أندرونيكوس الرابع بالايولوجي ، والحفيد جون السابع بالايولوجي ، من الإمبراطور جون الخامس بالايولوجي بالعمى جزئياً عام 1374 استجابة لأوامر الإمبراطور وتدخّل العثمانيين...).

كنت أعلّق الخريطة التي تحمل علامات بعد وقت طويل من لقائي أسكاريس حين تذكرت شيئاً تحت كومتي من الأطالس ، ولم أكن قد حملت قط هذا الكتاب الثقيل ؛ مفترضاً أنه من مشتريات جدتي التراجيدية-الكوميدية الأخرى فحسب ، وتُظهر الحروف على ظهره كلمة "ماناسيس". بشوق ، نزعت غلاف ما بدا لي علبة مصنوعة من القش ، وتبين أن الكتاب مطبوع في البندقية عام 1729 ، ويوجد على الجانب الأيسر من الصفحات الرقيقة نص باللاتينية ، وعلى الجانب الأيمن نصّ باليونانية. إلى جانب كلمتي قسطنطين ماناسيس ، وجدت مقاطع من مؤلفين آخرين لم ألحظ اسميهما في أي مكان آخر ، وبيّن لي بحثي الخاص أن مؤرخي القرنين الثاني عشر والثالث عشر لم تكن لهم علاقة بأسرة بالايولوجي. بدا أن الكتاب قد عفا عليه الزمن مثل خزانة ملفات ، ووجدت بطاقات تعريف عمرها خمسون عاماً من مطاعم في جنوة ملصقة بصفحاته ، وعلى ورقة مصفرّة مقسّمة إلى مربّعات إرشادات إلى نوادٍ ليلية ، مكتوبة بالحبر بلغة تركية قديمة. وفي ضوء الأخطاء النحوية ، كان الكاتب جدي بالتأكيد.

ضمّت ورقة أخرى ، أقل اهتراءً ، نجمة خماسية مرسومة بمسطرة. والفرق الوحيد بينها وبين النجوم التي تراها على الأعلام هو أن الخطوط ممدودة لتكوّن خمسة مثلثات متساوية الضلعين ، في حين أن القواعد محدّدة بنقاط. توجد في اثنين من المثلثات أرقام ، أمّا الاثنان الآخران فتوجد فيهما حروف لاتينية. في حين أن الخامس يضم جملة مكتوبة بالعربية. ظننت أن هذه الوثيقة لائحة بعلامات ، أو ربما ورقة روليت ، أو ربّما كانت محاولة استخدام حروف قوطية لتعزيز الخطة السفسطائية لسحب المزيد من الأموال من جيب جدّي الساذج ؟

عندما عدت إلى إسطنبول من لندن ، أخرجت النسخة التي صوّرتها في المركز ، وقارنت الكتابة بتلك الوثائق ، وبدا واضحاً بالتأكيد أن الكتابتين قد خُطّتا باليد ذاتها. فكّرت أن الوقت قد حان آنذاك لأكتشف إن كانت تلك يد بول هاكيت ؛ الصهر في بناء آسبيلانديت السكني لمدة ثلاثة أعوام. كنت قد تعودت أن أكره أبي ؛ لأنه السبب في انفراط عقد أسرتنا ،

لكنني شعرت بالفضول بشأن بول هاكيت ببساطة ؛ لأن جدتي اتهمتني قائلة: "باستثناء طباعك الحادّة وكبريائك التي ورثتها عن أمك ، أنت صورة طبق الأصل عن أبيك".

في أثناء عامي الأخير في المدرسة الثانوية ، عندما كنت أقدّم طلبات الانتساب إلى الجامعات في مختلف أرجاء العالم ، سأل أوجينيو مرة: "ألا ترغب في الذهاب إلى فيرجينيا لأنها كانت جامعة أبيك ؟". وتذكّرت كيف هزَّ رأسه ببطء حين رأى أنه ليست لدي أدنى فكرة عن الجامعة التي ارتادها أب.ي. كانت دار النشر التي مثّلها بول قد أفلست ، والفرصة الوحيدة المتاحة أمامي آنذاك للتواصل مع ماضيه هي المعلومات التي يمكنني الحصول عليها في جامعة فيرجينيا ؛ إن استطعت الذهاب إلى هناك ، وقد ألّفت تعزية بتاريخ سابق لنفسي تحسباً للاحتمال المخيف ؛ وهو أن يكون ذلك خط يده. لم يكن لي الحق في تلك المرحلة بأن أرتقي بحياتي من رواية بوليسية إلى مسرحية تلفازية. ومن دون أن أعرف السبب ، خطر ببالي شعار ساخر على كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية: "حيث ينتهي العلم ، تبدأ الصلاة".

في ليلة عودتي من لندن ، اصطحبت الأسرة لتناول العشاء في موزديشانغا. وكنت أحب مطعم المتحف هذا في أميرجان ؛ لأن البرجوازيين السطحيين يغفلونه. جلسنا إلى طاولة تطل على القصر العثماني على الجانب الآسيوي من البوسفور ، وعندما كانت سُدادة القارورة الثانية من الشراب تُنزع ، ظننت أنني رأيت مؤذناً يرتدي قفطاناً فيروزياً في أعلى برج المبنى ، وفكّرت أنه عندما ينظر حوله مفعماً بالأمل ، فهل سيتأثر ليسرد قصيدة بوسفور كلاسيكية ؟ اختفى ببطء خلف ستارة من الضباب ، ولو أنني رأيت هذه الصورة حين كنت طالباً ، لفكّرت: "إذا كان لا يزال هناك أشخاص يمكنهم رؤية الرجل ذي القفطان الفيروزي ، أتساءل ما عددهم ؟".

تصفّحت في المنزل تلك الليلة كومتي من مجلات الشعر ، وبدت الأصوات الإيقاعية التي تترقرق من الصفحات حين قلّبتها تحدّياً لليل ؛ وهي تطقطق مثل السوط وسط الصمت الثقيل. نهضت وذهبت إلى الشرفة لأتأمل إسطنبول القديمة ، ورأيت حشداً من الفرسان ينطلقون على خيولهم عبر السهل المغمور بضوء الكنائس والمساجد ، وفي

الطليعة حصان أبيض يثب بسرعة ويبدو أنه يقول "لننطلق!" للقائد الذي ينتظره، وشعرت بالإثارة مثل طفل يقوم برحلته الأولى إلى مدينة الملاهي.

á á á

انتقيت من دون تفكير اثنين وعشرين صرحاً بيزنطياً لم أكن قد زرتها بعد، وكنت غريباً على أسمائها وواجهاتها كلها باستثناء أربعة منها فقط. فكّرت أن نومو قد تعتبر نزهتي فعل خداع، لكن لم يكن لديّ برنامج خاص لهذه الرحلة؛ رغم ظنّي أنني سأتلقى إشارة من نوعٍ ما في أثناء قيامي بزياراتي الاثنتين والعشرين. إحدى هبات الفارسية هي تعبير "الاكتشاف مصادفة": في سياق البحث عن جمال، والعثور على آخر...

سيكون ازدراءً لتدوين التاريخ ألا أبدأ رحلتي عبر نفق الوقت من أسوار المدينة: كان هذا الطوق الحجري من ساراي بورنو إلى إيفان ساراي، ومن يديكولي إلى توبكابي قد جعل القسطنطينية المدينة الأكثر حماية من القرن الخامس إلى الخامس عشر. سلكت مجازاً متعرجاً حولها في السيارة ومن دونها، وقاد إسكندر أَبيه اللانسيا التي كنت أُخرجها من المرأب مرة في الشهر، وعرفت أنه سيسأل: "كم طول هذه الأسوار الضخمة؟" في أول فرصة، وكافأته بمعلومة؛ وهي أن طولها أكثر من اثني عشر ميلاً بقليل، وتضم ستة وتسعين برج حراسة، وانتظرت السؤال التالي: "ما برج المراقبة؟".

شعرت بالإثارة التي يشعر بها المرء لدى دخول بلد أجنبي من دون جواز سفر حين اجتزت الأسوار من ساماتيا؛ المكان الوحيد الذي بقي اسمه من دون تغيير منذ بداية بيزنطة. كان هناك سابقاً خندق عريض أمام تلك الأسوار، وعلى الجانب الآخر منه صفٌّ آخر من الأسوار يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً، جعلت الغزاة الذين نجحوا في اجتياز العقبتين الأوليين يعودون خالي الوفاض من الأسوار الداخلية بارتفاع تسعين قدماً. إذا نظرت من الخارج عن كثب، فستبدو لك الأسوار مثل مصارعي الوزن الثقيل الواقفين جنباً إلى جنب، في حين أنها تشبه من الداخل مجموعة متقاعدين بالكاد يستطيعون الوقوف منتصبين. وبدت هذه اللوحة تصويراً دقيقاً لبيزنطة التي سُلّمت إلى بالايولوجي.

مشيت على الأسوار، وأنا أتجاوز ذهنياً الأقسام "المرمّمة"؛ رغم إمعاني النظر إليها؛

وكأنني أقرأ كتابي الخاص. وفسّرت الافتقار إلى التبصّر على أنه: "لا عقبات على طريقك". لم تكن رؤية إسكندر أَبِيه وهو يراقبني أتمدّد على الأسوار بطرف عينه - كأنه يشاهد بتردّد شعيرة همجية وغريبة - مرضية لي مطلقاً.

تجاوزت إحداثيات مسجد إمراهور (كنيسة القدّيس جون المعمدان)، ومسجد الملا غوراني (كنيسة القدّيس ثيودور)، ومسجد فتحية، ومسجد غُل (كنيسة القدّيسة ثيودوسيا)، وسلكت درباً متعرّجاً من القرن الخامس إلى العاشر، ثم من الثالث عشر إلى الحادي والعشرين. كان مرشدي إلى تلك الزوايا الغامضة والمنعزلة من المدينة الخبير البيزنطي سنوات مرت. وعندما علّق أنه في ثلاثة وثلاثين عاماً من حياته المهنية كانت هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها بجولة مثل هذه، شرحت له أنني أقوم "ببحث أوّلي من أجل رواية سلجوق ألتون"، وأنا واثق أنه قد اقتنع بهذا.

فكّرت في أهم كاتب مسرحي في التاريخ - صمويل بيكيت - حين دخلت المتاحف المصغّرة والكنائس التي أضحت مساجد وخرجت منها، وقد لقيت رائعته في انتظار غودو نقداً لا تستحقه حين عُرضت أول مرة عام 1953، وقد أشار إلى عالم المسرح بالتوكيد على أن المسرحية كلها تكافلية، وبدا تراجيدياً عدم ملاحظة الدليل الوحيد الذي قدّمه؛ في الواقع قد يكون مادة مسرحية ضمن مسرحية. التكافل تعبير بيولوجي، وهو يعني "تفاعل نوعين مختلفين يعيشان معاً"، وإذا أخذت هذا بالحسبان في ما يتعلق بغودو، يمكن رؤية كلمتي غود وإيديوت ممتزجتين، ويمكن أن يُفهم بسهولة أن الشخصيتين الرئيستين فلاديمير وإستراغون يتبادلان الأدوار وفقاً لمزاجيهما المتغيّرين لتحقيق انسجام غريب. قدّم بيكيت بسخاء أدلّة ثانوية عبر كنيتي إستراغون (غوغو) وفلاديمير (ديدي). ونظراً إلى أن غودو لن يأتي أبداً، أضحى إستراغون وفلاديمير غودو. وفي أثناء مزاحهما "على نحو سخيف" مع بعضهما بعضاً كانا ينصبان أيضاً فخاً للجمهور الغافل.

فجأة، حطَّ غراب على أعلى نافورة عثمانية مهملة قريبة، ونعق مرتين نحوي؛ وكأنه ينتظر جواباً، وربما كان صوتي الداخلي الذي قال: "التكافل بين حكاية وتاريخ (الحكاية) هو الأكثر غموضاً". عند ذلك، نعق الطائر الجميل مرة أخرى وطار نحو الحصون البيزنطية

القريبة.

تعايشت الصروح البيزنطية التي كنت واثقاً بأنني أراها لأول مرة وآخر مرة متكافلة مع بيئتها، وتقدّمت خطوة إلى الأمام نحو اليوم، في حين أن الأحياء المجاورة لها تراجعت خطوة إلى الخلف نحو الأمس، فالتقت عند نقطة وسيطة من الوقت، وتبدو كلها مرتدية الثياب الباهتة الرثّة نفسها. في الوقت الحالي، تستمتع بمباهج الهدوء، لكنها تنتظر إشارة، ولا تطلق السيارات القليلة التي تمر في الشوارع الملتوية أبواقها، ولا تتردّد صرخات الأطفال في المكان. كان على وجوه المسنين الذين يمشون الهوينا رضا، وشيء بين السعادة والتعاسة، وبدا واضحاً أنهم جميعاً يعرفون شذا أشجار التين المنبثقة من الحدائق مفرطة النمو، ورائحة المقابر العثمانية التي تظهر فجأة في نهاية الشوارع التي تلتف حولها مثل جداول ضيقة، والمنازل الخشبية القائمة بالكاد، والتي تضم صيدليات.

لم تكن هناك آثار مظاهر في مواقف المباني التي حُوّلت من كنائس إلى مساجد. هل أضحت محبوبة أكثر بكل تلك السجادات على الأرضية وزخارفها الجديدة؟

في الشوارع الخلفية لحي سليمان صرخ شاب ذو شارب يتسكّع أمام محل حلاق نحوي: "مهلاً، هل أنت سائح أم إرهابي؟". كان واضحاً أنه يلجأ كثيراً إلى هذا النوع من السلوك. مشيت نحوه بخطوات واسعة قائلاً بتذمّر: "يعتمد هذا على يوم الأسبوع".

قال: "ظننت أنك سائح يا أَبِيه". وجرى إلى الداخل. لو أنه تقدّم بدلاً من أن يتراجع، لأوليت الحراس الذين عيّنهم تنظيم نومو لملاحقتي ثقتي. لكن، هل أردت حقاً اختبار ذلك الاحتمال؟

لقيت مفاجأة صغيرة عند مسجد فتحية حين وقفت في الخارج مصغياً إلى محاضرة عن أهمية تاريخ فن اللوحات السقفية في الداخل. شغل المسجد، الذي حُوّل لاحقاً إلى متحف، مركز البطريركية الأرثوذكسية في جزء من العهد العثماني؛ حين كان لا يزال كنيسة. ورأيت آنذاك الشارع أمامه مملوءاً نساء ملتفات بالشادور الأسود، ورجالاً لحاهم طويلة بالزي الديني الفضفاض، وشباباً يعتمرون عمامات على رؤوسهم. كُتبت على لافتة معلّقة على نافذة متجر: "عطورنا خالية من الكحول"، وشعرت أنني أرى فجأة مشهداً صُوّر في

أفغانستان.

معمارياً، كانت أجمل تلك الكنائس المحوّلة هي مسجد غُل قرب مدخل القرن الذهبي. كان بعض المسنين من حي سيبالي ينقلون كراسيهم عبر الشارع من البناء ويركّزون بصرهم عليه، مستمتعين كما يبدو بمتعة التنويم المغناطيسي، ودُهشت من الاهتمام الشديد الذي أظهره السياح حين انتظرت في الصف عند الباب لأخلع نعليَّ وأدخل. يُظنُّ أن المسجد - مثل الكنيسة - قد ضمَّ المرقد الأخير لقسطنطين الحادي عشر. وكانت أمامي مجموعة نساء أمريكيات مسنّات ورشيقات، ولاحظتْ عابرة سبيل ترتدي سروال قروية فضفاضاً، لم تكن على الأرجح قد رأت من قبل في حياتها ساحة تقسيم - مركز المدينة - بنحو لا يُنسى أن المرء: "يرى هذه الأيام نساء مسنّات مجنونات يتجوّلن في الأرجاء طوال الوقت". كان عدم التناسب بين المساحة المربّعة للأرضية وارتفاع السقف مثيراً للاهتمام، وبدا بمقدوري تصديق قصة أن أرضية المبنى من القرن التاسع قد انكمشت بمرور الوقت، في حين أن السقف ازداد ارتفاعاً. بالنسبة إلى سنوات مرت، كانت هناك ميزة إضافية تتمثّل بأن الكنيسة قد تحوّلت إلى مستودع للبحرية العثمانية بعد الفتح.

كان دير بانتوكراتور - مسجد زيريك - مغلقاً أمام الزائرين؛ بسبب مشروع ترميم واسع النطاق. لكنني مشيت عاقد العزم إلى مبنى مجاور قد بنته الإمبراطورة أيرين من أسرة كومنيني. يضم الدير الذي يبدو من الخارج مثل خان، قبري مايكل الثامن؛ مؤسس سلالة بالايولوجي، ومانويل الثاني؛ أب قسطنطين الحادي عشر، وتشمل مجموعة الأبنية مستشفى، ودار تقاعد، ومقبرة صغيرة. افترقت عن مرشدي أمام جدار حوض ينتصب مثل غربال مزركش بين المدينة وزيريك، وكان المرشد يظن أنه من دون معرفة حكاية السلطان محمد الفاتح؛ قاهر القسطنطينية، لا يستطيع أحد فهم خاتمة بيزنطة. بدت المنازل الخشبية على دربي هشّة كفاية لتتحطّم في أول ريح قوية، لكن تلك المنازل - بلون الفحم آنذاك - قد نجت من زلازل قوية لا أحد يعرف عددها! بدا غريباً أن يكون أهم دير في العاصمة محجوباً بثوب من الأكياس لترميمه، وتمنيت فقط ألا يخرج منها في نهاية المطاف ليبدو مثل فندق تجاري، وكان في الملحق مقهى فيه قطط أكثر من الزبائن، ومن أبعد

طاولة يمكن مشاهدة عرض صروح بيزنطية وعثمانية ، ومستحيل ألا تقع عين المرء على برج غلطة ، وقد ضايقتني قليلاً تلميحاته.

شربت كأسين من الشاي حين راجعت ملحوظاتي الظاهرية ، ثم مشيت متمهلاً إلى جادة أتاتورك لأركب سيارة أجرة إلى المنزل. بدا الشارع الأقرب إلى الجادة معرضاً في الهواء الطلق ، وهناك عدد من الجزّارين من سيرات - إقليم في الجنوب الشرقي - مشغولين بتقطيع ذبائح أغنام لتحضير كباب محلي ، وخليط لحوم يُحضّر منه طعام شهي من سيرات حصراً. وجلس زبائن على كراسٍ منخفضة في مقاهٍ تدور فيها أحاديث بالكردية والعربية بأصوات خافتة ترافقها ضحكات بقهقهات عالية ، وعلى آخرها شخص مغرور يتململ بعصبية.

إلى يميني ، على بعد ألف قدم ، لمعت قناطر فالنس مثل واحة ، وبدأنا ننجذب نحو بعضنا بعضاً. يباعد المبنى - البالغ طوله نصف ميل وارتفاعه تسعون قدماً - قوائمه فوق الجادة مثل عملاق خيال علمي ، مدعوماً بست أقواس تمر عبرها المركبات باحترام وخوف ملائمين ، وقال أوجينيو عن هذا العمل من القرن الرابع إنه قد "ابتعد عن الأسوار ، ومشى نحو المدينة ليجثم في الوسط ويعمل خفيراً". عندما لمحت عدّة فتيان يلعبون فوقه ، انتابني حافز لأمارس حقي بالمشي عليه ، وتبدأ القناة بالارتفاع حيث تكون أقرب إلى الأرض. إضافة إلى هذا ، وضع المصير كوخاً مهجوراً هناك ، وقلقت من إثارة ضحك مجموعة مصلّحي إطارات بالقرب من هناك حين تسلّقت من غير إتقان على حاوية نفايات أولاً ، ثم سقف الكوخ ، وفوق الحوض أخيراً. كانت القمامة في المكان أقل قليلاً من شواطئ حضرية ، وشرعت في السير وأنا أتمايل مثل شخص يمشي على حبل بهلوان من دون خبرة. وعندما تسلّقت إلى الأعلى هدأ جسدي ، وأحسست بأنني راكب على مقعد يدور حول محور ؛ مدهوشاً من الشعور بالرحابة ، رأيت صبيين في العاشرة تقريباً يدخّنان لفائف تبغ ويلقيان حجارة على السيارات في الأسفل من زاوية صغيرة تطل على الجادة ، وقد دُهشا لرؤيتي.

قلت مازحاً تقريباً: "ماذا تفعلان أنتما الاثنان على قناطر جدي ؟".

قال الذي يرتدي قميصاً بردنين قصيرين مكتوباً عليه نادي كولن الرياضي: "أقسم إننا

لم نكن نعرف يا سيدي".

حاولت مصادقة سعدون من سيلفان وحمد الله من إروه ؛ وكلتاهما بلدتان شرقيتان تحملان اسمين جميلين ، وشعرت في الوقت نفسه بالنعاس يغلبني ، وقرّرت فجأة فعل أغرب شيء في حياتي. أبلغت الصبيين أنني سأمنح كلاً منهما عشرين ليرة إذا قاما بحراستي في أثناء غفوتي ، فلمعت عيونهما ، وقال أحدهما: "ليهبك الله الراحة". وقال الآخر: "أتمنى لك حياة طويلة". جهّزت سريراً لنفسي من الصحف والأكياس المتناثرة في المكان. وعندما استلقيت على تاريخ بيزنطة السري بوصفي أول إمبراطور ينام على قناطر فالنس ، تمنيت أن يُلحظ أنني قد حظيت بحارسين ، إلى يميني عربي وإلى يساري كردي.

أيقظني الفتى بالقميص من دون ردنين مع انتهاء أذان العشاء ، ومنحت كلاً منهما خمسين ليرة فأصرّا على تقبيل يدي ، ثم انطلقا في الاتجاه الذي جئت منه. وقفت وبدأت المشي في الاتجاه المعاكس ، وخاب أملي من العودة خالي الوفاض من هذه الرحلة التي بدأتها من دون معرفة ما يمكن العثور عليه بأي حال. ذكّرني النزول من أعلى قناطر فالنس ، التي تسلّقتها من أجل تسلّقها فقط ، بمعابد الأزتك حيث تغوص السلالم أبعد وأعمق حين تنزل أكثر فأكثر. وعندما بدأت التفكير في أنني أتوسّع في تخيّلاتي ، مسّت قدمي الأرضية ، ووجدت نفسي في الساحة الخلفية لمسجد قلندرخانه ؛ كنيسة أكاتالبتوس سابقاً. وكنت قد زرت هذا الصرح الذي يعدُّ مأوى للدراويش في أثناء العهد العثماني في اليوم الأول من رحلتي ، وشعرت بوهج دافئ ؛ وكأنني قد عدت إلى متاهة: الاكتشاف مصادفة ؟

á á á

النتيجة المشتركة التي توصّلت إليها كتب التاريخ ، ومقالات الموسوعات ، ومواقع الإنترنت هي أن قسطنطين الحادي عشر كان إمبراطوراً ليبرالياً وبسيطاً تماماً ، وسقط شهيداً بعد أن دافع ببطولة عن عاصمته ضد الجيش العثماني القوي. كان هناك آخرون لعبوا دوراً في سقوط القسطنطينية ؛ وهم البابا الذي تظاهر بتقديم المساعدة ، وأهل البندقية وجنوة الذين قدّموا دعماً رمزياً.

اختزلت الإمبراطور الخالد قصة قسطنطين الحادي عشر في 128 صفحة ، وسردت 200

عمل سيرة ذاتية. ومن أجل أن يكون العمل أكاديمياً ، بدا واضحاً أن المؤلف د. م. نيكول كان مصمماً على عدم التعامل مع عالمه الداخلي إطلاقاً. ظننت أنه ينبغي لي قراءة هذا الكتاب بالطريقة ذاتها التي أشاهد فيها مباراة شطرنج.

... لم يُرزق الإمبراطور جون الثامن أولاداً ، وأضمر في نفسه أن يخلفه أكبر أشقائه الثلاثة وأكثرهم موهبة. لكن ، في يوم وفاته ، أقدم شقيقاه الآخران ؛ توماس وديمتريوس ، على خطوات من جانبهما للاستيلاء على العرش. وصل توماس الأصغر سناً ، إلى القصر أولاً ، في حين حظي ديمتريوس أمير سليمبر الذي يعارض انضمام الكنيسة الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية بفرصة للقتال أيضاً. كان قسطنطين الابن المفضّل لهيلين ؛ أرملة مانويل الثاني التي أقنعت الشقيقين الشابين الجشعين بالاستسلام ، ونجحت في تنصيب قسطنطين على العرش ليكون آخر أباطرة بيزنطة ، ثم أبلغت مراد الثاني - السلطان العثماني - بهذه الخطوة وحظيت بموافقته. بقي الجفاء بين قسطنطين وشقيقيه قائماً دائماً ، وعندما كان الإمبراطوار يدافع ببسالة عن عاصمته ضد محمد الثاني بموارد محدودة ، لم يكن شقيقاه إلى جانبه. وبعد هزيمة البيزنطيين ، بقيا حاكمين مستبدين لموريا بفضل دفعهما جزية للعثمانيين. وبمرور الوقت انحسرت قوتهما مع تضاؤل كرامتهما.

تنازل أندرونيكوس ؛ ابن توماس والوريث الشرعي للعرش البيزنطي ، عن حقوقه لملك فرنسا تشارلز الثامن. لم يسعني إلا التفكير في أنه إذا كان محمد الثاني مكان جد جدي ، فسيكون أول شيء يفعله هو أن يأمر بشنق شقيقيه من أجل الهيبة ومنع التآمر الشائن.

... كانت جدة قسطنطين لأمه إيطالية ، وقد تزوج حين كان أميراً - من دون حب - سيدتين إيطاليتين نبيلتين ، وفقدهما كلتيهما بسبب المرض. وعندما أصبح إمبراطوراً ، أرسل أمين سره سفرانتزيس إلى ممالك مجاورة صديقة بحثاً عن زوجات محتملات ، وأراد مقاومة فقدان الإمبراطور للقوة تدريجياً بزواج مهيب. بعد عامين من البحث العقيم ، فكّر الخاطب في زوجة أب الفاتح ماريا برانكوفيتش ؛ ابنة الأمير الصربي جورج برانكوفيتش ، فبعد وفاة والد الفاتح مراد الثاني ، عادت ماريا إلى ديارها صربيا (الفاتح ابن مراد من زوجة مختلفة). وكانت أيرين أم قسطنطين سليلة أسرة برانكوفيتش أيضاً. في الواقع ، فشلت هذه

المحاولة أيضاً ، وأنهى الإمبراطور بحثه عن زوجة.

... بدا أن جدي الأكبر أمضى حياته كلها وهو يقوم بواجباته ومتأهباً. ولا أظن أنه قد اختبر قط مباهج السلطة. ورغم أنه كان عادلاً وكريماً جداً ، إلاّ أنه افتقر إلى الدعم الكامل من الكنيسة وشعبه لتأييده أباه وشقيقَه الأكبر اللذين شعرا أن توحيد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية تحت سيطرة الأخيرة ليس فكرة سيئة. بالنسبة إلى قسطنطين المولع بالفلسفة ، لم تكن الأسباب الكامنة خلف النزاع بين الكنيستين مهمة ، والتوحيد سيجعله يظفر بدعم أوروبا في حال داهمه خطر من الشرق. وإضافة إلى هذا ، ستجد بيزنطة- بوصفها وريثة الحضارتين الرومانية والإغريقية - طريقة لجعل الممالك الضعيفة في أوروبا تقبل تفوقها. لكنْ لسوء الحظ ، لم تقبل الكنيسةُ هذا الهدف ، وكذلك الشعب. تفوّه لوكاس نوتاراس الذي تبوأ منصباً مرادفاً لرئيس الوزراء ويُظن أنه دعم جهود الإمبراطور من خلف الكواليس ، بجملة لكتب التاريخ: "عمامة الإمام أفضل من قبعة الأسقف".

كتب د. م. نيكول أن قسطنطين الحادي عشر وُلد في 8 شباط 1405 ، في حين أن قاعدة التمثال على غلاف الكتاب زعمت أن 9 شباط 1404 هو تاريخ ميلاده. بالنسبة إلي ، كان هذا الالتباس - والقاسم المشترك الوحيد بينهما هو الشهر الثاني - نموذجياً في ما يتعلق بالسلالة البيزنطية. أحببت الكتاب ، وما قرأته في خاتمة الإمبراطور الخالد قدّم دعماً لفرضية أسكاريس: أن جدي الأكبر لم يمت أثناء دفاعه عن بيزنطة ، وأن ستة أفراد من أسرة بالايولوجي كانوا على قائمة ركاب آخر مركب من جنوة يغادر أرض المعركة...

حاول قسطنطين الحادي عشر الذي لم يستعد حقه بالعرش إلا بمساعدة أمه - أو يُوفّق بالعثور على زوجة لنفسه - فعلَ الخير لشعبه دائماً ، لكنه لم يستطع تفادي أخطاء قاتلة. جلب هذا الموقف شخصاً آخر إلى ذهني فجأة ؛ أنا! تذكّرت حالات عديدة من سلوك نموذجي ؛ مثل عدم تجاوز الإشارة الحمراء حتى في منتصف الليل على شوارع مقفرة ، أو عدم الغش إطلاقاً في الامتحانات ، وفي ما يخص الفتيات ؛ حسناً ، باستثناء مبادرة فتاة واحدة بالكلام في الشارع ، لم أرفع صوتي قط بجانبهن خوفاً من أن يُساء فهمي.

كانت واشنطن العاصمة أحدث بنحو 2400 عام من إسطنبول. ورغم أنني ظننت أن عدد سكان يبلغ 600,000 نسمة لم يكن ذا شأن لعاصمة الولايات المتحدة العظمى ، فقد أعجبتني الجادات المتناسقة المرقّمة بحروف وأعداد ، وذكّرتني بأنقرة بمبانيها الرسمية الكئيبة ، وموظفيها المدنيين المتجهّمين ، وضباطها العسكريين الذين يتجولون في الشوارع أحياناً. كنت في سنتي الجامعية الثانية حين رأيت لأول مرة نهر بوتوماك الرمادي ، وظننت أنه يضيف بعض اللون إلى المدينة ، والربيع آنذاك في نهايته والرطوبة مريعة. زرت المتاحف ، وركبت القطار عائداً إلى نيويورك ، ووضعت واشنطن على قائمتي للمدن التي لا تستحق رؤيتها مرتين.

تلك المرة ، دُهشت لدى رؤيتي مباني آجرية كثيرة قائمة في نقاط استراتيجية ؛ كأن منجم آجر قريباً قد غذّى عمارة المدينة هنا وهناك حتى نفد منه الآجر. أزعجني جناح فندق فورسيزنز المغطّى بالآجر أيضاً ، لكن الداخل المترف بدا مريحاً ، وكان الموظفون يتكلمون وكأنهم يدندنون تهويدات ، ودخلت جناحي في الطابق الثاني المطل على متنزه روك كريك الهادئ جداً ما جعلني أنام . هل كانت إقامتي في ذلك الفندق بناءً على توصية أسكاريس خطة لتعوّدي الترف ؟

كان دومبارتون أوكس قصراً خاصّاً قبل أن يصبح معهد أبحاث ، وبدا أن جدرانه الآجرية تُشمّع كل شهر ، وتغرّد طيور في حدائقه التي يُعتنى بها جيداً ، ومجالي البحث الرئيسين فيه هما بيزنطة وأمريكا قبل كولومبوس. ظهر جلياً عدم تكافل هذين الحقلين من قسم المتحف ، حيث تتحدّى التماثيل النصفية الأقنعة ؛ والعكس بالعكس. لتعزيز صورة المكتبة التي تشبه ملتجأ من القصف ، أُكّد على أنها تضم 200,000 كتاب ووثيقة.

أخبرت أسكاريس: "سيكون يومان في دومبارتون أوكس كافيين لإنهاء تعليمي الذاتي ، ثم سأذهب لرؤية بعض الأصدقاء والأقرباء الأمريكيين. لن تراني خلال عشرة أيام".

قال: "نعم ، جلالتك". وعندما نقل بصره إلى الأرضية ، عرفت أنه قد وضع آنذاك قائمة بالرجال الذين سيجعلهم يتعقّبونني.

زاد خمول الصيف في المكتبة افتقاري إلى الطاقة، وتجوّلت من دون هدف بين الرفوف. أمسكت المجلّد الثقيل الذي يتحدّث عن دولة مانويل الثاني؛ البالايولوجي النموذجي، وجلست إلى طاولة منعزلة، ورأيت على إحدى الصفحات التي قلّبتها صورة معاهدة بين البندقية وبيزنطة، ويملأ توقيع مانويل الثاني على الوثيقة المؤرخة في **1406** سطراً برمته ويزيد عنه - يضم أكثر من خمسين حرفاً - ولم يسعني إلا أن أضحك، وبدا أن الحروف الكبيرة المزخرفة قد صحّحت خطأً. أخرجت كتابَي تاريخ من حقيبتي، أحدهما بالتركية والآخر بالإنكليزية، وكنت سأقرأ سيرة الفاتح؛ جلاد بيزنطة، هناك في أهم مكتبة بيزنطية على الكوكب.

وفقاً لكتبنا المدرسية يعدُّ الفاتح قائداً عبقرياً بدأ حقبة وأنهاها، ومولعاً بالكتب، ومحباً للفن، وسلطاناً فذاً كان سيقهر باقي أوروبا لو أن منشقّين غربيين لم يسمّموه. من ناحية أخرى، عرفه نظراؤه في الغرب على أنه مخادع وعدو قاسٍ للنصرانية والحضارة، وقد سمّمه ابنه بايزيد الثاني.

كان يتقن ثماني لغات، ويحب الجمال والفلسفة والفنون، وقرأ الفن الكلاسيكي لكل من الشرق والغرب. أصبح تحيّزي له، بسبب موهبته السرية في الشعر، احتراماً حين أدركت أنه حكم الإمبراطورية مثل أستاذ شطرنج لتحسينها وتوسيعها. استقى الرجل عِبراً من مكائد القصر التي عاصرها حين كان صبياً، ووضع عيوناً في دول يهتم بها؛ وأهمها بيزنطة، وأسّس أفعاله دائماً على المعلومات التي يستقبلها منهم. كان قاسياً تجاه أسرته حين تدعو الحاجة إلى أفعال وقائية، حتى مع الباشوات المفضّلين لديه حين يكون ذلك ضرورياً؛ لمعاقبة الفشل في تحقيق النجاح. بالغ مؤرخون لاقوا صعوبة في قبول فتح القسطنطينية في عدد الجنود في الجيش العثماني، وجعلوه ثلاثة أضعاف، وتجاهلوا حقيقة وجود الوزير خليل باشا في معسكره؛ الذي عمل في الواقع جاسوساً بيزنطياً، ونقل خططاً تكتيكية إلى البيزنطيين، وحاول إضعاف معنويات العثمانيين بنشر شائعات مثل أن جيشاً هنغارياً ضخماً يكاد يهاجمهم من الخلف، لكن عُنقه ضُرب في الوقت الملائم.

استفاد السلطان محمد الفاتح من كلا جانبي الصواب والخطأ في بيزنطة، وتفادى

الفخ في كلمات البابا المعسولة: "كانت أمك نصرانية ، لذا انضم إلينا واحكم أوروبا كلها". كما أنه ذكي وفلسفي ولعوب متغطرس. كان هدفه التفوق على ما أنجزه الإسكندر الكبير في الشرق بالسيطرة على الغرب وإخضاعه لسلطانه.

كان عمره تسعة وأربعين عاماً حين توفي ، إما بالسم أو نتيجة تشنّج معوي. ألم يكن قسطنطين الحادي عشر في التاسعة والأربعين أيضاً وقت استشهاده الزائف ؟ ليس مفاجئاً أن التاريخ قد أغفل هذه المصادفة ؛ لأنه يفضّل التلفيق على حل الشيفرة. أكّد أسكاريس أن جدي الأكبر أجرى الترتيبات لتسميم الفاتح بعمر التاسعة والأربعين ، وأنا أنتظر اللحظة التي أسمع فيها قصة المفارقة التي يستحيل إثباتها بالتفصيل. نبضت صورة السلطان الغامض بالحياة في ذهني ، وتبين لي أنه لو حظيت بيزنطة بقائد من منزلة الفاتح في وقت الحملة الصليبية الرابعة ، لحظيت أوروبا اليوم بخريطة أقل انقساماً وأرض تتصف بتوازن قوى أقل إزعاجاً ، لكنني واثق بأن صمويل بيكيت سيسخر من وجهة النظر هذه.

عندما ذهبت إلى المكتبة ، التقيت مصادفة مؤرخاً من أمريكا الجنوبية ، جسده ضمن الحدود العليا لقزم ، وصوته خافت وحاد النبرة. كان واثقاً بأن كتب التاريخ ستحتاج إلى إعادة كتابة حين ينتهي من بحثه عن ثيوفيلوس الثاني (829-842)؛ الإمبراطور محب الجمال ، وقد اصطحبني إلى أكاديمية بريطانية ، ولم أشعر بأي اهتمام لتصحيح ما يقوله. سألني مرة عن الإمبراطور البيزنطي المفضّل لدي ، وخرج اسم قسطنطين الحادي عشر من فمي في اللحظة الأخيرة بدلاً من الفاتح.

"لكن ، لماذا ؟".

قلت: "لأنه كان جد جد جدي". وضحك كلانا بمرح.

á á á

تبعد جامعة فيرجينيا في تشارلوتسفيل ثلاث ساعات بالسيارة من فندقي. لأمنع إد - السائق الثرثار لليموزين المستأجرة - من إزعاجي بأي إحصائيات ملكية أخرى ، كنت مستعداً لقراءة واشنطن بوست حتى أصغر إعلان فيها. كنت أبحث عن نعتٍ يجمع بين اللامبالاة والانزعاج لأصف مشاعري نحو التاريخ.

"تدين تشارلوتسفيل بكثافتها السكانية إلى وجود الجامعة والكثير من المتقاعدين الأثرياء فيها". زوّدتني تمتمة إد بهذه الجملة بنبأ جيد ؛ وهو أننا قد وصلنا إلى تشارلوتسفيل. رأيت مبانيَ آجرية متناثرة ضمن الحرم الجامعي تبدو مثل قطعان أغنام مبعثرة ، ومباني جفرسون الحجرية بينها مثل رعاة مرهقين.

دهشت في مركز المعلومات من عدم دهشة الموظفين لاهتمامي بسجلات طلابية قديمة وأماكن تخزينها ، وأرشدوني إلى مكتبة ألدرمان ؛ وهي عبارة عن مبنى آجري مكوّن من خمسة طوابق. وبدت الأعمدة أمامه مصنوعة من مادة تُركت من تشييد تلك الأبنية وتناسب ما حولها. عندما مررت عبر الباب ، تساءلت للحظة عمّا تبدو عليه كلية العمارة. ورغم أنها لا تزال عطلة الصيف ، إلا أنني رأيت نوعاً من الحيوية في المكتبة ، واشتقت فجأة لطلابي ؛ إلى حد أنني ندمت تقريباً على وجودي هناك.

كان ما أردته اقتفاء آثار أب.ي بالبحث في الكتاب السنوي لصف تخرّجه ، وتضم هذه المجموعات عادة عناوين الطلاب في آخرها لتسهّل على تنظيمات الخريجين الاتصال بهم. ظننت أن بمقدوري الاتصال بأحد أفراد الأسرة واكتشاف إن كانت عينة خط اليد له حقاً أم لا.

ولد أب.ي عام 1944 ، لذا طلبت من الطالبة المسؤولة كتاب.ي 1966 و1967 ، وعندما أحضرتهما أدركت أنها قبرصية تركية ، لكني كنت مشغول البال كثيراً ولم ألق التحية بالتركية.

عندما رأيت صورة أب.ي بقلنسوته الجامعية في كتاب عام 1966 تداعيت على أول كرسي شاغر. وباستثناء أمي وجدتي ، إنّ أي شخص رأى هذا الوجه - الذي نجح المصوّر في إضفاء أثر ابتسامة عليه - ووجهي سيصرّح: "لكن هذه صورة لك قبل عشرة أعوام!". تمتع بول هاكيت بفتنة بريئة ويمكن عدّه وسيماً ، لكن أنا لا أُعدُّ وسيماً ؛ رغم أنني أتمتع بسيماء وجهه ، ولكن بطريقة غير متجانسة نوعاً ما.

لم تكن هناك عناوين في مؤخر الكتاب السنوي ، لكنني اكتشفت دليلاً غامضاً إلى جانب صورة أبي ؛ حكمة سرمدية من فيلسوف يوناني كتبها باللاتينية راندولف س.

فيتزجيرالد الرابع. بدا غير ممكن تقريباً وجود أكثر من شخص واحد يحمل ذلك الاسم ، فبحثت في الإنترنت عبر هاتفي الخلوي عن معلومات عن راندولف الرابع ، واكتشفت أنه بعد تخرجه من كلية الفنون والعلوم في جامعة فيرجينيا ، أنهى صديق أبي هذا - الذي كتب التمنيات الطيبة السرّية - درجة دكتوراه في المعهد نفسه ، وحظي بوظيفة محرّر في دار نشر صغيرة في نيويورك بعد التقاعد من التدريس في كلية لم أسمع بها إطلاقاً. أرسلت ملحوظة إلى عنوانه الإلكتروني: أنا ابن بول هاكيت ، وأنا في واشنطن أؤدي عملاً خاصاً ، وأودُّ لقاءه.

بحلول وقت ركوبي الليموزين من أجل رحلة العودة إلى فندقي ، كنت قد تراسلت مع راندولف الرابع مرتين ، ودعاني إلى العشاء في منزله وأضاف: "إذا كنت تفكر في إحضار شراب فأنا أفضّل مارغو". أرسلت اقتراحي المقابل: "أنا نباتي ، وإذا كانت هذه مشكلة ، يمكن أن أزورك لتناول القهوة". قرّرت أن هذا الرجل يعجبني حين أجاب: "سأُجري التغييرات الضرورية في قائمة الطعام ، لكن عقاباً لك يمكنك إحضار قاروتي مارغو".

عند مفترق ريتشموند قال إد: "هل يحتمل أن يكون مشروع رواية بوليسية سبب زيارتك إلى فيرجينيا ؟".

"هل ابتكار نظريات مؤامرة ميزة معتادة لسائق الليموزين في واشنطن العاصمة ؟".

"حسناً ، تذكرت فقط أن إدغار ألان بو كان طالباً في جامعة فيرجينيا يا سيدي".

ذكّرتني ملحوظته عن بو برواية سلجوق ألتون قبل سنوات عديدة. ورغم توصية أوجينيو ، لم أكن قد قرأت قط الكتاب الذي استقى عنوانه من البيت الأول في قصيدة بو العاطفية. لو كان أسكاريس موجوداً لقال: "تحيّز يمر عبر منخل ، يا صاحب الجلالة ، هو علامة النبل".

á á á

أعجبني شفق نيويورك دائماً. والشفق هو ساعة استسلام المدينة للوقت ، ولا يمكن تخيل عدم وجود قصيدة واحدة تحتفي به. كنت في الطابق الرابع من فندق فورسيزنز أشاهد الطيور في سنترال بارك ، وحاولت التفكير في فيلم صُوّر في نيويورك لم يظهر فيه

المتنزه. استمتعت إلى حدّ ما بهدوء الفندق ، وبعد احتساء كأسي شراب خرجت إلى تقاطع لكسينغتون ؛ الجادة الأكثر ازدحاماً في المدينة ، لكنني شعرت بالحزن تجاهها ، وتابعت رغم هذا السير حتى أدركت أنني أقرأ قصيدة كفافي "في انتظار البرابرة" من الخاتمة إلى البداية. استدرت يميناً عند جادة بارك لأجد متجر الشراب الموصى به من قبل الفندق ، وأضافت البائعة التي بدت متزمّتة أهمية مبجّلة لما كانت تبيعه ، وتحمّلتُ أسلوب بيعها المتكلّف واخترت قارورتين من ماركة معينة ؛ لأن تكلفة الواحدة 150 دولاراً.

كان سائق سيارة الأجرة المنهك من بنغلاديش ، وأفزعته بقولي "السلام عليكم" ، ثم زوّدته بالعنوان في شارع مورتون. في آب تبدو شوارع نيويورك سمراء مصفرّة على نحو بهيج. وعندما تذهب جنوباً ، تبدو البلدات مثل حرباء تصبح أجمل كلما صغرت. تتمتع شقة راندولف الرابع الصغيرة بمظهر بسيط ينسجم مع الجو البوهيمي للشارع أدناها ، وأحدث كتاب في مكتبته قد يكون رواية إرنست همنغواي. ظننت أن الأعمال البشعة على جدرانه وسجاجيد الصلاة المزينة بنقوش هندسية على الأرضية تتمنّى سراً أن تتبادل أماكنها.

يتصف راندولف الرابع بشعر أشيب ، ووجنتين ورديتين ، ومقدار كبير من الوزن الزائد. وبدا أنه يتحدّى العالم بابتسامة دائمة على وجهه. منعت نفسي من الضحك حين طلب مني أن أدعوه راندي ، وصفر حين فتح إحدى قارورتي مارغو ووضع قرصاً مدمجاً من العصر الجديد في المسجل. جلسنا بجانب بعضنا على الأريكة حين أوجز سيرة حياته في فقرة واحدة لي.

ارتحت أولاً ، ثم قلقت من عدم ذكره شبهي الشديد بأب.ي. كانت أسرته قديمة في شيكاغو ، وقد فقد جده كل شيء في الانهيار المالي عام 1929 ، ووالده عازف كمان لم يجد عملاً فأغرق نفسه في بحيره ميتشيغان حين كان راندي في الرابعة. وفي السنة التالية ، تزوجت أمه طبيب أسنان من بورتوريكو وانتقلت إلى سان خوان ، في حين أحضرت الجدة راندي إلى ريتشموند. نقل بصره إلى الأرضية ، وأخبرني أنه وأب.ي قد تشاطرا شقة لمدة ثلاثة أعوام في الجامعة ، وبقي متزوجاً بامرأة من أصل أرمني حتى تعلّم الطهي ؛ خمسة شهور. بدا راندي سعيداً بحياة كوّنها الأدب واليوغا.

وعندما حان دوري ، خططت بكسب ثقته بتلخيص حياتي بصراحة ، باستثناء تفصيل نومو. قلت إنني في الولايات المتحدة من أجل اجتماع عمل ، وأردت معرفة ما يمكن معرفته عن أب.ي ، وأحاول لقاء أي أقرباء لا يزالون موجودين هناك.

كنت أقترب من الخاتمة حين جاءت الدعوة إلى العشاء وفقدت شهيتي ، لكن قائمة الطعام التي تشمل سلطة الجرجير مع الجوز ، وحساء الطماطم البارد بالريحان ، والأرز بالزعفران ، وحلوى البودنغ مع المثلجات بدت مثالية تقريباً. وعندما شجّعني راندي على الكلام وملأ مراراً كأسي بالشراب ، أدركت أنه يستعد لتقديم مونولوج خاص. وعندما أحضر لي كأس شاي أخضر بعد العشاء ، لم يكن وجهه يُظهر شيئاً.

كانت عبارة "لم أعرف أبداً من أين جاء أبوك" جملة افتتاحية مغرية كفاية ، "لكن ، عندما عاد جدك الرقيب أول باتريك إلى الديار من الحرب الكورية ، وتقاعد مستفيداً من معونة إعاقة ، انتقلت الأسرة إلى سانتا تريزا في كاليفورنيا. كانت جدتك - لقد نسيت اسمها - سيدة منزل مهاجرة ، وإيما شقيقة بول أصغر منه بستة أعوام ، وأرادت أن تصبح ممرضة أو راهبة. قضيت مرة عطلة الشكر مع آل هاكيت ، وبدا لي أن المنزل مغلّف بجو من الحزن السرمدي ، والجد يجعل باقي أفراد الأسرة يدفعون ثمن الظلم الذي وقع عليه.

كان بول هاكيت مثقلاً بالهموم دائماً ؛ لا أعرف طريقة أخرى لأصفه بها. بدا مثل شخص أُرغم على أن يكبر فجأة من دون أن يعيش أفراح الطفولة والشباب ، ولهذا السبب على الأرجح عامله زملاؤه على أنه أكبر منهم. كان ذكياً وصموتاً ، وكنت واثقاً بأن هدفه السيطرة على الماضي كما يسيطر على الحاضر. رغم تمتّعه بموهبة خاصة في العلوم ، اختار دراسة التاريخ. وعندما لم يكن يحلُّ ألغازاً رياضية ، كان يقوم بتفكيك رموز معادلات ، ولم يكن يبعد أنفه أبداً عن الأطالس التاريخية التي يجدها في المكتبة. وقد شبّه خريطتي اليونان وإيطاليا بتمثالين تجريديين ، وخريطة تركيا بكتلة غيوم تكاد ترتفع. لم نختلف أبداً ، ولكننا لم نصبح صديقين حميمين أيضاً. وكان يختفي أحياناً يوماً أو اثنين من دون أن يخبر أحداً عن المكان الذي يقصده. علّم طلاباً أجانب ، وغازل فتيات آسيويات ، ولم أُدهش لدى سماعي أنه قد تزوج تركية. وفي عام إنهاء تخرّجنا عرفت مصادفة أنه قد حظي بمنحة لمتابعة

الدراسة في معهد حكومي.

وكالة الاستخبارات الأكثر اهتماماً بوسائل الإعلام - وكبش الفداء الحكومي أيضاً- هي سي-آي-إيه. سمعت بعد أعوام أيضاً عن دي-آي-إيه ، وآي-إن-آر ، وإن-آي-أو ، وإن-آر-أو ووكالات صغيرة غريبة أخرى ، ولا يفعل عملاء النخبة في تلك الأماكن شيئاً على الأرجح باستثناء قراءة التقارير وكتابتها. لم يكن بمقدور والدك الكشف عن الوكالة التي ينتمي إليها ، وبعد إنهائه التخرّج ، عمل خمسة أعوام في مكتب مرتبط بوزارة الخارجية ، ثم ظاهرياً على الأقل ، تقاعد وأصبح ممثّل الشركة في إسطنبول ، وفي الواقع ، لقد أُرسل على الأرجح إلى الخطوط الأمامية بعد إنهاء تعليمه في القاعدة. بأي حال ، كان سعيداً لأنه سيعيش في المركز العتيق لبيزنطة وسيسافر في أرجاء الشرق الأوسط ، وبعد ذلك اختُصرت مراسلاتنا إلى بطاقات نتبادلها في المناسبات.

التقينا بعد صيفين في نيويورك ، وكان قد تغيّر تماماً ، فصار قلقه أقل وضوحاً ، وثقته بنفسه أكبر ، وبدا متعباً وإنما سعيداً. ازداد فضولي من ثيابه غالية الثمن وساعته الذهبية ، وتخيّلت أنه أراد تقديم صورة مثل "قد أتلقى برقية في أي لحظة تستدعيني إلى اجتماع مهم في واشنطن". عندما افترقنا ، ورغم أنني كنت مستعداً لشيء مهم مثل "الحياة أكثر تعقيداً مما تبدو عليه من الحرم الجامعي" ، لم يتجاوز التعبير عن الأسف لعدم دعوتي إلى إسطنبول أكثر من بضعة أيام.

لم نرَ بعضنا مجدداً أبداً ، لكننا تبادلنا الرسائل مرة أو اثنتين. وحتى لا أخوض في التفاصيل ، بدا واضحاً من إعلانه الأمر أن زواجه لن يستمر. في آخر بطاقة بريدية منه ، نقل لي نبأ ساراً عن ولادتك ، وأضاف أن أمك قد منحتك اسماً تركياً ، لكنه سيدعوك أدريان. كانت الشخصية المفضّلة لديه دائماً هي الإمبراطور الروماني أدريان.

لم أسمع من بول هاكيت مجدداً أبداً ، ولم أُدهش في الواقع من انفراط عقد صداقتنا. مضت سبعة أعوام ، وكنت في تشارلوتسفيل من أجل لم شمل الصف في الذكرى الخامسة عشرة لإنهاء تخرّجنا ، وأقسم زميل لنا من كوريا الجنوبية يدعى يون إنه قد التقى بول مصادفة في تورنتو قبل شهرين ، وقال إنه رآه ملتحياً ، ويقف في وسط الشارع ويصرخ على

امرأة شابة وجميلة معه ، لكن تلك الظروف جعلته يتردد في المشي إليه وإلقاء التحية عليه. يمكن اعتبار يون أحد أصدقائه المقرّبين ، لذا من غير المرجّح أن يكون مخطئاً.

انقضت سبعة أعوام أخرى ، وقرأت هذه المرة في مجلة الخريجين أن بول قد توفي في حادث سيارة. قالت سيرة موجزة جداً أنه بعد مغادرته قطاع وسائل الإعلام حصل على دكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط من مكغيل ، وكان يدرّس في جامعة في السهول الكندية ، وفي جزء "من يعيلهم" لم يكن هناك إلا اسم امرأة أنغلو-أمريكية.

عندما قرأت النبأ ، خطر لي أنه قد عاش أربعة وأربعين عاماً مستمتعاً بها قدر الإمكان ، بطريقته الخاصة. كان والدك رجلاً يستحق اقتفاء أثره ، وأظن أنك يجب أن تسافر جواً إلى سانتا تريزا في أول فرصة تسنح لك. ستكون عمتك في الثامنة والخمسين الآن إن كانت لا تزال حية ، وحتى إذا انتقلت فلن تكون معرفة المكان الذي ذهبت إليه أمراً صعباً. عندما كنت هناك ، بدت مجرد بلدة هادئة يقطنها 40,000 نسمة ، وبدا بول وإيما متعلّقين تماماً ببعضهما بعضاً...".

قرّرت ألا أعرض على راندي الصورتين اللتين قد أحضرتهما معي حين سمعت عن "الوكالات السرية" في ماضي أبـي ، وفكّرت أنني قد أسأل عمتي (؟) إيما عن خط اليد المبهم. ودّعنا بعضنا ، وأخبرته أنني سأذهب إلى سانتا تريزا في اليوم التالي ، وأضفت أنني سأكون سعيداً باستضافته إذا جاء يوماً إلى إسطنبول ؛ لكنني شعرت بوخزة ندم حين قلت هذا.

تحسّن مزاجي حين مشيت نحو الجادة السابعة ، وعندما تجاوزت مطعماً يونانياً منعزلاً اتصلت بأسكاريس في إسطنبول عبر هاتفي الخلوي ، وعبّر عن ارتياحه لدى سماعه أنني سأعود بعد أسبوع على الأكثر. جعلته يسجّل بالتفصيل صفات الفتاتين الأمريكيتين الجنوبيتين اللتين أردت منه إرسالهما إلى فندقي بعد ساعة ونصف.

á á á

لم تعجبني لوس أنجلوس أيضاً حين رأيتها أول مرة ، وبدا لي أن مخططي المدينة نسوا وضع مركز لها ، ولا أظن أن شاعراً من الدرجة الأولى قد خرج منها. لتفادي السياح

السطحيين والحضريين المتباهين بأنفسهم، لم أغادر فورسيزنز في بيفرلي هيلز إلا نادراً. ومنعزلاً في الردهة، راقبت توافد أشخاص أثرياء، ثم جلست إلى المشرب ورفضت التزحزح من مكاني قبل أن أقرأ الكتاب الأخير لجون أشبري بلد دنيوي، من الغلاف إلى الغلاف. أخبرتني النادلة التي أحضرت إلي الشراب أربع مرات أنها تدرس الأدب في كلية محلية في المساء، وأسرّت لي أن هذه هي المرة الأولى على الإطلاق التي ترى فيها كتاباً لهذا الأستاذ في الشعر الأمريكي بين يدي نزيل. تأثرت بقولها، ولهذا عندما أنهيت المجلّد الضئيل وضعت ورقة مئة دولار فيه وتركته إكرامية لمن حملت أكواب.ي.

سألت في صباح اليوم التالي في محطة يونيون عن تذكرة درجة أولى على متن القطار إلى سانتا تريزا. كانت امرأة ريّانة تسلّم التذاكر مثل الأجور إلى العمّال الكادحين، وبدت مرعبة. لم تسألني لماذا أريد تذكرة درجة أولى لرحلة تستغرق ساعتين بالقطار فحسب، بل ثبّتت بصرها بعينيها الجاحظتين المتوعدتين علي حتى تلقت جواباً.

قلت: "وهل أمرك رئيسك أن تطرحي خاصة هذا السؤال؟". انفجرت ضحكاً، وثدياها الضخمان يرتفعان ويهبطان مثل ثقلين.

كنا أربعة في العربة، وذكّرتني الأم التي بقيت تطلب من ابنها الصغير التوقف عن دس إصبعه في أنفه بأيام طفولتي. وفقاً لجدتي، كنت كلما ضُبطت وأنا أفعل هذا أقول: "لا أدسُّ إصبعي في أنفي، وإنما أُخرج المخاط".

كان المحيط الهادئ إلى يسارنا وجبال سيرا مادري إلى يميننا، لكن بعد مرور بعض الوقت أضحت الرحلة مملة. توقفنا في محطات تحمل أسماء جميلة مثل أوليفدادو وبيرديدو، وفكّرت في اسمي الأوسط المحرّم كنسياً؛ وقد عرفت هذا قبل يومين فقط، إلى جانب الصعوبة في لفظ اسم من خمسة حروف، وابتسمت، لكن ما جعلني أضحك بصوتٍ عالٍ كان ما قد تشرّفت أكثر وكالة مغمورة على وجه الأرض بإسباغه علي. كانت جدتي تعدُّ روح دعابتي الغريبة محبّبة، وتقول: "عندما يكبر هذا الفتى سيصبح مهرجاً، لكنه لن يجيد ذلك أيضاً".

بدت محطة القطار في سانتا تريزا مثل أثرٍ من أيام مجد البلدة. وخرج ركّاب القطار، ربما

احتراماً للمبنى القديم ، من دون تعجّل. انتهز خوانيتو ؛ السائق العجوز لسيارة الأجرة ، أول فرصة ليذكر أنه في الثانية والسبعين من عمره ، وبدا واضحاً أنني قد فطرت قلبه حين لم أقل: "لا تبدو بمثل هذا العمر". وعندما أخبرته أن وجهتي هي فندق إيدجواتر ، ردَّ: "لديك ساعتان ونصف الساعة قبل أن تستلم غرفتك ، هل تريد القيام برحلة شرقية ؟". أنا واثق أنه كان يقدّم العرض نفسه لكل زبون يصل على متن قطار 11:33 وربما لم يتلقَ الجواب "لا" أبداً.

بدأنا رحلتنا إلى شاطئ لودلو ، وبدت أسماء شوارع تلك البلدة التي يقطنها 85,000 نسمة موزّعة بالتساوي بين اللغتين الإسبانية والإنكليزية ، وكنت أعرف فن العمارة الإسباني القديم للمباني العامة من أفلام رعاة بقر. عاش متقاعدون أثرياء في فيلات إنكليزية فيكتورية ، ومنحت أشجار نخيل وجهنّمية المكان فتنة شبيهة بلوحة زيتية. لم يكن أحد في عجلة من أمره ، وبدا أنهم ينتمون إلى منطقة توقيت أكثر تساهلاً من لوس أنجلوس ؛ وربما بسبب الرغبة في عدم تفويت الحفلة الموسيقية التي تقدّمها مجموعة نغمات وأمواج ملونة من المحيط ، يطبق صمت كئيب على سانتا تريزا. بعد وقت قصير بدأت أشعر بالنفور من مركز التسوّق الذي يبدو مثل ملتجأ من غارات جوية وشوارع مقفرة تخترق جادة كابانا ، وتمتد على طول الساحل مثل سهام. كانت تلك البلدة الخاوية بجمال بطاقة بريدية يمكن أن تصبح بسهولة موقع مسرح بالحجم الطبيعي ، وفي تلك المراكز المالية والفيلات المهجورة يمكن إبداع حبكات روايات بوليسية عديدة ، تستطيع شخصياتها ري تربة تاريخ المدينة الميتة في فصل قصير.

كان إيدجواتر يشبه قلعة إقطاعية أكثر من فندق مترف يضم مئتي غرفة. وإضافة إلى أشجار النخيل الضخمة في الحديقة ، هناك أشجار أخرى قصيرة في المطعم. وبدا النزلاء الموجودون في الردهة الفسيحة كما لو أنهم يتآمرون ضد عازف البيانو بالتكلم جميعاً في الوقت نفسه. أخذت مفتاحي وصعدت إلى غرفتي في الطابق الثاني التي تطل على المحيط ، وفتحت النافذة وانتظرت. رغم الهواء العليل الذي يرافق صوت الأمواج الخافت ، كان هناك شيء مفقود في المشهد ، واستمتعت لبعض الوقت بذلك الإحساس من دون أن أعرف

طبيعته.

وفقاً لدليل الهاتف والإنترنت وجدت خمسة مواقع إقامة لهاكيت. وكنت سأُدهش تماماً إن كان بينها اسما أبي أو جدي. إضافة إلى هذا، لم يكن احتمال قرابتنا مع هاكيت هؤلاء وارداً؛ لأن جدي لم يأتِ من سانتا تريزا وفقاً لراندي. الأهم من كل شيء آخر، لن يكون أمراً حكيماً على الإطلاق القيام بمسح شامل للبلدة مع وجود عميل نومو يلاحقني. ولم تخطر أي بدائل في ذهني؛ باستثناء التحديق إلى المحيط من النافذة المفتوحة. اتصلت بخدمة الغرف لأطلب شطيرة نباتية وكأساً من عصير الليمون الهندي. وأظن أنني بعد البحث في الثلاجة الصغيرة وتناول القوارير الصغيرة من الشراب في رشفة أو اثنتين، خلدت إلى النوم متوقعاً حلماً غريباً. عند الساعة 3:22 استيقظت من دون خطة، فنزلت إلى الردهة، مصطحباً معي آخر كتاب - أفرنو - للشاعرة لويز غلوك. كان المكان أكثر هدوءاً ممّا كان عليه من قبل، وهناك موسيقي أكثر تباهياً يجلس إلى البيانو، في منتصف العقد السادس من عمره، ويبدو ثملاً وهو يحرّك يديه في دوائر، ويضرب المفاتيح ببطء وينشد أغاني حزن.

لفت الرجل البدين بالبزة الرسمية انتباهي، ذاك الذي يساعد بحماسة النزلاء صعبي الإرضاء، مستخدماً لغة الجسد مثل شرطي نشيط يصدر توجيهاته، ويضع علامات على خرائطهم السياحية، ويكتب عناوين على قصاصات ورق صغيرة. عندما انتهى من آخر زوجين عجوزين اقتربت من طاولته، ورأيت أن اللوحة الاسمية على جيب سترته تقول "جيسوس"، فحاولت ألا أبتسم. قبل أن يستطيع الرجل الورع قول "كيف يمكنني مساعدتك؟"، وضعت ورقة عشرين دولاراً مجعدة أمامه، لكنه امتنع عن النظر إليها.

"برأيك يا جيسوس، ما هي أفضل طريقة لاقتفاء أثر قريب لي عاش هنا قبل ثلاثين عاماً؟". كنت حريصاً على لفظ الحرف الأول من اسمه مشدّداً.

تابع جيسوس تجاهل ورقة العشرين دولاراً حين تحرّكت يده اليسرى نحو الهاتف، وتكلم مع شخص بنبرة توبيخ ثم أعطاني اسماً ورقم هاتف على ورقة.

"كينزي ميلهون هي طليقة دانيال واد عازف البيانو لدينا، وقد قيل ذات مرة إنها أفضل تحرية خاصة معروفة في سانتا تريزا. تعمل هذه الأيام مستشارة أمن لشركات

التمويل ، وإذا لم تستطع مساعدتك ، فسترشدك إلى شخص يفعل هذا".

دقّقت في رقم الهاتف ؛ وكأنني أنظر إلى حجة غياب ، وعندما رفعت رأسي لأشكر جيسوس ، كان يعطي عنوان ملعب الغولف للرجل ممتلئ الجسم خلفي ، ولا أثر لورقة العشرين دولاراً. عدت إلى غرفتي لأتصل بمكتب كين.زي ميلهون ، وبخلاف الروايات والأفلام البوليسية ، لم يكن حظي سعيداً ؛ فقد طلبت الرقم سبع مرات ولم أتلقَّ رداً. تركت رسالة مهذبة ، وركّزت اهتمامي على آخر المغامرات التلفازية لآل سمبسون البسطاء ، وكاد الملل يتملّكني حين اتصلت السيدة ميلهون التي بدت واثقة بنفسها وذات صوت مثير ، ولاحظت أنني أغلق أزرار قميصي. أوجزت طلب.ي بجملة "أبحث عن العمة إيما هاكيت" ، فانفجرت ضحكة كبيرة عبر الهاتف.

ردّت: "آسفة أيها الشاب" ، فشعرتُ بمزيدٍ من الراحة. "لكن حلّ هذه القضية سيمنحني سمعة أسرع محققة في تاريخ الروايات البوليسية ، ويضعني في كتاب غينيس للأرقام القياسية العالمية. كانت إيما هاكيت زميلتي منذ المدرسة الابتدائية حتى الثانوية ، وفقدنا الاتصال ببعضنا حين انتقلت إلى سان فرانسيسكو قبل ثلاثين عاماً ، لكنني أعرف أنها تدير مدرسة تمريض هناك. سأحصل على رقم هاتفها وعنوانها من صديقة مشتركة. وفي هذه الأثناء ، أودُّ التعبير عن أسفي لموت بول ؛ فقد كان عبقرياً في نظر بعضنا ، ومجنوناً في نظر البعض الآخر.

اسمع ، لنلتقِ عند الساعة 7:30 في ردهة إيدجواتر. إذا كنت ابن أخ إيما حقاً ، فسأخبرك بمكانها ، وبالمقابل سأتوقع وجبة مثالية في مطعم الفندق".

قبل الترحيب بكين.زي ميلهوني راقبتها من بعيد ، وبدا لي أن جين.زها الأزرق البالي وقميصها الوردي الباهت من دون ردنين لم يكونا كافيين ، فهي لم تبذل أي جهد لإخفاء الشيب في شعرها. كان أنفها دقيقاً ومرتفعاً ، وعيناها مرحتين ، وتمشي مثل عارضة أزياء متقاعدة رغم مظهرها المسن ، وبدت أكبر من خمسين عاماً بقليل ؛ وإنما لا تهتم بذلك ، وقد دخلت هذه المرأة البسيطة والجذّابة الردهة المترفة مثل كرة ضوء. تحرّكت نحو المحققة ، وأصفّر لها حيث تنتظر ، محاولاً تخيّلها في أيام شبابها.

عندما رأتني رفعت يدها اليمنى وقالت: "لا حاجة إلى إظهار جواز سفرك، أنت هاكيت". مشينا إلى المطعم الذي بدا مثل قصر، وأقنعت كين‌زي النادل أن يطلب من الطاهي سلطة غير موجودة على قائمة الطعام، وطلبت قاروس بحر تشيلي معها. تركت انتقاء الشراب لي، وراقبتني مثل عالم نفس يتمتع بروح دعابة، وهي تفكّر - كما أفترض - بموجز تقريرها.

"كان جدك بطل حرب، واستمتع على نحو خاص بتقاعده، لكنه عامل أسرته مثل أسرى حرب". ربما صيغت هذه الجملة سلفاً. "كانت جدتك مارا صربية كما أظن. كانت مهاجرة وامرأة هادئة وإنما حصيفة. كنا شهوداً خجولين على كفاحها المستمر لحماية ولديها من ن‌زوات زوجها الفاشي.

كان والدك الطالب الأمهر عادة في المدرسة، وإنما كان غريباً قليلاً. ولم يكن يذهب أبداً إلى الحفلات، فضلاً عن حبّه مغازلة عاملات مهاجرات أكبر منه سناً. في أثناء عطلات الصيف، كان يذهب ويزور آثار المايا والأزتك أو يدفن نفسه في التاريخ الشعبي، ويتصرف وكأنه متفوق على مجموعته العمرية. حاول باستمرار منح انطباع في حلقته بأنه شخصية غامضة، وكنت قد راهنت بالمال على أن بول سيصبح أكاديمياً كسولاً.

من جهة أخرى،كانت إيما صديقة طيبة القلب ونشيطة وناضجة وذكية، ولم تكن تتذمر أبداً. أبلت حسناً في المدرسة الثانوية - ساعدها شقيقها - وحصلت على منحة من ولاية سان فرانسيسكو. وفي صفها الثالث هناك، جُنّت أمها وذهبت إلى فلوريدا مع ميكانيكي كوري أصغر منها بعشرين عاماً. أُصيب والدها بجلطة جزئية، فأوقفت دراستها واعتنت بالرجل سيئ الطباع، وعندما توفي بعد عامين، باعوا المن‌زل ليسدّدوا قرضاً مصرفياً. بقي بعض المال فأنهت عمتك دراستها به، واتخذت لنفسها مهنة أكاديمية، وتزوجت أكاديمياً أرملاً حين اقتربت من الأربعين، وبحلول ذلك الوقت كنت قد طلّقت زوجي الثاني. أخبرتك عبر الهاتف أن عمتك ترأس قسماً في مدرسة تمريض سان فرانسيسكو. وقبل أن نغادر، سأعطيك بعض الأرقام الهاتفية والعناوين التي حصلت عليها من صديقة لا تزال تتواصل معها.

بقيت إيما على تواصل مع أصدقائها القدامى في سانتا تريزا لبعض الوقت ، وكنت كلما رأيتها أظن أنها تحاول جاهدة أن تتصرف مثل سيدة أعمال لتفادي الكشف عن عالمها الداخلي ، لكنني لم أفهم أبداً سبب رغبتها في إخفاء نبأ وفاة شقيقها. أذهب أحياناً إلى سان فرانسيسكو في عمل ، لكنني أكون شاكرة عادة حين أعود إلى هنا سالمة ، ولا يتسنّى لي الوقت لزيارة أصدقاء قدامى.

أيها الشاب ، بدلاً من خاتمة طويلة ومملة دعني أخبرك شيئاً واحداً فقط: أنت محظوظ لأن لديك عمّة مثلها ، ولن تشعر بالأسف حين تلتقيها".

اعترفت كين‌زي بأنها تحب شراب وادي نابا الذي نشربه ، لذا جعلتهم يغلّفون قارورتين هدية لها ومشينا إلى سيارتها ؛ فولكسفاغن عمرها عشرون سنة ، وكنت واثقاً أن سيارتها السابقة كانت نسخة عمرها ثلاثون عاماً من الطراز نفسه. قرصت وجنتي ، وأعطتني بطاقتها التي تحمل عنوان إيما هاكيت غرين مخربشاً على القفا ، ولم أعرف لماذا لم أراقب سيارتها وهي تقعقع حين خرجت من موقف السيارات. شعرت بخواء غريب بعد مغادرتها ، لكن عندما استدرت إلى نسيم المحيط العليل أحسست بالراحة ؛ وكأنني قد حللت معادلة شائكة. كانت سانتا تريزا مسرحاً ضخماً منصوباً لمشاهد كين‌زي ميلهون.

عندما عدت إلى الردهة ، اقتربت مني فتاة رشيقة بتنورة قصيرة تحمل رسالة برقية: "المرحاض في هذا الطابق معطّل ، هل يمكنني استخدام الحمام الموجود في غرفتك ؟".

قلت: "إذا كانت لديك صديقة تعاني المشكلة ذاتها فبإمكاني مساعدتها أيضاً".

لاحقاً ، بعد صرف المرأتين المكلفتين ، ضغطت أنفي على اللوح الزجاجي ، وأغمضت عينيَّ لأكثّف ملذّات منتصف الليل. خطر لي ما كان مفقوداً في هذه البطاقة البريدية ثلاثية الأبعاد: شذا الحمضيات ؟

á á á

سان فرانسيسكو! أعلنت من النظرة الأولى أنها بلدتي المفضّلة في الولايات المتحدة (تخلّيت تدريجياً عن عادة جمع حريم مدن ، والآن لم تعد توجد إلا مدينة واحدة على الأرض تجعل قلبي يخفق ، وهي ليست إسطنبول).

ابتهجت لحظة دخولي جناحي في الطابق التاسع في فورسيزنز، وتساءلت متى سأنال كفايتي من هذا الماراثون الذي أنتقل فيه من فندق مترف إلى التالي. كانت المساحة الخضراء التي ظهرت واضحة حين اقتربت من النافذة تدعى حدائق يربا بونا، وقد اعتدت في أثناء دراستي على الذهاب إلى المتنزه والجلوس على المقعد الخشبي الأقرب إلى البوابة؛ وكأنني حارس متأهب. أحببت مشاهدة ابتسامة الأطفال الصغار وسعادتهم حين تقودهم خطواتهم المترددة الصغيرة على العشب. ورغم تشوّقي - "هل يدل هذا على عجزي عن أن أصبح أباً؟" - لم أتعب أبداً من هذه التسلية. وإذا بدأ أحد الأطفال بالصراخ فأنا أتألم حتى الصميم.

طلبت من خدمة الغرف سلطة وشطيرة وعصير ليمون هندي، وقد جُلب طلبي مع شعلة. لا بد أنهم كانوا يكافئونني على اختيار أسوأ قائمة طعام في تاريخ الفندق.

"3333 ب جادة جيري، مدرسة فلورنس نايتنجل للتمريض". سمعت نبرة ساخرة في صوتي حين قرأت العنوان، وواساني سائق سيارة الأجرة قائلاً: "يمكن أن تكون الأمور أسوأ، فقد رأيت 8300 جيري".

من أجل عدم بدء محادثة لا طائل منها لم أسأل عن سبب وجود شارع طويل ومن دون جادات في مدينة يقطنها 800,000 نسمة. بدا المستشفى مثل حوت ميت، ومدرسة التمريض ملحقة به، وهي جزء من مؤسسة غير ربحية. كان يقف أمام بوابة المستشفى الرئيسة تمثال نصفي للسيدة العجوز المؤسسة، في حين ينتصب أمام مدرسة التمريض التي تبدو مثل مركز رشاقة أحد تماثيل فلورنس نايتنجل. أردت التصديق أن التمثالين يجسّدان الجوهر الشخصي للشخصين اللذين يمثّلانهما، ولم أستطع تجاوز الممرضة الرمز من دون أن أستقيم في مشيتي، وانتظمت قدماي بنحوٍ غير واعٍ في خطوات قصيرة.

كانت هناك لوحتا إعلانات في الردهة؛ على الأولى قَسَم مهنة التمريض، وعلى الثانية ملحوظة تطلب بتهذيب هبات، وتلفت الانتباه إلى خفض الضرائب المرتبط بها. كان أمام مكتب المعلومات حارس أسود قد ولد ليلعب دور عُطيل، وأدركت أنني لن أتلقى توبيخاً إن اقتربت منه باحترام يُعامل به قاضٍ عادة. ونظراً إلى أنها لا تزال عطلة الصيف، لم تكن

عمتي في المدرسة. عرفت مصادفة أن أب حارس الأمن قد خدم في تركيا في الستينيات في محطة رادار كانت آنذاك قاعدة أمريكية، وزوّدني بعنوان إيما هاكيت غرين ورقم هاتفها من دون تردد حين أوضحت قرابتها التركية. كنت أحمل ورقة خمسين دولاراً بيدي اليمنى تحسباً فقط، ودُهش كلانا لرؤية أنني وضعتها على الطرف الأيسر من النضد، فدفع الورقة بعيداً بقفا يده، ورميت نفسي خارج المكان وأنا أعتذر بشدّة.

كان سائق سيارتي يصغي إلى موسيقى كلاسيكية، ولم أُعر تباهيه اهتماماً، وعندما قلت "مكتبة سيتي لايتس"، أبلغني أنها تخص لورنس فرلنغيتي؛ آخر شاعر من جيل بيت الذي قد بلغ آنذاك عامه التاسع والثمانين، ولفظ كلماته واحدة بعد أخرى ببطء؛ وكأن لديه راكباً شبه معوّق في السيارة. انطلقنا، وطلبت منه خفض صوت المذياع قائلاً: "إذا أحببت، يمكنني أن أقرأ إحدى قصائد الأستاذ لك". ومن دون انتظار جوابه بدأت بإلقاء قصيدة "راكبان في شاحنة القمامة، وجميلتان في مرسيدس".

تتمتع المكتبة البالغ عمرها خمسين عاماً بسحر معين، وكان العمل النثري الوحيد بين عشرات الكتب التي حملتها إلى أمين الصندوق هو سيرة حياة هادريان. لم أستطع إرغام نفسي على تصحيح ظنون فتاة الحسابات الثرثارة التي ظنّت أنني مختص بالأدب.

حتى إذا لم يكن المشرب المجاور للمكتبة المكان المفضل لجاك كيرواك، إلا أن اسمه الجميل - فيسوفيو - قد أغراني. وبدا أن الظلمة الشاملة لهذا المختلى المخيف لم تتغير في الأعوام الخمسين الماضية. عندما نظر البوهيميون المسنّون الثلاثة الجالسون هناك نحوي مستفسرين، شعرت بأنني ملزم بطلب موافقتهم وتحيتهم بإيماءة مني، ونظرت بحسد إلى الشعراء الناشئين الجالسين إلى الطاولات المزدحمة خلفنا، بلحاهم ونظاراتهم السميكة وحبيباتهم رثّات المظهر. بعد كأسي الثانية من الشراب اتصلت بعمتي، وكان صوتها رقيقاً وإنما متعباً، واتفقنا على أن أقوم بإحضار الرزمة من كين‌زي ميلهون في اليوم التالي عند الساعة الثانية، وعندها سأبلغها بمفاجأتي وجهاً لوجه.

بعد أربع كؤوس تدبّرت أن أقف من دون تمايل، ومشيت على طول جادة كولومبوس، وتداخلت أرقام وكلمات ببعضها وغمرت ذهني، وتمنيت أن يجعلني السير أصحو.

هل تبعد كل ضاحية في العالم نصف ساعة عن مدينتها ؟

خشيت أن أنام في اللحظة التي أدوس بها ألامو ؛ مقاطعة الأثرياء الهادئة تلك. عندما أوقفت أشخاصاً في الشارع لأسأل عن مكان عنوان إيما ، تساءلت عن سكان الفيلات الرائعة ، وبدا أن النباتات الطبيعية التي تحيط بالشوارع المقفرة ترغب بالخروج من المشهد حال انتهاء التصوير. سألت بائع الصحف الذي تمتم: "الشارع المقابل لمركز التسوق الذي يبدو مثل ديناصور نائم". استمتعت قليلاً بطريق ستون فالي لافتقاره إلى لمعة البطاقة البريدية. ثم إن منازله لم تكن تشترك في منافسة مبهرجة. كُتب على صندوق البريد المعلّق على المنزل قبل الأخير: "إيما هـ. - ألبرت غرين" ، ورأيت حول الدار حديقة صغيرة ونيسان قديمة متوقفة أمام المرأب.

همست دعاءً بالعربية وقرعت جرس الباب. فُتح الباب فوراً لأجد نفسي أواجه عمتي لأوّل مرة. بدت إيما هاكيت غرين في الخامسة والستين تقريباً. وفشل القميص المتدلّي فوق جينزها في إخفاء الأرطال القليلة الإضافية. كانت ودودة ولطيفة بطريقة طبيعية جداً ، ولم تفاجئني رؤيتها تتراجع فزعاً خطوة إلى الخلف ، وتغطّي فمها وذقنها بيدها اليسرى (أنا أعسر أيضاً). كنت قد وقفت هناك ينتابني الأمل بأن تستعيد وجه شقيقها من الذاكرة وتتعرّفني ، ولم أستطع تحمّل ارتعاشها عندما حصل ذلك. على كل حال ، قلت: "بدلاً من رزمة أحضرت تحيات لك من كينزي ميلهون ، ومفاجأة مني. لأستخدم الاسم الذي لم أستخدمه أبداً ، أنا أدريان هاكيت".

تخيّلت أنها ستصرخ وتندفع لتلقي ذراعيها حولي ، لكنها في الواقع أدارت ظهرها واندفعت إلى الخارج وهي تنشج. وبعد وقت قصير ، تمالكت نفسها ؛ بالمحصلة ، لقد شهدت حياتها تطورات كثيرة قبل هذا. مسحت وجهها بمنديل ، وتأوّهت: "كنت أعرف هذا ، كنت أعرف هذا". ثم ألقت ذراعيها فعلاً حول عنقي. كانت غرفة معيشتها فسيحة ، لكنني شعرت أن الأثاث هناك لم يصطبغ ببهجة الحياة ، ولم تخفّف لوحات الطيور والفراشات المحلية المعلّقة على الجدار من كآبة الغرفة. كانت على الطاولة الصغيرة بجانب الكرسي الجلدي بذراعين الذي جلست عليه صورة مؤطرة لعمتي ، وزوجها الذي بدا أكبر

منها بخمسة عشر عاماً وفتاة صغيرة نحيلة. ظهر آل ؛ الأكاديمي المتقاعد مثل فزّاعة، وسُررت لأنه قد ذهب إلى سكرامنتو، في حين أن الفتاة الخجولة التي تنظر بارتياب إلى آلة التصوير هي ابنتهما المتبناة من التبت، وقد التقطت الصورة قبل تسعة أعوام حين جاءت للعيش معهما، وحملت اسمها الجديد فيرجينيا. كانت ابنة عمتي الفخرية طالبة مدرسة ثانوية آنذاك، وستعود إلى الديار قريباً من معسكر صيفي في كوستاريكا.

جاء الشاي الأخضر في كوب ضخم، وبدا واضحاً أن عمتي تستعد لمحادثة طويلة. تكلمت أولاً، وكانت تلك هي المرة الثالثة في خمسة أيام التي أضطر فيها إلى سرد سيرتي الذاتية وقد سئمت ذلك، وكلما أسهبت بالحديث، سبّبت لنفسي الملل. شعرت أنني مُلزم بطلب الصفح، فعدّدت كل الموانع التي قد فرضتها أمي على ذكرى أب.ي، وسمعت صوتي أعلى مما توقعت حين أعلنت: "لم أرَ أبداً صورته، فضلاً عن سطر من خط يده".

عندما حان دور عمتي، أخفضت بصرها إلى الأرضية في إشارة أنذرت بحديث مختصر ولبق.

"ربما أخبرتك كين.زي سلفاً أن حياتنا الأسرية لم تكن قائمة على الحب". أصبح صوتها أجشَ حين قالت هذا. "التقت أمي أب.ي في سينسيناتي حيث كانت تعمل في مشرب، ومن أجل المواطنية الأمريكية أقنعته بالزواج منها. أنت تعرف ما يعنيه هذا ؛ امرأة مسكينة اتخذت خياراً مريعاً في انتقاء ضحيتها. كان أب.ي موهوباً وإنما عصبيّاً، ومجداً وإنما سيئ الطالع، ويمكن القول إنه قد جُرح في الحرب الكورية بسبب معلومات غير دقيقة أساساً. لم يقبل أبداً إرغامه على التقاعد بسبب ما دعوه إعاقة بدنية، في حين مُنح قائده وساماً، وتحوّل إلى رجل غاضب وسكّير تقريباً. كان تعذيبنا هو تسليته الرئيسة ؛ وطبعاً أمي ضحيته الأولى، وأظن أن كل سانتا تريزا دُهشت لأنها قد تحمّلت ذلك وقتاً طويلاً قبل أن تفر أخيراً.

كافح بول جاهداً للحفاظ على أسرتنا، وساعدني في تجاوز تلك المدة بأقل ضرر ممكن. لم يكن طالباً نموذجياً فقط، وإنما في الوقت نفسه رجلاً صالحاً.

أنا واثقة بأنه حاول التعويض عن سمعة أبيه السيئة بنجاحه الأكاديمي، وحاول بول الانفتاح على الحياة بقراءة التاريخ في المكتبة العامة، وكما قال المبارزة مع الرياضيات. كان

كل فعل بؤس جديد من أبي عاملاً في مضاعفة مقاومة بول ، وظننت أنه سيصبح أكاديمياً ليبرالياً جيداً لأنه يحب الاستماع إلى الجاز.

شعر بسعادة مثل طفل حين حظي بوظيفة في إسطنبول ، ولم أُدهش حين تزوج فتاة إسطنبولية ، وإن لم تكن يونانية. أقاما احتفالاً مدنياً فقط بسبب مضايقات من أسرة أمك ، لكنهما جاءا إلى أمريكا في شهر عسلهما. لم أكن وزوجة أخي معجبتين ببعضنا ، ولم أجد وجهها أو طباعها سارّة ، وقال بول إنها شرقية نبيلة وغامضة ، وإنه من الطبيعي أن أفشل في استيعاب سموها.

لم يكن الشيء التالي الذي أثار الدهشة الطلاق ، وإنما سببه. إذا كان بول قد وجد حبيبة وتمكّن أخيراً من العثور على رفيقة روحه ، فإن السبب يُعزى إلى زوجته متقلّبة الأطوار ، وعندما وصل النبأ إلى الصحف فقد وظيفته. كانت موريال كندية ، وانتقلا إلى مونتريال ، وبعد قضاء وقت طويل للحصول على الدكتوراه هناك ، بدأ التدريس في جامعة سمعت اسمها أول مرة آنذاك.

توقفت مراسلاتنا بعد انتقال شقيقي إلى كندا ، ولم ألتقِ موريال إلا مرتين. كانت جميلة وساذجة ، وعاملت بول باحترام كبير ، ؛ وكأنه أعظم عالم في العالم. سمعت عن زواجهما بعد سنتين من عقده ، ولم يعانيا مشكلات مادية ، وقد استقال والدك من وظائفه غالباً ، وبقي أوقاتاً طويلة من دون حتى أن يبحث عن عمل آخر ، وبدا نزقاً دائماً ؛ وكأنه ينتظر نبأ سيئاً ولم يجرؤ أحد أن يسأله عن السبب. اتصلت موريال بي أول وآخر مرة لتنقل إلي نبأ وفاة زوجها ، وعرفت أنهما كانا يعيشان في فانكوفر ، وعندما همَّ بول بمغادرة مشرب ظهرت جيب فجأة وصدمته ثم اختفت. كان أخي يحتسي الشراب بين الحين والآخر ، لكنه لم يكن سكّيراً حقاً. وفي ليلة الحادثة ، تبين أنه احتسى الشراب مع رجل في منتصف العمر لا يعرفه أحد غيره ، وأن كلاً منهما غادر المشرب بمفرده.

كنت عزيزاً جداً على والدك يا أدريان ، ولجأت والدتك إلى خدعٍ كثيرةٍ لتمنع تعرّفكما إلى بعضكما. عندما أصبحت كبيراً كفاية لتخرج وتلعب في الشارع ، اعتاد أن يذهب ويراقبك من بعيد. وفي السنة الثانية من هذا ، أرسلت أمك رجالها لينهالوا عليه ضرباً مبرّحاً.

لقد احتفظ دائماً بصورك حين كنت طفلاً في محفظته ومنزله...".

عند تلك النقطة من مونولوجها وثبت وجلبت ألبوماً فيه صور لأبي ، وحتى لا أرى وجهه الحزين ، قلّبت الصفحات بسرعة. فجأة ، سقطت صورة سبعة-بخمسة بوصات ، وكان الرجل الذي يحاول الابتسام لآلة التصوير أبي ، والطفل الفزع الذي يمسك يده أنا. قرأت على قفا هذه الصورة التي التُقطت في أول ذكرى ميلاد لي:

عزيزتي إم ،

أدريان بلغ عامه الأول ، وبدأ السير قبل شهر. سيأتي ويزورك يوماً ما.

مع أطيب التحيات ،

ب.

كانت عمتي تستمتع بتعقيدات الموقف ، في حين شعرت بالذهول. إذا كان أبي هو الذي كتب حقاً تلك السطور ، فسأجد الجواب الذي أبحث عنه ، واكتشفت أن خط اليد متطابق مع ذاك الموجود على النسخ الفوتوغرافية. عرفت أنني ينبغي ألا أتسرّع في ابتكار نظريات مؤامرة ، ولم يكن هذا على الأرجح دليلاً كافياً لربط أبي مع نومو ، كما أخبرت نفسي.

لجعل عمتي سعيدة ، أخذت الصورة ، وودّعنا بعضنا بعضاً ، ووعدنا أن نلتقي مجدداً ؛ لكن أياً منا لم يصدّق هذا. انتظرتني سيارة أجرة أمام المنزل ، وعندما ركبتها ، خطر لي أن الرجال الذين هاجموا أبي في غلطة ربّما كانوا أيضاً عملاء سريين أرسلتهم نومو. شعرت أنني ينبغي أن أقدّم نفسي على نحو ملائم لهذه المنظمة التي قد تكون منقذي يوماً ما ، وجلادي في التالي.

قرأت السيرة الذاتية لهادريان على متن طائرتين نقلتاني من سان فرانسيسكو إلى نيويورك ، ومن نيويورك إلى إسطنبول. وإذا حذفت العامل الديني ، يمكن أن يصبح الرجل والفاتح خليلين حكما أعظم إمبراطوريتين في العالم مثل أستاذي شطرنج.

موافقة دوق البندقية ؛ إنريكو داندولو (1107[*]-1205) ، شرع جيش الصليبيين ، بعد بقائه في القسطنطينية عشرة شهور بدلاً من متابعة الطريق إلى مصر ، في نهب المدينة. لقد وصف مؤرخون - لاحظوا عنفهم البالغ - كيف تحوّل مقاتلون ورعون خرجوا في حملتهم الصليبية حباً بالرب إلى نهب منازل الفقراء ، وقتل الشباب والمسنين من دون استثناء. وفي نهاية اليوم الثالث ، أصبحت عاصمة العالم البالغ عمرها 900 عام أنقاضاً ، ودُمّر المجمّع الرائع الذي يدعى القصر العظيم تماماً.

ستترنّح الإمبراطورية اللاتينية الصورية التي أسّسها الصليبيون سبعة وخمسين عاماً ، حتى طردهم مايكل الثامن بالايولوجي ؛ مغتصب العرش البيزنطي في المنفى ، من القسطنطينية عام 1261. استقر بعد ذلك في قصر بلاشرني ، المشُيّد قبالة الأسوار بعيداً عن مركز المدينة ، ولأنّ القصر قد بُني في القرن الثاني عشر وأصبح آنذاك مقر إمبراطور ، أُعيد تخطيطه. دعاه العثمانيون قصر تكفور ؛ وهي تسمية ازدرائية لأن كلمة "تكفور" تعني إقطاعياً ، ولم تكن تلك طريقة ملائمة لمخاطبة إمبراطور بيزنطة.

تذكرت هذه التفاصيل حين مشيت على طول شارع دير خورا - مسجد كاري الآن - نحو أنقاض القصر ، وسُررت بهدوء الشارع ، لكنني أحجمت عن السؤال بشأن الموقع الدقيق لتراث أسرتنا الذي يعود تاريخه لنحو 800 سنة. لاحقاً في الصباح ، سمعت أولاً ديكاً ، ثم ثاقباً ضغطياً ، لكنني لم أرَ قُنَّ دجاج أو موقع بناء.

استمر اللحن الثنائي المرتجل حتى برزت أسوار القصر أمامي ، وصعدت طريقاً قصيرة قرب جادة خوجة ساكير ، خائفاً من تفويت علامة مهمة إلى الأحجية إذا تخطّيت أي جزء من الأسوار التي جعلتها عملية الترميم غير المتقنة تبدو مثل ثياب مرقّعة. لم تزعجني رؤية ذلك ، ورداً على هذا المشروع الهمجي ، أضحت الفراغات المتماثلة مراحيض وحفر قمامة ، وحوّل نجّار وبائع خضار فجوتين تبدوان مثل كهفين إلى مستودعين مؤقتين. تساءلت عمّن يدفع أجور الرجال ذوي الشوارب العاملين هناك. ورأيت أمام الأسوار متراساً من حاويات نفايات ، وعندما مررت بجانبها قفزت بعض قطط الشوارع منها وإليها مذعورة.

صعدت سلماً واهناً إلى أعلى الأسوار ، ولم يكن على قطعة الأرض بين تلك النقطة والطريق إي-5 إلا مبنى واحد فقط: قصر تكفور. كانت باقي المساحة مخصصة لحديقة أطفال ، وموقف سيارات ، وملاعب رياضية.

من ارتفاع ستين قدماً ، نظرت إلى الحركة على الطريق ، وتضخم طنين فيضان المركبات الآلية مثل جوقة ، ثم تراجع وكأنه قد اصطدم بحائل أمواج ، وكنت راضياً بالموسيقى ، وتابعت المشي بهدوء نحو القرن الذهبي لأرى القصر عن كثب. انعطفت الطريق العامة بالتوازي مع انعطاف الأسوار ، ورأيت بينهما متنزهاً يضم كشكاً يبدو مثل ثور ميت ، وبضع أشجار زيتون هزيلة تنمو أمامه ذكّرتني بأن شجرة الزيتون قد تعيش ألف عام ، وربما تكون تلك الأشجار التي تبدو مبجّلة قد شمّت الهواء نفسه الذي تنفّسه أسلافي. شاهدت حيث ينتهي المتنزه البوابة المؤدية إلى القصر ، عليها قضبان مثل السجن ولافتة تقول: "الترميم قائم ، ممنوع التعدّي". في الحقيقة ، لم يكن هناك ترميم قائم ، وكنت واثقاً بأن لا أحد يعرف متى سيبدأ مثل هذا العمل. من خارج القضبان ، بدا القصر للوهلة الأولى مثل هيكل عظمي لماموث. وعندما نظرت إلى الواجهة بإمعان أكبر ، لاحظت نوعاً من تناسق الزخرفة. أغمضت عينيَّ لأتخيل مدى روعته في أوج مجده ، لكن الصورة لم تدم أكثر من قصيدة تتكوّن من أربعة عشر بيتاً ، وعندما فتحتهما راعني منظر القصر.

تساءلت عن الساعات الأخيرة لقسطنطين الحادي عشر في القصر الذي أصبح الآن قاعدة لجيشٍ من الحمام ، وتابعت نزولي نحو القرن الذهبي حين بدأ أذان صلاة الظهر يصدح بانسجام من 3000 مسجد في المدينة. نمت آجام على تلك الأسوار المنهكة ، وبرزت أشجار صغيرة في الفجوات ، ولم يستطع التاريخ أو الطبيعة أن تتذمر من هذا التكافل. بُنيت مقبرة عثمانية صغيرة وإنما أنيقة بجانب شارع أغريكابي حيث تنتهي الأسوار ، وسجّلت ملحوظة لنفسي بأن أعود وأقرأ النقوش لاحقاً. وكانت سيارات وشاحنات تمر تحت القوس التي تقسم المقبرة إلى قسمين ، وجعلت تلك علامتي. في وقت استقراره في هذا القصر على حافة المدينة ، قيل عن مايكل الثامن - الذي سرق العرش من إمبراطور عمره سبعة أعوام يُفترض به أن يحميه ؛ بعد أن اقتلع عينيه - إنه سيفر "في أول فرصة" ، لكن

اتضح أنه قائد يقاتل من أجل بلاده. وعندما توفي، كان دفنه من دون مراسم جنازة مفارقة شرقية.

عدت أدراجي، ملاحظاً الجوار الغريب للأسوار إطاراً بعد آخر، وكانت كل تلك الشوارع التي تحمل أسماء دينية مثل نماذج ضخمة رُسمت من دون مساطر. رأيت نساء يملن من نوافذ منازلهن المصغّرة بأوضاع مذهلة وينهمكن في أقاويل مجهدة. كانت سيدة منزل مطلي بلون أخضر لم أرها قط من قبل تعنّف ابنها - "ذرّية لعينة عديمة الفائدة" - في حين يجلس زوجها مثل زعيم قبيلة إلى النافذة وهو يمرّر حبّات مسبحته بيده. تجوّل شبان على وشك بدء خدمتهم العسكرية في الشوارع وهم يحملون هواتف خلوية مثل قنابل، وبهتت ألوان الثياب التي يرتديها سكان الحي المبتهجون والعاطلون عن العمل والسيارات العتيقة التي يقودونها بالمعدّل نفسه وأضحت بالدرجة عينها. اقترب مني إمام يرتدي جلباباً، وألقى عليّ التحية؛ وشعرت بنوعٍ من الاختبار في تحيته، لكنه دُهش بتحيتي المماثلة. وعندما ابتعد تساءلت إن كان يعرف أن معظم الكلمات مقتبسة من العهد القديم.

كان صاحب مقهى قد وضع بضع طاولات وكراسٍ صغيرة في ظل الأسوار، الأمر الذي يجعل المشاة على الرصيف مضطرين إلى الالتفاف حولها. جلست على أحد كراسيه بجانب مجموعة تتكلم همساً، ربما بالكردية، وبدا النادل الشاب مذهولاً من سؤالي: "كم عمر هذه الأسوار؟".

قال وهو يوبّخني تقريباً: "كيف لي أن أعرف؟". ثم أخبر مديره بما جرى وجعله يضحك أيضاً.

كان إلى أسفل البوابة المقنطرة صف من منازل الطابق الواحد المرتبطة ربما بالأسوار، وبدا أنها ستنهار إن فُصلت عن بعضها بعضاً. انتقلت إلى الطرف الآخر من الشارع، ونظرت إلى المنزل الرابع من اليسار، ولاحظت أن نوافذه قد سُدّت، وسيظن أي شخص أنه مستودع صغير بسيط، ولن يمضي وقت طويل قبل أن أقف أمام بابه مملوءاً فضولاً بشأن المحن التي سألقاها في الداخل.

á á á

عند منتصف ليلة اليوم التالي، رننت جرس الباب ثلاث مرات طويلة واثنتين قصيرتين (كنت قد تمرّنت سلفاً على منع أي إحراج محتمل). عرفت أنني سأجد أسكاريس ومساعديه مطأطئي الرؤوس في اللحظة التي يُفتح الباب فيها. وإذا قلت: "مساء الخير"، فسينظرون إلي باحترام مرة أو اثنتين، وكنت قد بدأت أعتاد انفصام العهد. كانت غرفتان مملوءتان صناديق كرتونية كبيرة تمويهاً ناجحاً وفي الغرفة إلى اليسار، حرّك كاليغاس أحد تلك الصناديق، وضغط على نقطة تحته، ثم تراجع خطوة إلى الخلف، وسمعت أنيناً ميكانيكياً خافتاً، ثم ظهرت فتحة مستطيلة. نزلنا جميعاً، وعندما فعلنا هذا أضحت الغرفة معتمة وأُضيء القبو الذي دخلناه. وينبغي أن أعترف أنني ذُهلت حين ولجنا بعد اثنتي عشرة خطوة، قاعة. كان السقف مطلياً بأيقونات ملوّنة، وتوجد على الجدران في علب زجاجية تماثيل نصفية رخامية للأباطرة البيزنطيين. ولو أنني فشلت في إمعان النظر إلى التماثيل التي يبلغ ارتفاعها عشر بوصات واحداً بعد الآخر، لكنت قد أهنت ممثلي نومو: قسطنطين العظيم، وثيودوسيوس الثاني، وجستنيان الأول... كان من المحرج تخيل نفسي وذكراي تُحيى هناك إلى جانب الآخرين، لكنني شعرت بالارتياح، عندما تجاوزت فوكاس؛ فقد أدركت أنني لم أكن الحلقة الأكثر قبحاً في السلسلة، وحَمَلت سيماء جد جدي تعبير انصياع كازانوفا عجوز توبّخه زوجته دائماً. بدا أن التمثال النصفي لجلالتي - قسطنطين الخامس عشر - قد جُلب أمس فقط، وتوثّقت بتردّد من قسمات متسامحة فيه لشاب يصغي إلى شخص آخر.

كانت توجد في وسط القاعة طاولة رخامية بيضاء ضخمة، وعليها نموذج عاجي كبير للقسطنطينية، وتوقعت تقريباً أن أجد زراً على هذه المدينة الدمية الرائعة يمكن الضغط عليه لتدب الحركة فيها. أردت أن أعانق الأشكال التي تخص القصر والمضمار والقنوات، وتفحّصت النموذج لوقت طويل؛ لحظة بلحظة، مكبّراً كلّ جزء فيها 200 مرة على الأقل في مخيلتي. لم أكن لأكترث إطلاقاً إن كان ممثل نومو يظن أنني أتظاهر. وعندما رفعت بصري، شعرت بأنني مرهق ذهنياً، فمسحت جبيني بوهن. سمعت شخصاً يقول: "جلالتك، هل تودُّ كأساً من الماء؟". فاستدرت، وبجهد كبير تمتمت بكل لغة أعرفها:

"البشرية بلاء أسوأ من الكوارث الطبيعية".

بدا غريباً ألا ألاحظ من قبل المرارة في الشعار البيزنطي على الطاولة السوداء الصقيلة بين تمثالي والنموذج. وكان النسر الأرجواني مزدوج الرأس الذي يحدّق إلى الشرق والغرب في آنٍ معاً مرآة حقيقية لانفصام الإمبراطورية القاتل. دعوني إلى الجلوس على الكرسي الجلدي الأكثر زخرفاً في الغرفة، وجلسوا - يتوسطهم أسكاريس - قبالتي على حافّات كراسيهم، بعد طلب إذني طبعاً، وشبكوا أيديهم وأحنوا رؤوسهم. عبّر أسكاريس أولاً عن شكر نومو لي، ثم بدأ يشرح طبيعة الامتحان.

أخرج علبة فضية عرضها بوصتان وطولها ست بوصات من كيس جلدي أرجواني وأشار إلى آلية ليست عتيقة تماماً تحت الغطاء تماماً. كانت العلبة ممهورة بختم ملكي، وقد رفعها ببطء. وعندما أمسكها على ارتفاع عالٍ، رأيت على الجانب الأيسر من لوحة الألمنيوم في داخلها ستة مربّعات صغيرة فارغة مرتّبة؛ حيث تكون متساوية البعد عن بعضها، وفي القعر سطح زجاجي مستطيل عرضه بوصة وطوله بوصتان رمادي اللوي. كُتِب على الجانب الأيمن من أعلى مربّع: "متحف أنطاكية". كان ينبغي أن أذهب إلى المتحف وأعثر على قطعة معدنية ممغنطة أرجوانية بحجم نصف بوصة بنصف بوصة مخبّأة في أحد الآثار المعروضة، ثم أضعها في المربع الأول. وعند إنجاز هذا، سيظهر اسم موقع تاريخي على الجانب الأيمن من المربع الثاني، ويُتوقّع مني آنذاك البحث عن قطعة معدنية ثانية في ذلك المكان. كان الغرض الأخير في وصية قسطنطين الحادي عشر مخفياً في التحفة الفنية التي ينبغي أن أجدها في الخطوة السادسة، وأمامي عام لأفعل هذا كله، وأدركت أن أجداد أجدادي قد فشلوا في العثور على الغرض الأخير، أو لم يستطيعوا تفسير معناه. إذا حالفني النجاح - ولم يتمكن أسكاريس من لفظ هذا الاحتمال بنبرة تدل على الثقة - فسأضع ونومو معاً خطة لتنفيذ وصيّته الأخيرة.

بعد كل هذا، كانت هناك جولة ثانية، وإذا نجحت فيها أيضاً يمكن أن أحلَّ نومو التي ستكون مهمتها قد أُنجزت بأي حال، بأي أسلوب أشاء. في تلك الحال، "ستتحكّم بثروة لا يمكن حتى تقدير حجمها"، كما قال أسكاريس بصوت مرتعش.

لكن ، إذا لم أستطع تجاوز المربع الرابع أو الخامس ، فستقوّم نومو "سجلي" وتمنحني - إن كان ذلك ممكناً - مكانة "مختارة" ، ويمكنني الانضمام حينها إلى مجلس إدارة نومو المكوّن من ثلاثة أشخاص لأتبوأ منصب الرئيس. بدا غريباً قليلاً لأسكاريس أن يخبرني أنه إذا تعادلت أصوات المجلس مناصفة بشأن قضية ما ، فيُحسب صوت الرئيس مضاعفاً.

تساءلت في سرّي في أثناء إصغائي لسرد القوانين والأنظمة عن عدد جولات الاختبار التي يمكنني تجاوزها. لم يسأل أسكاريس إن كانت لدي أسئلة ، وزوّدني بكل المعلومات التي أحتاج إليها ، وشعرت واثقاً بأنه لم يكن يُخفي شيئاً. أخبرني صوتي الداخلي أن هذه لم تكن أول مرة يقوم فيها بكل هذا. لكن ، لا سبيل للتوثّق من ذلك ، فتقليد نومو الموغل في القدم 500 عام يقضي أن تقتصد في القول ولا تطرح أي أسئلة.

كانت الحقيقة - التي لا تتطلّب سؤالاً أو جواباً للتوثق منها - أنني موجود تحت الأرض ، في مكان لا يبعد كثيراً عن القصر القديم. وسأُدهش بالتأكيد إن لم يكن الباب خلف تمثالي النصفي يؤدي إلى نفق ينتهي في مكان ما في قصر تكفور. ظننت أن أفضل جزء من الشجاعة هو أن أترك نفسي تنسجم مع إثارة لعب دور القيادة ؛ في مسلسل تلفازي تاريخي. فكّرت بشأن الأشخاص في الحي فوقي ، الذين يعيشون مثل ممثلين في فيلم فليني ؛ بعضهم ينام على الأرجح باكراً ، في حين يشاهد آخرون التلفاز ، وربما واحد أو اثنان يقيمان علاقة. وفكرت أنهم إذا كانوا مكاني ، فقد يبدؤون التفكير في إنفاق كل المليارات التي يمكن أن تصبح بين يدي. بأي حال ، قد أجعلهم يشيّدون مبنى زجاجياً على شكل كتاب في مركز المدينة ، ويمكنني تأسيس أكبر مكتبة في العالم للمعاجم والشعر ، وفي الليل سيقدم عرضٌ ليزري على واجهة المبنى - بالتناوب - حروفَ كل أبجديات العالم ، وعلى جدار آخر ستُنار قصيدة جديدة كل ليلة. سيكون المبنى درعي من قبح العالم ، وقبري أيضاً ، وسأترك باقي ثروتي لأجمل المخلوقات في هذا العالم: الأطفال المساكين.

أُسّست بلدة أنتيوخ (أنطاكية حالياً) في القرن الرابع قبل الميلاد على الضفة الملتوية لنهر يحمل اسماً جميلاً هو أورونتس؛ المعروف بالتركية بالعاصي. هناك حمل الحواريون الأوائل لقب "نصراني"، وأنشؤوا أول كنيسة لهم في كهف. نمت أنطاكية لتصبح ثالث أهم مدينة في العالم. بعد روما والقسطنطينية. ولهذا السبب بالتأكيد، وقعت عين الشر عليها مرات كثيرة. أولاً عام 525م، وبالتحديد حين أضحت بؤبؤ العين البيزنطية، تعرّضت لحريق كبير، ثم عام 526 ضربها زلزال، وحدث هذا في 29 أيار - اليوم نفسه من الشهر الذي ستسقط فيه القسطنطينية لاحقاً - محولاً إياها إلى أنقاض، وزعم المؤرخ بروكوبيوس أنه قتل 300,000 شخص. نهضت أنطاكية من رمادها؛ أساساً لأن جستنيان أراد إعادة بنائها، لكن المجازر التي ارتكبها جنود الحملة الصليبية الأولى في القرن الحادي عشر تبعها زلزال القرن الثاني عشر الذي قتل 80,000 شخص. أُجهِز على المدينة، وبعد ذلك لم تعد أكثر من نقطة حنين على الخريطة.

تبع هذه الموضوعات الرئيسة عرض واقعي لنقوش أنطاكية العتيقة. وفي كل إطار، شعرت بسحر مدينة الحكايات الخيالية الضائعة. تمتمت لنفسي بأبيات احترام كفافي لأنطاكية، وكنت بحاجة إلى مثل هذه المعالجة الشعرية حين مشيت بجانب العاصي في وسط المدينة؛ لأن النهر العظيم تحوّل إلى جدول ضئيل منهك في سريره الإسمنتي؛ وَشَل بائس من الماء البني.

هل كانت المهمة النهائية للعاصي تقسيم البلدة إلى شطرين؟ كان الأثرياء قد انتقلوا إلى الشمال (لسبب ما، الشمال متفوق على الأغلب). قد يُعزى السبب إلى فقدان التفاصيل المعمارية في الأبنية التي رأيتها على طريقي، أو طراز فني معين في كل شيء حولي، لكنني شعرت بالضيق. أحببت فندق سافون - معمل صابون عمره 200 عام أُعيد تشييده يرجع تاريخه إلى نحو 200 عام، وقد تمّ تحويله لاحقاً إلى فندق - لأنه يقع في الجنوب وإضافة إلى هذا، توجد فيه ساحة واسعة تمنحه صفة سامية لمزرعة إقطاعي. بدا الجنوب والشمال يعيشان في منطقتين زمنيتين مختلفتين. وفي أصيل أيلول، كان الجنوب الذي يعبق

بروائح الحمضيات والتوابل رائعاً.

بدأت جولتي الشرقية عند جادة كورتولوس التي تملأ الفندق بالضوضاء. وسرعان ما وجدت نفسي محاطاً بمبانٍ مهدّمة تُركت لتعتني بنفسها (لقد استطاعت النجاة من بضعة زلازل، بالمحصلة)، لكن مظهرها كشف عن جمال الصنعة الجيدة، وبدا أنها تستمتع بتركها وشأنها. كانت الشوارع الضيقة بالكاد تتسع لمرور شخصين جنباً إلى جنب، ويوجد في السوق حلاق، ومسجد، ومتجر أوانٍ زجاجية، ومكتبة، ومخبز؛ كلها متلاصقة. في صفوف مرطبانات على رفوف محل البقالة لم أتعرّف إلا منتجاً واحداً؛ وهو الزيتون. ورأيت إلى جانبها نعلين يبدوان مهترئين، وعلى نافذة متجر المجوهرات تم لصق نشرة تعرض نبأ جيداً؛ وهو أنه يمكن إصلاح نظارات في الداخل. ورغم أن كل المتاجر تقريباً بدت خالية، لم يكن أصحابها متجهمين، وكانوا يتكلمون العربية مع بعضهم، ولكنهم يستخدمون التركية مع زبون غير مألوف. ولأن لا شيء في هذه البلدة يتطلّب سرعة، كانوا مرحين تماماً.

كنت قد قمت بجولة متوسطية مع إسكندر قبل عشرة أعوام، وتوقفنا في أنطاكية في تلك الرحلة، لكننا اضطررنا إلى تجاوز المتحف بسبب إغلاقه. تذكرت أننا قمنا بنزهة في حربية التي دُعيت دافني في العهد الروماني؛ بسبب لقاء الحورية مع أبولو هناك، وتذكّرت أيضاً إحراج عدّة شباب بعد اختيارنا لهم للإجابة عن أسئلتنا بشأن عنوان. كانت أنطاكية التي تتباهى باثنين من أقدم المساجد وأروعها في العالم الإسلامي (ومنظر نادر: بواباتهما الرئيسة تحت مئذنتيهما تماماً)، سعادة حقيقية لن تفلت مني هذه المرة.

á á á

كان متحف أنطاكية يقتصر على طابق واحد يضم خمس قاعات عرض، وساحة صغيرة. والطريقة التي ذكّرني بها من النظرة الأولى بمدرسة متهدّمة تدل على مجده الغابر. كانت القاعات والساحة مملوءة بفسيفساء ضخمة، وتساءلت عن المكان الذي يمكن أن تذهب إليه أعمال من تنقيبات أثرية جديدة. عرفت أنني لن أجد كرّاساً في المبنى - الذي يعد أهم متحف فسيفساء في العالم - ولهذا أخذت معي نسخة من دليل متحف قديم استعرته من سلجوق ألتون.

التزاماً بقواعد نومو وأنظمتها، بقي باباس وكاليغاس في الساحة لدواعٍ أمنية، ورافقني أسكاريس كمراقب؛ وإنما طبعاً من دون أن يشارك في (بحثي) تفتيشي. وفقاً للافتة باهتة عند مدخل المتحف، كان كمال أتاتورك - مؤسس الجمهورية التركية - قد أعلن أن "أساس الجمهورية التركية هو الثقافة" (بدأت اختباري الأول بابتسامة). تحلّى أسكاريس بلطف كافٍ ليقول: "جلالتك، لقد زرت هذا المتحف عدّة مرات، وإذا شئت، فسأكون سعيداً بانتظارك عند مدخل القاعة الأولى". بدا واضحاً أنه لم يرغب بإزعاجي بملاحقتي مثل حارس. وربما كان هو الذي دسَّ مبتهجاً - في اليومين الماضيين - ذلك المربع الأرجواني الصغير في زاوية مخفية.

كان المتحف يحتوي على فسيفساء رومانية وبيزنطية إلى جانب تماثيل ونقوش ومجسّمات يونانية ورومانية، ولو كنت أكتب رواية بوليسية - كما فكّرت - لأخفيت المربع الأرجواني في إحدى اللوحات الفسيفسائية الضخمة التي تشغل الجدران. كان ترتيب الفنون يلائم ما أخبرني به دليل خبرتي، ورأيت في القاعات الأولى والثالثة والخامسة لوحات فسيفسائية طولها خمسة عشر متراً وعرضها متران؛ كلها من العهد الروماني، وتبدو تلك الموجودة ضمن مجموعة القرن الثاني، والتي تدعى "حياة حلوة" أكثر جذباً وظرفاً من اللوحات الأكثر حداثة.

في القاعة الرابعة، يعود تاريخ أربع عشرة لوحة من اللوحات الخمس والأربعين إلى العهد البيزنطي، وحظيت بالمكان كله لنفسي حين أمعنت النظر إليها واحدة بعد أخرى، فقد كان الحرّاس بعيدين ويتبادلون أطراف الحديث في هدوء الصباح. وقفت أمام كل من الأعمال الأربعة عشر، أنظر إليها وأدقّق فيها من زوايا مختلفة وأتوقع خفية أن تبعث إلي إشارت، ثم تراجعت إلى منتصف الغرفة، ودرت حول نفسي لأشاهدها كلها من الموقع نفسه. شعرت بالسعادة من النشاط الذي دبَّ في جسدي، وتذكّرت أعمالاً وثائقية كنت قد شاهدتها على التلفاز عن أسود تخرج في رحلات صيد في جماعات، وبدلاً من أن تهاجم قطيعاً كاملاً من الظبيان، كانت تحافظ على طاقتها للضحية التي تُنتقى وفقاً لمعيار لا تعرفه إلا الأسود فقط. وبمرور الوقت، فهمت على نحو أفضل الأولوية التي تمنحها للضعيف

والصغير. بالمقابل، لم يكن لدي معيار للمضي قدماً؛ باستثناء بعض المعلومات الضئيلة المثبّتة إلى جانب اللوحات، فضيّقت النطاق إلى أربعة احتمالات. كانت "أنانوسيس" ("النهضة") اسماً مغرياً لبداية الاختبار، فاقتربت من اللوحة التي يبلغ عرضها سبع أقدام ونصف القدم، وطولها خمس عشرة قدماً متشككاً، وعرفت أن هذه الفسيفساء من القرن الخامس تتكوّن من نحو 125,000 مربع صغير، وتشكّل صورة غريبة لامرأة بيزنطية. هل كانت إحدى عينيها مملوءة خوفاً، والأخرى أملاً؟ لاحظت التناظر بدءاً من ذقنها، ونقلت بصري في مسار متعرّج على وجهها، وبدا الأمر مثل عدّ نجوم فتوقفت خشية أن أغطّ في النوم. لكن، هل كان هناك شيء غريب قليلاً على أرنبة أنف الأخت أنانوسيس؟ كانت القاعة لا تزال خالية حين انتزعت خلسة تلك البقعة الداكنة بيدي اليسرى، وجَعلتْ لمسة البرودة المعدنية قشعريرة تسري من داخلي إلى خارجي؛ وكأنني أداعب فتاة بيزنطية جميلة.

علق المربع الأرجواني بأصابعي مثل طائر صغير، وكنت أرتعش إثارة. اجتمعنا في الساحة أمام تمثال الأسدين، وكنت أتوقع استحساناً لنجاحي الباكر. وعندما أرهفوا السمع لبيان عن استراتيجية بحثي، هزَّ باباس وكاليغاس رأسيهما، في حين نظر أسكاريس إلى الأرضية. أخذت العلبة الفضية من الحقيبة بين يدي كاليغاس، وكدت أتمتم دعاءً حين وضعت قبضتي في أعلى فجوة. وعندما التقى المربعان، سمعت أزيزاً ميكانيكياً من العلبة، وظهرت في النافذة التي فُتحت فجأة بجانب الفجوة الثانية كلمة: ميسترا.

لم يحيّرنا المكان كثيراً، فقد كانت ميسترا في شبه الجزيرة البيلوبونيسية، وقد حوّلها بالايولوجي إلى مركز فني وثقافي. وعندما نالت اليونان استقلالها على كل حال، أضحت للمفارقة بلدة أشباح.

هل كان بدء الامتحان في أنطاكية - حيث يمتزج التاريخ والجغرافية معاً - يعني نقل رسالة خاصة؟ أنانوسيس تعني نهضة أو بداية جديدة، وهي كلمة رمزية تستعمل أحياناً لوصف تجديد أو انبعاث مناطق معينة من بيزنطة. إذا كان يُطلب مني تولّي مهمة إعادة إنشاء ينبغي إلهامي، وإذا أخبرني أحدهم أن بيزنطة رقعة شطرنج مصنوعة من عدد غير

معلوم من المربعات فلن أجادل.

حاولت الحفاظ على قصتي أمام أسرتي بأنني أعمل في شركة عالمية بقضاء شهر أيلول خارج البلاد. وفي عواصم بعيدة في أوروبا، زرت حدائق حيوانات ومتاحف وتجار كتب وخرائط عتيقة لم أرهم من قبل. وشاركت في مزادات فنون، ومنافسات شطرنج باسم مستعار (بيزانسوف)، وقرأت سيرة حياة قسطنطين الأول وتاريخ ميسترا، وبحثت عن شعراء جيدين وغانيات بارعات.

عندما وصلتني تذكرة طائرة إلى أثينا على متن الرحلة المغادرة في 6 تشرين الأول، كنت سأُدهش أسكاريس إن لم أكن قد وجدت تلميحاً خفياً في الموعد المحدد، وتبين أنها الذكرى الخامسة والثمانون لتحرير إسطنبول من القوات الغازية.

عبقت سيارة الأجرة التي أقلّتني من مطار فينيزيلوس بشذا الليمون، وجعلتني الرائحة أشعر بالراحة، واسترخيت تماماً حين لم يشغّل السائق المتجهم المذياع أو يسألني من أين جئت. غلّفت شمس الخريف السيارة، وانتابني إحساس جميل. وعندما اقتربنا من المدينة، سرى في جسدي نوع من الإثارة لرؤية أرض الأجداد لأول مرة، وبدا ذلك مربكاً قليلاً.

أثينا، المدينة التي جعلها 4 ملايين يوناني من 12 مليوناً مسكناً لهم! ولم أشعر بالغربة من ازدحام المرور الذي تواجدنا فيه، أو النزاع بين سائقي المركبات والمشاة. هل كان القاسم المشترك بينهم هو سخطهم؟ بدا أن اليونانيين يتشاجرون على الدوام؛ إما مع هواتفهم الخلوية أو بعضهم بعضاً، وشعرت أنني أعرف هؤلاء الناس الواهنين بلغة أجسادهم الثرية وخطواتهم الحيوية. كانت المدينة حيث بدأ الجمال محاصرة آنذاك بمبانٍ من دون هيبة معمارية. وربما عندما يترك أهل أثينا مدينتهم بناءً على أمر فوري، سيُدمّر هذا التكتّل من الأكواخ البشعة.

أشار أسكاريس إلى فندق غراند بريتان على أنه بيرا بالاس أثينا. وكنت واثقاً تماماً أن الجناح المحجوز لي سيمكّنني من رؤية أكروبوليس كله. قال الخادم الذي اصطحبني إلى غرفتي: "هل لديك أي أسئلة أخرى؟". رغم أنني لم أسأله شيئاً، وبدا يافعاً على استفسار مثل: "إذا أردت تسمية فندق بريطانيا العظمى، لماذا تستخدم اللغة الفرنسية؟". حظي

عمل ستيفن رونسيمان بعنوان النهضة البيزنطية الأخيرة - الذي يتناول الازدهار الثقافي لميسترا في أثناء عهد بالايولوجي - باهتمامي الكامل حين تمدّدت على السرير الكبير الذي يمكن أن يتسع لثلاثة أشخاص.

عند الساعة الرابعة كنت في ردهة الطابق الأرضي. وعندما دخلت المقهى حيث ينتظرني فريق نومو، نهض الثلاثة عن طاولتهم. ولحسن الحظ، لم يلحظ أحد ذلك في صخب المكان. كان المكان معتماً، ومليئاً بأشخاص يتحدثون في الوقت عينه. وتكلم أولئك الذين يحملون هواتف خلوية في أيديهم بصوتٍ أعلى، بدلاً من اختصار محادثاتهم؛ وكأن هذا سيثبت أنهم محقون. بدا الرجل البدين الجالس إلى الطاولة المجاورة، والذي يداعب شاربه بيد ويحرّك حبّات مسبحته بالأخرى، مثل منظّم طبيعي لضجيج الحشد خلفه.

قلت: "أسكاريس، هل جهّزت لي هذا المشهد حتى لا أشتاق إلى وطني؟". ندمت على السؤال فوراً، إذ لم يكن الفريق قد تعلّم بعد كيف يتقبّل دعاباتي.

عبّرت عن رغبتي بالبقاء في أثينا يومين، وقضت خطتي بزيارة بضعة متاحف ومواقع تاريخية قبل السفر إلى ميسترا، لكن قبل كل شيء آخر ينبغي أن أحقّق في أمر قد أزعجني في الشارع. كدت أقول حين وقفت: "لينهض كل أولئك الذين يؤيدونني ويتبعونني". لكنني أحجمت عن ذلك وشعرت بحافز لأشبك يديَّ خلف ظهري حين مشينا نحو ساحة سينتاغما تحت أشعة شمس الأصيل. ضمَّ الشارع دكاكين متواضعة وقف مالكوها خارجها وهم ينتظرون حلول المساء، وفي الوقت نفسه يدخّنون ويصرخون بفظاظة على راكبي دراجات نارية صاخبين لا يعتمرون خوذات. لم نتوقف حتى وصلنا إلى متجر بقلاوة غولوغلو، وانتابني شعور غريب أنني إذا دخلت لشراء حلويات للمجموعة، فسأتناول حصة شخص آخر. عندما حوّلت طريقي إلى أقرب شارع، ظهر بائع سيميت أمامنا مع صينية مملوءة بسكويتاً تركياً دائرياً، وأحسست بأنني مضطر إلى شراء واحدة. أعطاني البائع ورقتي نقد فكّة، على إحداهما نص حسابي مكتوب على قفاها، في حين أن الأخرى قد أُصلحت بشريط لاصق. قال أسكاريس: "جلالتك، في تشرين الثاني ستجد هنا باعة سحلب يصرخون سحلبي!". (كان السحلب الذي يصنع من حليب ساخن ومسحوق جذر

السحلبية صفة ملازمة لشتاء إسطنبول).

شعرت بإثارة مثل طفل انطلق في مدينة ملاهٍ، وابتكرت متاهتي الخاصة بالاندفاع إلى كل شارع واجهناه تقريباً. كنت في عجلة من أمري لأكتشف منظراً أو صوتاً أو رائحة جديدة عند كل منعطف أسلكه. ولم تبدُ المنازل ذات الستائر المزركشة القديمة، والمحال بالرايات المتغضّنة على نوافذها، والأطفال الذين يتجولّون في الحي بِنِعَال، والقطط المتباهية أموراً غريبة بالنسبة إلي. ورغم برودة المساء، فضّل كل الزبائن تقريباً في المقاهي التي استرحنا فيها الطاولات الخارجية، وبدا أنهم ينتظرون بسكينة أمراً ما. وأمام المبنى بجانب المقهى، بدأ بضعة أشخاص في صفّ غير منتظم يتبادلون كلمات؛ وكأنهم سيرقصون كتفاً إلى كتف إذا عزف أحد نغمة سيرتاكي؟

كان المبنى المطل على الساحة التي قادنا أسكاريس إليها كاتدرائية أرثوذكسية. وانقضت ثلاثون ثانية قبل أن أستدير إليه وأقول: "هل تحاول أن تخبرني أن هذا هو المبنى المبجّل الأروع في المدينة، ولهذا لا تضم المدينة مبنى مبجلاً رائعاً؟".

"جلالتك، هل يمكن أن تتكبّد عناء المشي نحو التمثال عند نهاية الساحة؟".

استدرت لأنظر خلفي، وبدت الساحة مثل حلبة جليد مهجورة، لكن ينتصب في وسطها تمثال رئيس أساقفة كان بطلاً سرياً في الحرب العالمية الثانية، وبدا غريباً أن يظهر عليه تعبير زعيم قبيلة مهيب. هل كان هناك تمثال آخر خلفه، بين الكاتدرائية ومحيط الساحة؟ وكأنني منوّم مغناطيسياً، سرت ببطء نحو الشيء الضخم الذي بدا أنه يرسل إشارات مثل منارة، ورأيت على قاعدة من رخام عادي - من النوع المستخدم في الحمامات - تمثالاً برونزياً لسلف قسطنطين الحادي عشر، يرتدي بزّة قائد عام، ويحمل بيده اليمنى سيفاً مصغّراً، وبدا عجوزاً ومتعباً، وتراجيدياً-كوميدياً مثل دون كيشوت حين بدأ رحلته الأخيرة. إذا أراد النحّات نحت وجه نبيل مزدرٍ مشمئز من حلفاء خائنين فقد نجح بالتأكيد. ويتميّز الشكل بأنف طويل مثل أنف جدي يحيى، وعظمتي وجنة بارزتين مثل وجنتي أمي، ووجه طويل مثلي. رغم الإضاءة الباهتة أحسست بوجوده، خلية بخلية، وشعرت أنه روح إنسان. وعندما درت حوله ببطء، بدا أن ثقل تاريخنا المشترك ينتقل إلي. طردت الطيور الجاثمة

على رأسه، وأبعدت الأوراق المكوّمة على قدميه، ثم خطوت بهمّة ونشاط أمامه؛ وكأنني حارس. كنت الحفيد البائس المهمل الذي يجد عند عودته بعد غياب طويل جده الأسطوري على فراش مرضه، وبدا واضحاً أنني متأثر بقرابة دم عبر الأجيال. استدرت إلى الفريق الذي وقف يراقبني، مذهولاً، وقلت: "هذا التمثال لآخر أباطرة بيزنطة أصغر حجماً من تمثال رئيس أساقفة مغمور ومتوارٍ في ظله. هذا هو قسطنطين الحادي عشر نفسه الذي دعم وحدة الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية. لقد أهان الأشخاص الذين وضعوا هذا التمثال هنا بيزنطة وذكراها. هل تنظيم نومو غافل عن هذه الفضيحة؟ أم إنّ أعضاءه لم يروا سبباً ملائماً لتصحيحها؟".

في المقصد السياحي بلاكا؛ بلدة تكاد تبدأ سباتها الشتوي. اخترت خاناً يدعى بيزنطيو لتناول العشاء فيه وما بدا إيجابياً في المكان أنه يشبه مطعماً أناضولياً بسيطاً لا تسمع أي موسيقى فيه. جلست وحيداً مع أسكاريس أكاد أسمعه وهو يبدي رأيه بشأن ميسترا. كانت هناك ثلاث طاولات في الخان، وخلفنا مباشرة يوناني عجوز يمطر بلغة إنكليزية ركيكة شابة يابانية يافعة كفاية لتكون حفيدته - التي ركّزت بصرها على الطبق أمامها - بالمديح. كنت مستعداً لكي أخمّن أنها ستفر بعد الانتهاء من الأكل، وبدا الأمر محرجاً، فحاولت جعل الرجل الوقح يشعر بالخجل من نظراتي، ولكن من دون فائدة. لكنني استرخيت حين شربت المزيد من الشراب. لم يستطع أسكاريس إضافة أي شيء لما كنت أعرفه سلفاً عن ميسترا؛ اسم يرتبط بكلمة "غموض" في عدّة لغات.

جلست مجموعة من ثمانية أشخاص محليين إلى طاولة أخرى، مسترخين وكأنهم يستلقون على متن مركب. كلما أُثير موضوع جديد للحديث، كان يأتي من جدة عجوز عمرها ثمانون عاماً تحيك ثوباً فيروزياً. استقر بصري على يديها - يدي مايسترو - وقلت لأسكاريس: "أشعر أن رحالي قد حطّت في أثينا قبل عشرة أعوام، لا عشر ساعات؛ حتى إن الروائح التي تخرج من حاويات النفايات مألوفة. في الواقع، يبدو لي أن أثينا وكل شيء هنا قد انفصل للتو عن خليج إزمير والتصق بالقارة الأوروبية".

"جلالتك، بوصفي شخصاً يعرف المدينة، أود أن أتكلم إن سمحت لي. كما تعرف

سلفاً ، أعلنت اليونان استقلالها عام 1932 بموافقة الدول الأوروبية التي فرضت بنفوذها أن تكون أثينا العاصمة ، وأتو - الأمير البافاري - أول ملك للبلاد. لكن الشعب لم يقبل الفتى الذي كان في السابعة عشرة من عمره ملكاً كاثوليكياً. وقيل إن الضرائب التي فرضها ، إلى جانب عدم اهتمامه برعيته جعلا العهد العثماني يبدو أفضل كثيراً. حقاً ، لم يظن أحد أن أثينا ستبقى العاصمة ، أو الملك سيبقى ، وتوقّعوا أيضاً ألا يتجاوز عدد سكان أثينا 250,000 نسمة أبداً ، لذا لم يكن ماضيها أو مستقبلها محمياً. يمكن أن ترى آثار الأناضول في الأثيني. لكن في شوارع أثينا لا وجود لجمال الأحياء اليونانية على بحري إيجة والأسود. هناك قصة عن رجل أُرسل إلى اليونان من تركيا في "تبادل سكان" ، وعاد بعد عشرين عاماً إلى إسطنبول ليقول بحزن: "حي فينير أثيني أكثر من أثينا".

لم أشعر بالرغبة في إبلاغ أسكاريس أنني قد تأثرت بما قاله ، وغادرنا المطعم حين أصبح جفناي ثقيلين ، لكننا توقفنا بجانب ساحة الكاتدرائية مجدداً ، وجلست القرفصاء وأنا أسند ظهري على تمثال قسطنطين. لم تخطر ببالي قصيدة ملائمة للمناسبة. ولأن النوم الهانئ كاد يستولي على روحي ، أمسك أفراد الفريق ذراعيَّ وساعدوني في الوصول إلى غرفتي.

في صباح اليوم التالي ، نهضت من السرير عند الساعة 6:33 صباحاً وشعور بالذنب ينتابني ، وخطر لي أن بمقدوري رؤية البلدة من النافذة. كانت السماء تتغير من العتمة إلى لون رمادي فاتح ، ورأيت أعلى الأكروبوليس البارثينون يكشّر مثل شبح مهيمن. اغتسلت مستغرقاً بالتأمل ، وقرأت سفريس بعد ذلك. وعندما قمت بخطوة ثانية نحو النافذة ، كانت السماء قد حسمت أمرها على الأزرق الباهت ، والبارثينون يلمع في مجده السرمدي ، في حين تطأطئ مباني البلدة الأقل ارتفاعاً رؤوسها احتراماً. شعرت بالإثارة ؛ وكأنني أول من يشاهد لوحة قد انتهى رسمها للتو ، وفتحت النافذة لأكتشف الموسيقى الخلفية لتلك البانوراما. ولم أكن لأُدهش إطلاقاً حين سمعت صوت الأذان يُرفع من زاوية بعيدة.

كان وجود سياح عاديين في مواقع أثينا التاريخية مملاً ، فهم لم يقصدوا تلك الأماكن إلا لالتقاط الصور. كان متحف الآثار الوطني مليئاً بالأشخاص ، في حين لم يكن هناك أحد باستثنائي في متحف بيزنطة والنصرانية الصغير (سُرق أهم غرضين فيه من أدرنة وسيدي ،

في تركيا). بدا الفريق متوتراً؛ فقد ظنّوا أنهم سيُعنّفون بسبب الصمت الذي يُطبق على المتحف.

قلت: "إذا رتّبتم لكي يُغلق هذا المتحف ويُحجز لي لأزوره كما ينبغي، فمرحى لكم".

عند منتصف الليل تقريباً، أرسل أسكاريس غانيتين إلى غرفتي. ذكّرتني خشخشة مجوهراتهما المبهرجة بجمال قلادة عمرها 5000 عام رأيتها في متحف الآثار، وشعرت بإحراج.

á á á

في الصباح التالي، اتجهنا إلى ميسترا في سيارتي ليموزين. فالتقيد بالقوانين يعني الإقامة بفنادق منفصلة، والسفر في سيارات مختلفة. كنت دائماً مع أسكاريس، وقد تعوّدت نوعاً ما على هذا الشخص القبيح - أكثر حتى مني - والذكي. جعلتني الطريق المقفرة من مضيق كورينث إلى شبه الجزيرة البيلوبونيسية نعساً، وكانت ساحات المعارك القديمة التي قد درسناها في صفوف التاريخ ونسيناها أراضي كبيرة، أليس كذلك؟ أضحت كل تلك الجبال التي لعبت أدواراً في أساطير يونانية شتّى أصغر حجماً، وتساءلت: هل كانت تنتظر النهاية؟ كانت إسبارطة المحاربة هي التي أدهشتني، وتبدو آنذاك بلدة أشجار خضراء يبلغ عدد سكانها 20,000، وشبّهتها بمتمرد حُكم سابقاً بالسجن مدى الحياة ويتولى الآن العناية بالحديقة.

كانت ميسترا - وتبعد سبع دقائق بالسيارة من إسبارطة - قد تحوّلت إلى قرية صغيرة. ورغم أن غزاة لاتينيين قد أسّسوها في أثناء العهد البالايولوجي، أصبحت العاصمة البيزنطية لموريا؛ آخر قطعة أرض تبقى في أيدي القسطنطينية. خضع ورثة بيزنطة لتدريبهم هناك، ولا يعرف سبب منح الإقليم إلى إسبارطة بعد استقلال اليونان.

كانت ميسترا مكاناً مبجلاً؛ وكأنها قرية على جبل إيدا. ولم أصدّق عينيَّ حين رأيت التمثال في الساحة الصغيرة. وباستثناء أنه أصغر حجماً، بدا مطابقاً لتمثال قسطنطين الحادي عشر في أثينا. دلّت إحدى اللافتات السياحية على الطريق إلى جادة ستفين رونسيمان (1903-2000)؛ المؤلف الذي كتب العمل الشامل الوحيد عن موريا. ويحتل

الرجل مكانة سامية في تقديري ؛ لأنه وصف الصليبيين على أنهم "غزاة البرابرة"، ويعدُّ إضافة إلى هذا محباً لإسطنبول وسفريس ، ولم يتزوج أبداً أيضاً.

صعدنا على التلة إلى اليمين ، وابتسمت لنفسي حين تضرّعت بالعربية ، وعندما اجتزنا المنعطف الأول برز تايجتوس - مركز الموقع الأثري البيزنطي - في دربنا. كان ارتفاع تلك التلة المخروطية 900 قدم ، وشعرت بأنني أعانقها ، وكل ما بقي من البلدة العليا هو القلعة اللاتينية المدمّرة على القمة ، وكنيسة آيا صوفيا التي تبعد مرمى حجر أسفلها ، وقصر الأمير الجاثم في الوسط مثل خان ، مع مسجد عثماني مثل جار جاء فجأة ، وأخيراً دير بانتاناسا تحت حماية أشجار السرو ، وقد تذكّرتها كلها من خرائطي وكتبـي ونقوشي. على قمة التلة التي يغطّيها الضباب ، رحّبت بـي مجموعة آثار من العصور الوسطى ، وكانت لدي فكرة عن المكان الذي سأجد فيه المربع الأرجواني الثاني ، لكن أولاً كنت بحاجة إلى التآلف مع ذلك المجمّع الاجتماعي الذي يقاوم فكرة التحوّل إلى بلدة أشباح (كانت هذه على الأرجح نية نومو الحقيقية).

هجرنا مركبتينا الفخمتين في فسحة الوقوف في أعلى التلة ، ورأيت قطيعاً من الماعز من دون حارس يرعى في الأقسام المنهارة من الأسوار القديمة ، والنحل يؤدي عرضه النهائي في الموسم مع طيور الحسّون. كان المطر قد هطل قبل وصولنا ، فانبعثت من الأرض رائحة بهجة الحياة ، وأردت التسلق إلى القمة وسحب نفس عميق يمتد من غلطة إلى ميسترا. مشينا بحرص على طول الدروب التي تبدو مصممة لتشجيع الناس على عدم المجيء للزيارة ، وإزعاجهم إن فعلوا هذا. كانت محطتنا الأولى آيا صوفيا ، وبدت الكنيسة جاهزة لقدّاس ؛ لو أن فيها أبواباً ونوافذ فقط. ولاحظت انسجاماً حزيناً بين اللوحات على الجدران والسقف ، وربما استغرق الأمر 700 عام لتكتسب الرسوم درجة اللون الصحيحة. كان دير بانتاناسا المبنى الوحيد الذي لا يزال يؤدي وظيفته الأصلية ، وأزعجني مرح السياح الذين صعدوا إليه في رتل واحد ، وانضممنا عَرَضاً إلى صفهم. لا أعرف السبب ، قد تكون النظارة التي تضعها ، لكنني دُهشت من الراهبة الشابة التي تجاوزتنا وهي تنظر إلى الأرض. لم تحافظ مجموعة المحليين الذين يغزون الدير على الهدوء ؛ فقد كانوا يختبرون سعادة الجلوس إلى طاولة

نزهة مبجّلة، ولم أستطع تناول الحلوى القاسية التي قدّمتها لنا راهبة عجوز بعد أن أخرجتها من وعاء.

همست وكأن الفريق يستطيع سماعي: "لقد فسدت بسبب تضرّعات لم تُقبل".

ذكّرتني شرفة الدير الفسيحة بالمنازل الصيفية الخشبية الجاثمة في مراعٍ جبلية شرق البحر الأسود. وعندما بدأ الضباب يخف، شعرت بوهج مضيء لقافلة ضوء مكوّنة من مربعات فسيفسائية يتجه نحو الشرق، فأغمضت عينيَّ لأسمع بنحو أفضل الترتيلة التي ترافق هذه الظاهرة السرمدية أثناء انتقالها في خيالي إلى انطاكية. وحين وصلت إلى هناك فتحتهما. انزعجت قليلاً من تلكؤ الفريق خلفي، وانتابتني رغبة مفاجئة بمضايقتهم.

سألت من دون أن أدير وجهي إليهم: "هل يعرف أي منكم الشاعر القديم لهذه الأرض هجسيبوس؟".

صمت. قلت: "تهانيّ، سأتلو مقطعاً من شعره عليكم:

قرّاص وزعرور شائك على جوانبي الأربعة.
ارحل، أيها الرحّالة، وإلا ستُخدش.
أنا تيمون مبغض البشر نفسه.
ارمِ لعناتك كيف تشاء، أنت حر.
فقط امضِ قدماً وارحل!
والآن، حان الوقت لنرحل أيضاً، فلدينا عمل ننجزه".

عند ذلك، استدرت ودخلت قصر الأمير عبر بوابة مونمفاسيا. كانت ميسترا متاهة فسيفسائية ممتدة على قطعة أرض غير ممهدة، واستمتعت بطريقة ما من عدم توثّقي بأن الأبنية، أصغرها عمره 500 عام، تمثل سؤالاً أو جواباً. كنت واثقاً تماماً أنني سأجد الدليل الثاني في الغرفة التي كانت بلاط الأمير، لكنني واجهت عقبة حالية: كان القصر مغلقاً أمام الزائرين بسبب أعمال ترميم يموّلها الاتحاد الأوروبي!

تكلم كاليغاس مع الحارس الذي زفَّ لنا نبأ جيداً ؛ وهو أنه بمقدورنا الدخول إذا حظينا بإذن من مشرفة البناء. وبيدٍ رفعها في ثلاث حركات ، أشار إلى شابة واقفة في وسط الساحة تعتمر قبعة قش خفيفة ، ولاحظت أن مديرة الترميم تنتعل جزمة وترتدي سروالاً وتضع نظارة. بدا أنه لن يكون الحصول على "نعم" منها أمراً سهلاً. وباستخدام لغة الجسد للتوكيد ، كانت تمطر فريقاً من العمال ينتظمون في نصف حلقة أمامها بالأوامر. اقتربت منها بفضول ، وسمعت صوتاً مغوياً في حين كان الشعر المتناثر خارج قبعتها أشقر ، ولو أنها لم تكن تتكلم اليونانية مثل رشاش لظننت أنها إسكندنافية. تساءلت عن سبب ضحك الجميع حين تنتهي جملها الرخيمة. وعندما طقطقت على جزمتها بالمسطرة المعدنية بيدها اليسرى ، ذكّرتني ببنات مالكي مزارع الحيوانات في الأفلام الغربية اللواتي يعنّفن خدمهن ، ويقفزن على خيولهن ، وينطلقن نحو الغروب.

تشتّت فريقها ، فتحرّكتُ مقترباً منها ، ثم نظرت إلى عينيها وحاولت منح انطباع مغوٍ. قلت بالإنكليزية إنني طالب من جامعة بوغازيتشي ومؤرخ هاوٍ مهتم ببيزنطة ، وإنني قطعت كل تلك المسافة إلى أثينا ، ولا أرغب بالمغادرة من دون زيارة قصر الأمير. نجحت في أن أحظى باهتمامها حين أضفت أنني أُعدُّ يونانياً من جهة أمي ، ورفضت الاستسلام حين ردّت بإنكليزية فصيحة: "أتمتع بسلطة منح امتيازات إلى دارسي بيزنطة الحقيقيين فقط". سردتُ بسرعة أسماء أولئك المؤرخين البيزنطيين الذين أصدّقهم ، ثم ذكرتُ بحثي الخاص في دومبارتون أوكس ودار شاثام.

قلت: "إذا أردت ، يمكنك أن تسأليني عن المخصيين زيفاً في القصر الكبير ، أو يمكن أن أعدِّد لك الأباطرة الذين غفوا على قناطر فالنس. لكن ، أرجوك أن تسديني هذا المعروف". كنت أتوسّل ، مدهوشاً من الخنوع في نبرتي.

كانت نظارتها مثل قناع يغطّي وجهها. لكن ، عندما لاحظتُ وجنتي الشابة ترتفعان قليلاً فقط ، استرخيت نوعاً ما. رفعت إصبعيها - السبابة والوسطى - في يدها اليسرى إلى شفتيها وصفرت بحدّة (لطالما كنت أغبط الأشخاص الذين يستطيعون الصفير باستخدام أصابعهم)، وأومأت باتجاهي إلى الحارس الذي قفز عن كرسيه حين سمع صرخة "أكي!" ،

ثم أخرجت مصباحاً من جيبها وسلمتني إياه قائلة: "خذ ، ستحتاج إلى هذا ، أرجو أن تعيده إلي بعد ساعة على الأكثر".

كان قصر الأمير في الواقع مبنى يفتقر إلى التميّز الجمالي ، ومقر إقامة حاكم المقاطعة سابقاً ، ولهذا ينبغي أن يكون كبيراً وفخماً قدر الإمكان. والغريب كفاية أنه بدا كما لو أنه يتمتع بشيء من روح خان سلجوقي. وجدت القاعة التي تقول الخريطة القديمة في يدي إنها "غرفة العرش" ، ولم يكن الترميم قد تغلغل بعد إلى ذلك المكان المعتم والبسيط الذي يبدو أنه قد تُرك خاوياً أجيالاً ، وتعرّفت الرائحة السائدة ؛ رائحة قش رطب. عندما ضغطت مفتاح المصباح ، لم تخفق يمامات أو وطاويط بأجنحتها أو تبدأ حشرات بالصرير ، وأدركت أن شيئاً ما قد بدّل الجو قبل وقت قصير فقط ، ثم رأيت تكوينات فسيفسائية في وسط الأرضية الحجرية ، وأهمها تُبرز فيلسوفاً شبه عارٍ يدفع عنه نمراً متوحشاً بلفافة في يده. بدا هذا الجزء مغبراً أقل بقليل من الباقي. استخدمت المصباح لأدقّق النظر إلى الفسيفساء مربعاً بعد آخر ، وهناك رأيت المربع الأرجواني ؛ في لحية الرجل المبجّل ، وقد علق بيدي في اللحظة التي مسسته بها. هل كان أمراً مضحكاً أن يكون الشخص الذي أخفى الدليل الثاني مسؤولاً عن فريق ترميم ميسترا ؟

لم أرغب بإظهار فظاظة بمغادرة المبنى بسرعة كبيرة ، لذا بقيت في الجو التأملي وفكّرت ملياً في إقطاعيي بالايولوجي الذين اتفقوا مع الفلاسفة. كان مانويل الثاني تحديداً - رجل الحكمة والمحب للجمال - قد جعل ميسترا مركز النهضة البيزنطية الأخيرة ، وقد اجتمع فيها قساوسة متنوّرون ، وعلماء ، وفلاسفة ، وطالبو علم ، وفنانون ممتازون ، وحُوّلت كنائس وأماكن إلى كليات ، ودُرست أعمال فلاسفة كلاسيكيين وانتُقدت ، وولد فيها فلاسفة جدد. جذبت ميسترا اهتمام أوروبا أيضاً ، وأصبحت في مرمى ريبة الفاتيكان. وفي مصادري حتى الآن ، بقيت أسباب انتقاء بلدة ريفية صغيرة لهذه النهضة الكئيبة مبهمة. لكن ، برأيي شعر بالايولوجي ببساطة باليأس بشأن القسطنطينية التي كانت تتداعى بسرعة ، واعتُمد على هذا الموقع - متنزه أثري الآن - للأسباب عينها التي جعلت قسطنطين الأول يؤسس القسطنطينية خوفاً من روما. ركّزتْ عيناي على نسيج عناكب يتدلّى من زوايا الجدران

والسقف التي ربما كانت لا تزال صامدة لحراسة كلمات الحكمة غير المدوّنة التي نُطقت تحت هذا السطح قبل 600 عام.

غلّفت بأناقة الدليل الجديد بمنديل ورقي ، وتمتمت بدعائي المفضّل ثم غادرت المبنى. رأيت مديرة الترميم جالسة تحت مظلة عند حافة الساحة ، تمدُّ قدميها على الطاولة الصغيرة أمامها ، وتتابع الصراخ وهي تلقي أوامر بالإنكليزية واليونانية عبر مذياع محمول في يدها. ولاحظت أن ساقيها طويلتان وجميلتان ، وبجانب جزمتها نسخة من عندما كنت سرمدياً لخافيير ماريّاس. أغلقت المذياع وأنزلت قدميها إلى الأرض ، وانتابني فضول بشأن الوجه الذي تحجبه باستمرار خلف قبعتها ونظارتها ، وقالت: "أفترض أنك لم تتأثر كثيراً بما رأيته ؟".

أعدت المصباح الصغير إليها وأنا أنطق بجمل مثل: "تكلمت في نفق الوقت مع الفلاسفة بلثون وبيرنيوس وبساريون. تصطبغ تلك القاعات الرائعة بوجودهم. أنا شاكر لك لتمكيني من الاستمتاع بهذه المسرّة". قد يكون الدليل الثاني الذي وجدته بسهولة سبباً في تعبيري عن شكري الكريم.

جلست الشابة ساكنة لبعض الوقت ؛ ربما لأنها أرادت التفكير في الكلمات التي قلتها وتلك التي أكاد أنطقها. شرعت بالقول: "حسناً ، أنا سعيدة بلقاء تركي من دون شارب يحب بيزنطة". وتابعت: "سأكون في إسطنبول في كانون الأول لتقديم محاضرة ، وإذا كنت مهتماً فستسرني دعوتك. إذا تركت عنوان بريدك الإلكتروني ، فسنتمكن من إبلاغك".

خربشت بريدي الإلكتروني على بطاقتي وأعطيتها إياها. قلت: "هل يمكن أن أسأل عن عنوان محاضرتك ؟".

"باختصار ، أزعم أن مانويل الثاني كان الإمبراطور البيزنطي الأهم ، وإنما الأسوأ حظاً".

"قدّم هـ. ج. بيك فرضية أن مانويل كان أحد الأباطرة الأكثر وقاراً وتقديراً ؛ حتى من قبل أعدائه ، ويبدو أن ستيفن رونسيمان يتفق معه. سأحضر بالتأكيد وأستمع إليك".

"إذاً ، هل هناك إمبراطور بيزنطي هامشي تحبه كثيراً ؟".

"لقد أحببت دائماً سلالة بالايولوجي. وإذا أردت اختيار إمبراطور منها ، فسيكون

قسطنطين الحادي عشر".

"هل يمكن أن أسأل عن السبب؟".

"يمكن أن أذكر عدداً كبيراً من الأسباب، لكن الأفضل على الأرجح... قرابة الدم".

بدأت الشابة تضحك، وطيلة حياتي، كانت أول امرأة - باستثناء الغانيات - جعلتها تضحك، وهي أكاديمية لم أتمكن حتى من رؤية وجهها كاملاً (تساءلت عن لون عينيها). عندما سلّمتني بطاقتها، رنَّ هاتفها الخلوي، وفهمت من حقيقة أنها بدأت تتكلم بالإيطالية بغنج أنه حبيبها. اكتشفت بسرعة كفاية أن د. ميسترال سابونتزاوغلو أستاذة مساعدة في الآثار الكلاسيكية والتاريخ في جامعة ستوكهولم، ووالدها أو جدها كان من إحدى الأسر التي شُرّدت من الأناضول؛ كما استنتجت من تعديل لقبها "صابونكواوغلو" ("ابن صانع الصابون" بالتركية) مع الأبجدية اليونانية. لم يدم حديث د. سابونتزاوغلو الهاتفي طويلاً، وعندما ذكرت ظنّي، قالت: "نعم، أنت محق. كان أبي كوستاس من أهل إدرميت، وأمي سويدية، لكن اسمي لا علاقة له بميسترا".

"ألم أعرف هذا؟ بدقة أكبر، أعرف عن الرياح التي تظهر في قصائد، والريح الشمالية الباردة والعنيفة التي تهبُّ من شمالي غربي أوروبا وصولاً إلى المتوسط إنما هي كلمة شعرية جميلة. اشتريت مرة كتاب قصائد لغابريلا ميسترال لهذا السبب، ثم عرفت أنها فازت بجائزة نوبل عام 1945".

عندما تطفّل أحد مساعديها على المشهد، كنا نتصافح على احتمال اللقاء مجدداً في إسطنبول.

á á á

مشيت مع فريقي إلى كنيسة القديس نيكولاس المجاورة، وأردت رؤية ردة فعل نومو على اختياري كنيسة سانتا كلوز لتكون موقعاً لفك شيفرة الدليل.

ستكون المحطة الثالثة دير سوميلا الذي لم أزره من قبل، وقد نُحِتَ في جبل خارج مسقط رأس أسلافي؛ طرابزون. بدا سوميلا الذي رأيته على بطاقات بريدية وفي أفلام وثائقية مثل قصر كرتوني. عندما كنت في المدرسة الإعدادية، طلبت مرة من جدتي اصطحابي

إلى هناك، فقالت: "بني، هل أنت مجنون؟".

كنا قد أنهينا جولتنا باكراً في ميسترا، لكن في اللحظة الأخيرة قررت زيارة كنيسة القديس ديمتريوس، حيث أُقيمت مراسم تتويج قسطنطين الحادي عشر في 6 كانون الثاني 14. شعرت بقشعريرة لوجودي داخل المكان المقدّس الصغير: أن تكون إمبراطوراً متوجاً في بيزنطة يعني أن تتلقى حكماً بالموت غير محدد التوقيت. منحت أعضاء الفريق ساعة واحدة لزيارة صروح من اختيارهم، وفضّل باباس وكاليغاس البقاء معي، في حين أراد أسكاريس رؤية الكنيستين المهجورتين على الطرف الجنوبي للبلدة.

توقفنا في إسبارطة للاستراحة في مقهى بالايولوجي؛ كان الاسم كافياً لنا. بدا المكان مثل ملتجأ من القنابل، والتلفاز يبث عرض قناة أزياء، وكانت رؤية الزبائن الذكور وهم يتابعون بشغف عرض بزات السباحة أمراً مسلياً. لو أنني رأيت المزيد من الرجال بشوارب في الحشد، لكنت قد أقسمت إنني في تاير أو برغاما على إيجة التركي.

قلت: "باباس، استدعِ النادل ليأخذ طلبنا، واسأله إن كانوا يقدّمون حسماً لأفراد أسرة".

ضحكنا جميعاً عالياً.

في وقت ما ، إذا اقتنعت أن كلمة "لاز" - اسم قبيلة محلية محط دعابات وطنية - لن تخرج ، فسأقرُّ أنني جئت من طرابزون التي أسّسها ميلتوس في القرن السابع قبل الميلاد على أنها ترابزوس. على خريطتي أو رسمي العتيق ، عرفت أنني سأجد ترابزوس على البحر الأسود (عندما فصلتها أول مرة إلى كلمتين "ترابز"="أرجوحة البهلوان" و"وس"="نحن" ، شعرت بالرضا ؛ وكأنني حللت أحجية صعبة). بعد استيلاء اللاتينيين على القسطنطينية ، كانت كلمة "بونتوس" هي اسم الإمبراطورية الباقية وعاصمتها طرابزون ، وبدت مثل كلمة سر ، وشكّل استقلالها الشديد الذي دام حتى عام 1461 حين استولى العثمانيون عليها أخيراً إزعاجاً متواصلاً لبيزنطة.

بعد استقرار جدي في غلطة لم يعد نطق كلمة "طرابزون" مسموحاً. وبعد عشرة أعوام من وفاته ، ذهبت مع جدتي إلى المدينة التي هجرها بسبب كارثة مالية. كانت طرابزون محصورة بين تلّتين والبحر الأسود ، لكنها بدأت تتسلل خارج هذا الطوق نحو الجنوب والغرب ، وتجثم آنذاك مكان قصر الأسرة المجاور لمتحف أتاتورك الذي يطلُّ على البلدة من علٍ ، ثلاثةُ أبنية شقق سكنية ، ولو أن إوجينيو رآها لقال: "كينغ كونغ وحده يمكن أن يكون مخطط هذه المأساة". لم أجد في الأعمال الجصية الخارجية الخضراء والأرجوانية الباهرة إلا بهجة كاريكاتير فقط.

بالكاد استطعت أن أتحمّل أسبوعاً من الضيافة في منزل سامية قريبة جدتي. وكانت ردهة الأرملة التي لم ترزق أولاداً حقلاً من نباتات في أُصص ، ولديها كذلك قطٌّ مشاكس يدعى "سمسم" ، وتقدم باستمرار الطعام للجميع وإذا رفضوا تتألم ، وقد آلمني رأسي في كل مرة رشّت فيها عطراً على يديها. كانت تتكلم إلى نباتاتها وقطها بنبرات مختلفة ، وتتجشأ بصوتٍ عالٍ قبل أن تخلد إلى النوم.

في أثناء تلك الرحلة الأولى قررت بفخر أن زيارة طرابزون مثل العودة إلى العصور القديمة ؛ ففيها تحصينات من ميلتوس ، وقناة وكنيسة من بيزنطة ، ومسجد وحمّامات وعدّة قصور من العثمانيين ، ولم أُصطحب إلى أي منها. لم تكن سامية وجدتي تدركان وجود مثل

هذه الصروح ، وتخيّلت أن جسري طبخانة وزاغنوس علامتان تقسمان البلدة إلى شطرين علوي وسفلي ، ونقلت إليهما تحيات من برج غلطة. ذهبت إلى هناك لأجلس وأراقب المارّة ، وافترضت أن نصف الذكور من السكان البالغ عددهم 200,000 نسمة قد خرجوا لصيد الأسماك. بدا أن أصحاب المحال الذين يغفون دوماً في أثناء العمل يرفعون رؤوسهم حين يمشي أولئك الرجال في الشوارع ويغالون في تحية بعضهم بعضاً. وكان الأكثرَ ظرفاً الرجال مقوّسو السيقان ذوو الأنوف الشبيهة بمناقير النسور. احتفظت بسجل يومي عن هذه المشاهدات ، ومن موقع متحف أتاتورك سيرتفع الصوت الرقيق لكيمنس ؛ الكمان الصغير الذي يعدُّ الأداة الشعبية للإقليم ، وسيزداد حدّة حتى يشبك كل أهل طرابزون أيديهم ويرقصوا هورون معاً. وكوّن ذلك شريط الفيديو في ذهني في طريق عودتي إلى إسطنبول.

في صيف عام انتسابي إلى المدرسة الثانوية ، قدّم لي أوجينيو دراسة عن طرابزون ، وقرأت ذلك الكتاب الموسوعي وكأنني أدرس لامتحان نهائي في موضوع اختياري. لم تكن نقوش طرابزون من القرن التاسع عشر تختلف كثيراً عن مدينة حكايات خيالية ، وبرزت شواهد القبور في مقبرة عمارة مثل دراويش يستعدون للدوران. وفي صور التُقطت من شاطئ البحر ، كان الجو الكئيب للمدينة واضحاً. بدا أهل طرابزون في تلك الصور الباهتة وكأنهم قد اجتمعوا من أجل حفلة تنكّرية ، وراقبت إطاراً بعد آخر مواطني بلدي وهم يحدّقون إلى آلة التصوير بعيون متشككة ، وأعادني تعاقب الصور إلى ذكريات الجسر من زيارة طفولتي. كانت كل أمة حكمت سابقاً ذلك المكان قد تركت صروحاً حجرية خلفها ، وكذلك آثاراً في الناس الذين لا يزالون يشربون من النوافير. ومن بين أولئك الناس رجال ونساء ذوو وجوه طويلة. ظننت أنني أعرفهم من لوحات جدارية بيزنطية ، والميزة المشتركة للرجال هي العناد الظاهر في عيونهم ، وعرفت أين قد رأيت ذلك الموقف من التحدّي العَرَضي: في شكل السلطان سليم الأول - سليم المتجهم - الذي شغل منصب حاكم طرابزون.

لقد نُحت دير سوميلا باليد في جانب الجبل ، وبدأ التشييد في القرن الرابع ودام ألف عام. اعتدت دفع مخيلة طفولتي إلى أقصى حدودها بالنظر ملياً إلى البطاقات البريدية لسوميلا ؛ إذا لم يكن يتحلّى بشجاعة بهلوان يمشي على حبل مشدود ، فهو مهيب مثل

قصر رومانسي على جانب جرف. أخبرت نفسي أنني سأنتقل جواً يوماً ما إلى طرابزون لأتعرّفها، وسأعود من دون الذهاب إلى مركز المدينة هناك، ولم أرغب بإيذاء مشاعر جدي؛ أحببته أكثر بقليل مع كل دعاء رفعته زوجته وابنته من أجل لعنه.

á á á

آنذاك بعد عشرين عاماً، ومجدداً من أجل عدم إيذاء روح أحد أسلافي، كنت في الجو فوق طرابزون. أخبرت جدتي أن لدي اجتماع عمل في أنقرة؛ لأنها ستشعر بالريبة إن كنت قد سألت عن قريبها في طرابزون. عندما وصلنا إلى المدينة من المطار، كانت كلمات مثل "بالاوس" (مجنون)، و"كامبوس" (حشرة)، و"زازال" (أحمق) تتراقص في رأسي على لحن يجمع يونانية بونتوس مع تركية سامية. إذا كنت أكتب رواية، فلن يُفتن بطلي على الأرجح بالمرأة التي تؤدي دور سامية، لكن انتابني بعض القلق بشأن حياتي الخاصة التي انسلّت آنذاك خارج حدود رواية.

إذا احتجت إلى إقناع نفسي أنني لم أكن أحلم بكل هذا، فبإمكاني أن أستدير وأنظر إلى أسكاريس وهو يتبعني مثل كلب شارع واهن. وجدته غريباً جداً، ما جعلني لا أرغب بمعرفة أي شيء عن حياته الخاصة. فهمت من سلوكه حين اقتربنا من طرابزون أنه لم يكن يعرف المدينة جيداً، وذكّرتني لحيته الكثّة بصورة جدي الأخيرة في ألبوم الأسرة، وكنت واثقاً أنه أطلقها لتمويه رأسه الأصلع تقريباً، وأنفه الطويل، وعبوسه، والنظرة المستنكرة التي تطلّ من عينيه الكبيرتين اللتين يحدّق بهما إلى آلة التصوير؛ ربما كانت تلك أيضاً علامات عن شخصيته.

عندما واجه جدي صعوبات في جامعة باريس، انتقل إلى قسم الاقتصاد في كلية للمهاجرين في جنيف، واعتبرته ابنته حالماً كسولاً ورجل أعمال فاشلاً، في حين ظنّت زوجته أنه رجل لا فائدة منه، يتردّد على نوادٍ ومطاعم، ويذهب في "رحلات عمل" إلى الخارج في كل فرصة ممكنة. من ناحية أخرى، عرفه قاطنو غلطة على أنه رجل نبيل ومحب للخير، وقد نسيت أي جَوّاد كان جدي، لكن بدا واضحاً تماماً من طريقة حياته أنه لم يكن في عيون نومو أحد "المختارين". توقعت أن تكون منظمة نومو قد أمّنت له مستوى معيشة

معيّناً ، فقد حرمته من الحظ أو عدمه الذي خصّتني به.

توقف وسط طرابزون عن التقدّم 2700 عام ، ويبدو الآن مثل نهر الغانج ، حتى إن عائقاً صغيراً يعني فوضى مرورية عارمة. لفت العدد المتزايد لنساء يرتدين الحجاب انتباهي ، وبدوْنَ مثل مجموعة فتيات يافعات ببشرة عاجية قد تخلّين عن أوشحتهن وغادرن المكان عند انتهاء الفيلم.

أعجبني فندقي كثيراً بردهته وردية اللون التي تبدو مثل خيمة شيخ ، ووصلت إلى هناك في يوم لطيف من تشرين الثاني. بعد الغداء ، زرت آيا صوفيا بونتوس مع أسكاريس ، وعندما دخلنا ساحة الكنيسة سمعنا هدير البحر الأسود بين الفينة والأخرى ، وتذكرت بحر مرمرة المهيب. إذا كانت لدي رسالة أنقلها ، فسيوصلها بسطور مخربشة ترافقها ألحان موسيقية خيالية.

كانت الكنيسة البسيطة من القرن الثالث عشر قد أضحت واجهة أثرية ، وحملت شاهدة قبر بجانب غرفة السيدات اسم قمر سلطانة ؛ ابنة إمبراطور عثماني. رأيت أسرة تقارن بين تصميم المبنى ولونه وتخطيط أعماله الحجرية الداخلية ، والكنائس الأرمينية والجورجية ومساجد السلاجقة في الإقليم ، وقد أعجبني هذا. تقدّم الرسوم السقفية متعة مشاهدة لوحة زيتية ، وشعرت بدفء التجول في معرض فني بسيط في بيزنطة الريفية مقارنة بالقسطنطينية ، ولفتُّ انتباه أسكاريس إلى نقص التعبير ، إضافة إلى أخطاء الترجمة - مع الطباعة - في الأوصاف الموجودة في الكنيسة ، وقلت: "لو كنت إمبراطوراً غير منفي لعرفت ما ينبغي أن أفعله". ظننت أنني سأتعوّد الهدير حين اقتربنا من النوافذ الواسعة على الطرف الشمالي ، لكنني كنت مخطئاً ؛ فقد بدا البحر الأسود مثل نمر هائج شعر بوعيد يهدّد سيده.

كان باباس وكاليغاس ينتظران في الساحة ، فطلبت منهما الانصراف ، وأخبرتهما أنني أريد استكشاف طرابزون العثمانية. لكن ، نظراً إلى أن أسكاريس أراد التلكؤ في آيا صوفيا وقتاً أطول ، اضطر حارساي الملتحيان إلى الذهاب معي. ذهبنا مباشرة إلى الجسور العثمانية التي تقسم المدينة بين شمال وجنوب ، وبدت تلك الصروح ، التي عملت في

الأيام الخوالي على أنها سلالم إلى نفق الوقت الذي حملني بعيداً إلى المدينة العثمانية ، أصغر حجماً آنذاك. استمتعت بالمشهد قليلاً ، وبحثت في البلدة عن آثار طرابزون التي حكمها السلطان سليم اثنين وعشرين عاماً ، وحيث ولد ابنه سليمان العظيم مستقبلاً.

أولاً ، راقبت الفوضى التي تثيرها مجموعة من الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين عشرة أعوام واثني عشر عاماً وهم يمزحون مع بعضهم بعضاً في طريقهم إلى منازلهم من المدرسة. وما كان موسيقياً بشأنهم هو صراخهم على بعضهم جميعاً في الوقت عينه بتركية البحر الأسود. وما جعلها مثيرة حقاً هو طريقة استخدامهم لهجتَهم لإظهار تفوقهم. بعد مرور بعض الوقت ، بدأت حفلة الشباب الأكبر سناً ، وبدا غريباً أنني لم أستطع توقّع إن كانوا سيُنهون أحاديثهم الحادّة بشجار أو ضحكة ، فهم ينطقون كل كلمة بإيقاع خاص ، وعندما يصلون إلى نهاية جملة يقرّرون التنغيم. جاءت بعد ذلك الشابات اليافعات. كان موكبهن فوق الجسر عرض أزياء فولكلورياً ؛ فقد ظهرن في مجموعات صغيرة ، ورميْن أبصارهن بنحو شعائري على الأرض حين مشيْن أمام الفتيان. لم أشأ التفكير كيف أن باباس وكاليغاس - وهما يسيران مثل دميتين إلى جانبيَّ - سيضحيان عند الضرورة بنفسيهما لإنقاذ حياتي ، وسيضحيان ب.ي أيضاً عند الضرورة بالسرعة نفسها من أجل نومو. لم يكونا يبدوان آنذاك مختلفين جداً عن شخصيتين ثانويتين في كتاب هزلي.

انتقلنا إلى حي أورتاهيسار معاً عند أذان المغرب ، وداعب نسيم خريفي عليل وجهي ، فاعتبرت ذلك علامة لي ، وبدأت أسير ، من دون أن أسأل عن المكان أو السبب ، حتى شعرت فجأة بقدمي تتسمّران إلى الأرضية. بدا الأمر وكأنني أضع نظارة مشكال ، فوقفت محدّقاً ومفكّراً أنه إذا لم تكن كلمة سر مطلوبة مني ، فهل يعني هذا أن هناك رسالة وشيكة ؟ بدأ رأسي يؤلمني ، وتسلل التعب إلى خلاياي ، ثم رُفعت الستارة الرقيقة من الضباب قبالتي ببطء ، ووقف أمامي صفٌّ من الأبنية البيزنطية والعثمانية والجمهورية كتفاً إلى كتف ، تقاوم الوقت والبشرية وتطلق تحدّياً.

في هذا الحي المضغوط في قطعة أرض ضيقة وشديدة الانحدار توجد أبنية مهيبة أخرى تظهر احتراماً للطبوغرافيا ، وتشبه الرسوم الخارجية الباهتة للمنازل البديعة التي أردت

تسميتها "قصوراً صغيرة" اللوحاتِ السقفيةَ في آيا صوفيا وردهة الفندق الهادئة. شعرت بارتياح أكبر حين مشيت في تلك الدروب الضيقة ، متجاوزاً نافورة جافة تحمل نقشاً مثل "كل وفاة وفاة باكرة" ، وحظيت برفقة كلاب الشوارع ، واكتشفت أن الشوارع مسدودة عادة بأشجار تين برية. استمتعت في تلك الشوارع الهادئة مجهولة الاسم بالصمت والسكون ، ثم ازدادت السماء عتمة ، لكنني شعرت أن كل زاوية منارة بضوئها الخاص.

أقحمت رأسي في مسجد أورتاهيسار ، وراقبت الناس وهم يؤدون الصلاة. في أثناء القرن الثالث عشر ، عندما كان هذا المسجد كنيسة بانايا كريسوسيفالوس ، أقام ملوك بونتوس مراسم تتويجهم فيها. أثارت فضولي لوقت قصير - في صف أطفال تتراوح أعمارهم بين السابعة والثامنة في الخلف - رسالة باهتة بالإنكليزية على كنزة أحدهم لا يمكن قراءتها بسهولة.

استرحنا بعد ذلك في مقهى للرجال المتقاعدين ، حيث من لا يمج لفافة تبغه يحرّك حبّات مسبحته ببطء شديد. انتابني بعض الارتباك من لازمتهم العالمية "أهلاً" حين دخلنا عبر الباب ؛ وكأنهم يقولون "آمين". وبدا الذين يحملون مسبحات مرتبطين بشيء بين السعادة وعكسها ، ويتوقعون أنباء ما. في طريقنا إلى الخارج ، رأيت نشرات إعلانية لرقصة هورون على نافذة متجر أقراص مدمجة بجانب محل طباعة أعلن عن تأسيسه عام 1901 وكأنه يرسل نداء استغاثة ، ونظر شاب عند البوابة إلي بعينين تقولان: "لا صفح عن الأخطاء".

يمكنني التعبير عن خفة الكينونة التي كنت أشعر بها بجملة واحدة: "أنا أُنقل على متن مركب ملكي إلى مجمّع الدير". وكان تحذير بأن نومو لن تحب هذا قد هُمس في أذني: المهمة الحقيقية هي إتقان إنجازات كل من البيزنطيين والعثمانيين. كنت في طرابزون في منتصف الطريق بينهما ، وإذا كنت أخضع لاختبار ، فقد بدأت أزداد فضولاً بشأن لجنة الامتحان ، وأدركت أنه سيكون شأناً بيزنطياً حقاً إذا كانت نومو تحاول التغلّب علي في مبارزة. لقد قيل إن "سوميلا" مشتقة من "ميلاس" ، وتعني "ظلمة" باليونانية ، وأنا أحب الظلمة ؛ فلكلّ درجة منها نكهة مختلفة ، وأعرف هذا من الشعر.

á á á

أعلنت لنفسي بتنهيدة أنني إذا كنت أؤلف رواية وسمعت أن متن‌زه ألتيندري الوطني يبعد نصف ساعة فقط عن طرابزون ، فسأتابع الكتابة أربعين دقيقة. شعرت بأنني أسعى خلف أنواع محمية حين قرأت أن دير سوميلا موجود داخل المتن‌زه.

كنت مع ثيو باباس في قافلة من سيارتين تتحرّكان في الصباح الخريفي المشمس ، وقد بدأت أتفق مع الحارس الشبيه بالمصارع ، والذي لم ين‌زعج أبداً من دعاباتي ؛ ربما لأنه لم يفهمها. قرّرت ألا أضايق أسكاريس لذا لم أقل - بعد - "هل وُظّف هذا الرجل لأبقى من دون حماية ؟".

كانت الطريق رائعة ، ومملوءةً بهجة وحيوية ، تحت سماء صافية ؛ باستثناء مجموعات غيوم. رأينا أبنية هشّة كفاية لتنتمي إلى مجموعة كرتونية ، وربما قد نمت من أعشاب حملتها الريح. تجاوزنا امرأة قروية في منتصف العمر مع كومة مكانس على ظهرها ، وبقرة نحيلة على كلا جانبيها. وكانت البقرتان تمشيان مع المرأة بالخطوة ذاتها ، وتهزّان رأسيهما يميناً ويساراً بالإيقاع نفسه ، على الأرجح كانتا تفكّران في الشيء عينه الذي تفكّر فيه المرأة أيضاً.

عندما اتجهنا جنوباً ، ازداد كل من الارتفاع والهدوء ، وحيَّيت سيادة الصمت باحترام. وجدت حماسة بائع التذاكر عند مدخل المتن‌زه في غير مكانها تقريباً. على كل حال ، لو أن أسكاريس كان بجانبي ، لقلت شيئاً مثل: "هذا الرجل مثل مانح رعاية يربك المريض". صعدنا طريقاً متعرّجة تصبح أكثر وعورة كلما ارتفعنا ، ووصلنا أخيراً إلى موقف سيارات ؛ حيث تجثم حافلة صغيرة متهالكة من البلدة المجاورة. كانت أشجار سنديان ضخمة تظلل ألتندري ، وقد لفت انتباهنا التوازن بين المساحة الخضراء الشاسعة والصمت المطبق ، وبدا الشعور أن بمقدوري الطيران إن أغمضت عينيَّ مثيراً. ويعدُّ المتن‌زه بالتأكيد محطة الدير نحو السرمدية. آنذاك فقط تقابلت وجهاً لوجه مع الجبل نفسه الذي يرتفع 4000 قدم فوق سطح البحر ، ولمع سوميلا مثل لوحة عملاقة معلّقة من القمة ، ولم أستطع إبعاد ناظري عنه ، وفكّرت: هل يصبح الدير أكبر كلما طال تحديقي إليه ؟

كان عملاً معمارياً ارتفاعه خمسون قدماً وطوله 120 قدماً ، مع فن قوطي ينسجم مع

البيئة. ووجدت نفسي مرة أخرى أتساءل عن كيفيّة بناء هذا الصرح على حافة جرف بمرور ألف عام ؛ ما جعلني أخجل من شهاداتي الهزيلة. عرفت أنني سأعثر على المربع الأرجواني الثالث في أحد موقعين حين أدخل مجمّع المباني بعد نصف ساعة ، وسأكون قد أنجزت عملي. توصّلت إلى تفاهم أفضل مع نفسي حين فكّرت بالطريقة التي استطاع فيها الجنس البشري - بإيمانه وأظفاره - إزالة أربعين قدماً من جبل ، وإذا كنت أتلقى بهذه الوسيلة نوعاً من التدريب الروحي ، فسأدين بالشكر للجنة الامتحان.

وفقاً لأسطورة مقبولة عموماً ، ظهرت مريم العذراء في أحلام قسّين أثينيين وأمرتهما بإنشاء موقع مقدّس في جبال طرابزون السوداء (عندما يُذكر اسم مريم ، يجعلني الاسم أفكر أن بولص الرسول ، من جنوبـي تركيا ، حامل راية النصرانية ، لم يُكرّم كما ينبغي). أحضر القدر القسّين اللذين كانا قريبين إلى سفوح هذه الجبال بعد رحلة شاقّة ومجهدة ، ونحتا كنيسة صغيرة في الصخرة الضخمة ، وبقيا هناك حتى نهاية حياتيهما ، وتوفيا في اليوم نفسه. تولّى الرهبان المحليون بعد ذلك زمام الأمور ، ونمت الكنيسة النائية تدريجياً ، وتحوّلت إلى مركز إقليمي. وفي القرن السادس ، ألقى الإمبراطور البيزنطي جستنيان ثقله خلفها ، وانتهت مدة الصعاب في القرن الرابع عشر بمساعدة أباطرة بونتوس ، وأضحت سوميلا آنذاك مركزاً دينياً عالمياً. في القرن السادس عشر ، عندما جُرح سليم في رحلة صيد في الجبال القريبة ، عالجه رهبان الدير ، ومنذ ذلك الوقت أصبح الدير تحت حماية العثمانيين. على كل حال ، مع إعلان الجمهورية عام 1923 ، فقد الدير مكانته وهجره الرهبان ، وبدا طبيعياً أن يُنسى على جبله حتى الثمانينيات ؛ حين بدأت عمليات الترميم.

كانت الدرب المؤدية إلى الدير محاطة بمناظر طبيعية ، وصعد كل شخص منا بمفرده ، مصغياً إلى صوت مياه نبع يتردّد صداه مثل إشارة تحذير ، ويُغيّر أنغامه عند كل منعطف. خضعت الدرب لحراسة أشجار ضخمة ، وبدت جذورها القوية التي تمسك الأرض مثل أخطبوط كما لو أنها تقول: "أيها الرحّالة ، كل خطوة تقطعها تحت حمايتنا".

وجدت نفسي في العصور الوسطى حين دخلت عبر البوابة الرئيسة ، ورأيت إلى يسار الدير فسحة مكشوفة مثل ساحة ، وحولها عدد كبير من المباني الصغيرة إضافة إلى كنيسة

ومُصلّى ، وصدّقت أنها قد بُنيت من حجارة اقتلعت من حضن الجبل. أولاً ، دخلنا الدير بطوابقه الخمسة وحجيراته الاثنتين والسبعين ، ورأيت قربه ما بدا أنه مستشفى صغير إلا أنّه لا يخلو من مكتبة ، وقبو وسجن ، ويمكن أن يصبح باستثمار صغير أروع قصر على الأرض. عندما تنظر إلى الأسفل من الرواق المعمّد ، يغمزك منحدر ينخفض ألف قدم ، وكل زائر سيهتف بالتأكيد: "لا بد أن هذا هو الفردوس" ، حين يرى السماء الزرقاء الصافية التي تُعزف تحتها السيمفونية الرائعة لجدول متدفق في الغابة البكر.

كان ركّاب الحافلة الصغيرة التي يحمل مصدّها لصاقة تقول "لا تتبعني! ستندم!" مجتمعين في الساحة ، وهم كهول وشاحبو البشرة وغير سعداء بالجولة. وسمعت إحدى النساء تعنّف زوجها لإحضارها إلى هذا المكان. بدأت جولتي القصيرة في المصلّى وانتهت في الكنيسة ، المنحوتة بالصخر ، ورأيت ما يصل إلى اثنتين وسبعين لوحة جدارية في الكنيسة ، وعشرين أخرى في المصلّى. كانت المساحة الضيقة تعني أن اللوحات غطّت كل جدران المباني الحجرية في الداخل والخارج ، إضافة إلى سقف الكنيسة. فعلى امتداد ألف عام ، رسم الفنانون الكتاب المقدّس كله ؛ مثل رواية تصويرية. وقفت في المكان المقفر ، ونظرت ملياً إلى الصور - بمتعة مشاهدة معرض فني - التي لم تعكس أساليب فترات زمنية متنوّعة فحسب ، وإنما المهارات المختلفة للأساتذة والممتهنين ، وعند النظر إلى الرسوم التي لم تُطمس بعد والعيون البارزة لقديسين ، يبدو واضحاً أن المرممين أدّوا عملهم على أكمل وجه.

أنهينا جولتنا التمهيدية ، ودخلت المصلّى متضرّعاً ، وأنا أمسك بقوة كتاب مراجع يحلل اللوحات وفقاً لموضوعاتها. تفحّصت المكان كله ، بوصة بوصة ، من "ميلاد المسيح" إلى "أهوال الجحيم" ، وبدا واضحاً أن المربع الأرجواني لم يكن في المصلّى. حسناً إذاً ، ينبغي أن يكون في الكنيسة المنحوتة بالصخر ، والتي يعتبرها بعض الناس المكان الأكثر قداسة من الناحية الرمزية في النصرانية. نظرت ملياً إلى لوحات الكنيسة ؛ أولاً من إحدى الزوايا ، ثم من زاوية أخرى ، وتفحّصت "عيد التجلّي" و"تعويذة الشيطان" نقطة بعد أخرى ثلاث مرات ، و"أسدا الدير" و"يوم الدينونة" أربع مرات ، ووجّهت يائساً نور مصباحي إلى السقف

والجدران العالية، وبحثت حتى ارتعشت يداي وزاغ بصري، ولكن من دون طائل.

ظننت أنني سأنجز المزيد من العمل في المساء، وأعود في اليوم التالي، زائراً دارَي العبادة مجدداً والدير المكشوف لأول مرة (بدا واضحاً أن الأبنية الخارجية تبقى موصدة)، لكنني شعرت بطريقة ما أنني سأخرج من هذه الرحلة خالي الوفاض. رغم هذا، لم أرغب في الاعتراف بأنني قد فشلت في الامتحان، ولم يخطر ببالي إلا نظرية مؤامرة اشترك فيها جدي على الأرجح. كان أي شخص ينجح في الاختبار سيصبح رئيس نومو، وسينفّذ المهمة الأخيرة في الوصية، وعندئذ يستطيع تفكيك التنظيم. لذا، بدا ممكناً تماماً أن تكون المنظمة قد اتخذت تدابير وقائية لإقصاء مرشحين واعدين وتفادي مثل هذه الكارثة. ظننت أنني بانتهاء رحلتي الحلم في طرابزون، مسقط رأس جدي، ستكون نومو قد أكملت دعابتها الصغيرة معي، وسيحين وقت إنهاء إجازتي من دون راتب والعودة إلى طلابي، لذا غادر الإمبراطور قسطنطين الخامس عشر، في المنفى ومرهقاً، كنيسة الصخر.

منتظرين في الساحة، كان أعضاء الفريق في حال قلق، وقد نقلت آنذاك النبأ السيئ بهزّة رأس حين اندفعوا نحوي. رأيت على وجه أسكاريس تعبير الانزعاج ذاك الشائع لدى أساتذة قد فشل طلابهم في امتحاناتهم النصفية، وقلت وأنا أربت على كتفه: "سنعود غداً، لكنني لا أظن أن حظي سيتحسّن". أبقى باباس بصره على الأرضية وبدا أنه يحاول ألا يبتسم، فجرّبت التخفيف من وطأة الموقف بإمساك لحيته بكلتا اليدين والقول: "عجباً يا ثيو، هل طلبت من نومو إقصائي في مسقط رأس جدي؟".

بعد الغداء في طرابزون، قررت أننا ينبغي أن نسلك طريقنا بمحاذاة الساحل ونعود عن طريق أرتوين على الحدود الجورجية، وخططت للاستفادة من هذه الرحلة شرقي البحر الأسود لأستجمع شتات نفسي، وأراجع ملاحظاتي حين نعود. لكنني أردت أولاً التوقف في الفندق لأنفض عني التعب وأتخلّص من حقيبتي، وعندما فتحت باب غرفتي ورأيت المغلّف الأرجواني الصغير على المشجب الأيمن، توقف خفقان قلبي، ولصدمتي ودهشتي، وجدت المربع الأرجواني داخله! أخفيت المغلّف في محفظتي، وعدت مسرعاً إلى الفريق الذي ينتظرني في الردهة، وأخبرتهم بما جرى، وقرّرنا جميعاً إبقاء الأمر سراً عن إدارة

الفندق؛ نظراً للمخاطر المحتملة. لتقييم جدّية الموقف، أخرجت العلبة الفضية من محفظتي، ووضعت المربع في الشق الثالث، فسمعنا صوت طقّة، وبعد عشر ثوان برزت في المستطيل المقابل عبارة "قصر المجمع المسكوني الأول لنيقية، إزنيق".

هل كانت هذه دعابة أم مكيدة ملكية؟ استدرت إلى أسكاريس وقلت: "لن أذهب إلى إزنيق، أو حتى إزمير إلى أن أتكلم مع نومو". شعرت بالعصبية حين رأيته يتبادل نظرات ذات معنى مع كاليغاس، فقلت موبّخاً كليهما: "لا أعرف بمن ينبغي أن تتصل يا أسكاريس، نومو أم سيدك، لكنني أعرف جيداً أنني أريد جواباً من نوعٍ ما الآن!". أمسك الرجل ذو الوجه النحيل هاتفه الخلوي، وابتعد عنا من أجل - على الأرجح - أن يتكلم مع أحد رؤسائه، وحصل على رد بأن شخصاً ما سيتصل بي بعد ساعة. ركبنا شاحنة مغلقة مستأجرة واتجهنا نحو أرتوين، وعندما وصلنا إلى هوبا تلقينا اتصالاً، فطلب أسكاريس من السائق التوقف جانباً، ثم خرج وتكلم عبر هاتفه بإيجاز، وبدا مسترخياً حين عاد.

"جلالتكم، يطلبون منكم المتابعة. لسوء الحظ لم أُزوّد بمعلومات أخرى أنقلها إليكم".

وعندما رأى شفتي تتلوّى، شعر بالحاجة إلى المضي قدماً. "جلالتكم، هل تسمحون لي بتقديم تفسير موجز من طرفي؟".

"إذا تركت الجواب المزيف الذي حصلت عليه من الهاتف وأوجزت في أربعين كلمة، فلا بأس بهذا".

"جلالتكم، هذا تقويمي الشخصي. برأيي، لقد تعرّضتم لاختبار شخصية، ولو أنكم شئتم لكنتم قد أخفيتم حقيقة أن المغلّف قد تُرك في غرفتكم، وأعدتمونا جميعاً إلى سوميلا وتظاهرتم بالعثور على المربع الأرجواني هناك. لم يكن بمقدور أحد أن يزعم أنكم قد فعلتم شيئاً خاطئاً، لكن بتعريضكم نفسكم لخطر الإقصاء، كشفتم الحقيقة".

"أسكاريس، لقد تحدّثت بما فيه الكفاية. هل تصدّق حتى ما تقوله؟ أسبابي للخروج من هذه اللعبة أقوى من أسباب بقائي فيها. لكنني سأبقى؛ ربما لأنني أرفض الانسحاب في وسط امتحان، وربما لأنني لن أمانع أيضاً في رؤية إزنيق".

استرخيت في رحلة عودتنا، وعرفت أن سر المغلّف سينجلي كما افترضت؛ إما في

الوقت المناسب أو بتسريب من نومو. وعندما لاحظت أن الفريق مسترخٍ أيضاً قلت: "أيها الأصدقاء ، أريد منكم سماع قصيدة لكاراكا أوجلان ؛ أعظم شاعر - في الماضي ، أو الحاضر ، أو المستقبل - قد أنبتته هذه التربة. سيترجمها أسكاريس إلى الإنكليزية ، ثم كاليغاس إلى اليونانية ، وسيوجز باباس ما قد فهمه. سيجد من يفشل منكم نفسه في البحر الأسود".

كانت إحدى القضايا التي أزعجتني في المدرسة الإبتدائية هي فشل المواسم في الالتزام بالتقويم. وبالنسبة إلي، تعد فضيحة ألا يبدأ الشتاء في نصف الكرة الشمالي في 1 كانون الأول وينتهي في 28 شباط. وعندما اقترفت خطأ سؤال جدتي عن سبب هذا، جاء الرد: "هذه الأمور يقرّرها القدير، لا التقويم".

في حينا، وفقاً لأوجينيو، تتكوّن الفصول الأربعة من الأمس، واليوم، والنهار، والليل، وأي شخص يضع نظرية مثل هذه سيكون من أهل غلطة الأصليين طبعاً. لكنني عرفت أنه أراد بهذا النوع من التفكير أن يضعني في مزاج امتحان، ولهذا بالضبط بدأت أحل أحاجي وألغازاً، مع نفسي على أنني منافس وحكم معاً. لو أن رياحنا تهبُّ بقوة في الأرجاء، ما كنت لأحب كانون الأول. لكنْ عندما كنت طفلاً، أضحت تلك الريح العليلة المؤتمنة رقم اثنين على أسراري، وطبيعي أنني لم أقرَّ هذا علانية؛ لأن تريستان سيشعر بالحسد. في أحد الأحلام التي أخفيتها عن الجميع، كانت أم كل الرياح هي البحر وأبوها الظل، والظل الغيور ابن حب الشمس والقمر الذي هجر البحر مراراً، لكنه لم يترك الريح تبقى أيضاً. نعم، إنها سرمدية طالما بقيت الشمس مشرقة.

كانت الرياح هي الحمام الزاجل للوقت، وتنقل رسائل من البحيرات إلى الصحارى، ومن الغابات إلى الجبال، والأهم من مبنى قديم إلى آخر. عندما انحدرت من غلطة نحو منزل أوجينيو الشبيه بمتحف، كان ذهني يضجّ بهذه الأشياء، وبدا البرج خائب الرجاء قليلاً لأنني لم أقترب من أي أبنية أقدم منه في رحلتي.

قلت وأنا أسير بجانبه: "حسناً أيها الموقر، الأمور ليست كما تظن. أنا في وسط امتحان مكوّن من ستة أسئلة. كان أول اثنين سهلين جداً؛ وكأنهما دعابة، وأرغموني في الثالث على الغش".

اعترضت على إقحامي في اختبار مجهد؛ إن كان هذا ما تضعه نومو في بالها. وللتخلص من كل هذا، أعلنت أن كانون الأول شهر عطلة، وبدا رد فعل الفريق شيئاً بين الفرح والدهشة. كنت سأكرّس وقتي حتى نهاية العام لهواياتي فقط.

á á á

في ليل 8 كانون الأول كنت أستمتع بتعب سارٍّ بعد حفلة ذكرى ميلاد خيال. كانت أختي قد صرخت حين عانقتني بعد رؤية ساعة شوبار التي أحضرتها لها: "أنت أفضل أخ كبير في العالم، وتستحق أفضل فتاة على الأرض!". كان عجزي الرصين عن الشعور بالنشاط دائماً معاكساً هزلياً لحيويتها، وتذكرت الليلة التي عثرت فيها على خيال شبه عارية وهي تبكي في الشارع، وحملتها إلى منزلها على ظهري. لقد أصبحت الفتاة خضراء العينين ابنتي وأختي معاً، وساعدتني في استعادة احترامي لذاتي. وشعرت باتقاد داخلي حين عانقتها، وللحفاظ على ذلك الدفء لم يكن بمقدوري التفكير في شيء أفضل من احتساء الشراب.

قبل أن أخلد إلى السرير مع قصائد مختارة لمايكل بالمر، التي يبرز على غلافها أسدان يكادان يزأران، توثّقت من بريدي الإلكتروني. كانت د. ميسترال سابونتزاوغلو تدعوني إلى محاضرة ستلقيها في معهد الأبحاث الأمريكي في تركيا مساء 12/12/2008.

أسّس معهدَ الأبحاث الأمريكي في تركيا اتحادٌ من عدد من الجامعات الأمريكية، وتضم مكتبته اللائقة 12,000 مجلد بالإنكليزية عن بيزنطة. وبالإضافة إلى الوعد الفاتر الذي قد قطعته للدكتورة سابونتزاوغلو، إنّ المكتبة هي ما جذبني إلى المعهد قبل الساعة المحدّدة. كان القصر المتواضع في أرنافوتكوي الذي لا يطل على البوسفور على الأرجح ميراثاً من موظف عثماني غير كفؤ أو سيئ الطالع، وقضيت أربعين دقيقة في المكتبة الهادئة في الطابق الأعلى، وشعرت بالارتياح حين لم أجد ملحوظات من أب.ي في أي من الكتب الأربعين التي تصفّحتها. انتابني ملل حين سحبت معجم أوكسفور عن بيزنطة عن الرف، لذا ذهبت إلى قاعة المحاضرات قبل سبع عشرة دقيقة من المحاضرة، ورأيت خمسين شخصاً تقريباً يقفون في مجموعات صغيرة ويتحدّثون. ألقى الجمهور المكوّن بمعظمه من رجال في منتصف العمر نظرات خفية إلى الشابة الشقراء التي تقف أمام المقرأ حين سنحت لهم الفرصة، وهي تتكلم مع أجنب.ي ملتحٍ وسلجوق ألتون. كنت لا أزال في مرحلة الدهشة حين أشار صديق أوجينيو القديم بإيماءة ملحة.

قال بإنكليزيته الفصيحة: "من الواضح أنك قد التقيت ميستي مسبقاً ، في ميسترا. هذا النوع من المصادفات السارة لا يحدث إلا في الروايات ، وأنت لا تزال تصر على الشعر".

عندما أصغيت إليه وهو يتكلم بنحوٍ ممل عن عمله مع عم المتحدّثة لشركة عالمية في مكتب لندن ، وأن صداقتهما تعود إلى السبعينيات ، نظرت ملياً إلى ميسترال سابونتزاوغلو باهتمام جديد. تتصف المرأة الشقراء التي ساعدتني في بحثي عن ميسترا بعينين زرقاوين وأنف جميل ، وجبينها العالي دلالة على الذكاء ؛ وفقاً لجدتي. عندما انضممت إلى الحديث اكتشفت أنها لم تكن في الواقع جميلة إسكندنافية باردة ، وإنما واثقة بنفسها ومسترخية ، مثل شخص متوسطي. وفكّرت أن الرجال يتحمّلون غرورها بسبب جمالها. بالنسبة إلي ، لم تعجبني إطلاقاً تلك الأنواع من "كيلي الجميلة" ، وخططت للجلوس في الخلف والتسلل خارجاً عند الفقرة الثانية.

كان الأكاديمي الأمريكي الملتحي الذي يستطيع سرد دعابات بتركية فصيحة مدير المعهد بالتأكيد ، وشعرت بالانزعاج حين دعاني للانضمام إلى مجموعتهم الصغيرة في مطعم أسماك بعد محاضرة ميسترال ، وقد ابتسم فقط لدى سماعه عذري الواهي الفزع. في تلك اللحظة ، كشف سلجوق ألتون عن مخططه: "كما تعرف تماماً ، تريد ميستي رؤية بعض كنائس الأحياء البيزنطية في أثناء أسبوعين من البحث تقضيهما في إسطنبول. أعرف أنك قمت بأمر مشابه قبل وقت قصير ، وإضافة إلى هذا ، لديك بعض وقت الفراغ. أخبرتها سلفاً باسمك ، وأنك ستكون مسروراً بمرافقتها في الأرجاء". كان غريباً أن يتلاعب بي هذا الكاتب الذي لم أقرأ مؤلفاته أبداً ؛ وكأنني إحدى شخصياته ، لكن لم يكن بمقدوري الرفض. مبتسماً للمتحدّثة التي لم أشعر بأي فضول تجاه كلامها قلت: "حسناً ، أدين للدكتورة سابونتزاوغلو بمعروف". ثم جلست على مقعدٍ في مؤخر القاعة قرب الباب ، وجهّزت نفسي لأسمع عن الأداء الرائع لأحد أسلافي ؛ الإمبراطور مانويل الثاني.

من المقدّمة الرتيبة لامرأة أكاديمية عرفنا أن ميسترال حصلت على الدكتوراه من كامبريدج بعد إنهاء تخرّجها من جامعة ستوكهولم (ما يجعلها أصغر مني بعامين تقريباً). لإثارة الحماسة في الجمهور قالت د. سابونتزاوغلو: "يمكن أن تفهموا من لقبي أن أبي

كان رجلاً يونانياً من جذور أمريكية ، لكنني لا أستطيع فعل الكثير بالتركية التي تعلّمتها منه باستثناء شتم أسلافكم". وقد أطلق قولها هذا ضحكة من الأغلبية. بقيت حتى نهاية الندوة المعنونة "مانويل الثاني بالايولوجي: رجل الدولة النابغة" ، ولم تكن الدكتورة متحدّثة مفوّهة فقط ، وإنما تتقن الموضوع جيداً أيضاً. وخلبت لبّ الجمهور في جملتها الثالثة بقراءة ملحوظة تقول إن مانويل الثاني كتب عن تنظيم "المولوية الصوفية" (تساءلت عن عدد طلابها الذكور الذين وقعوا في حبها في أثناء إصغائهم إلى محاضراتها). ورغم التوكيد على إنجازات مانويل الثاني بوصفه رجل دولة ، وقائداً ، ودبلوماسياً ، وعالماً ، وكاتباً ، ولاهوتياً ، تجاهَلتْ تعامله الماكر مع البندقية ، وتكلّمت عن ابنته زامبيا وزواجها من رجل محترم من جنوة ، وتخيّلت سابونتزاوغلو خليلة أستاذ متزوج.

في الأيام الثلاثة التالية ، اصطحبت ميسترال إلى اثنتين وعشرين كنيسة أو آثارٍ من نوعٍ آخر. وفي محاولة للالتزام بجدول معين ، كنت ألتقيها عند معهد الأبحاث الأمريكي في إسطنبول في الصباح ، وأوصلها إلى أرنافوتكوي مجدداً في المساء. زرنا في اليوم الأول الكنائس المحوّلة إلى مساجد التي استكشفتها في الصيف ، وتلقينا مساعدة في العثور على أماكن أخرى على قائمتها من المرشد سوات مرت وعدّة رواة في الحي. شعرت بالإثارة حين خرجنا نبحث عن كنيسة القديس جورج التي بناها قسطنطين التاسع لتكون مكان لقائه حبيبته ، والتي أحرقتها زوجته زو بعد وفاته ، وكنيسة سوتروس فيلانتروبوس ؛ حيث لجأت الأميرة أيرين عند وفاة زوجها ، وكنيسة سيدتنا في بلاشرنيه ؛ حيث يُحتفظ بأثواب العذراء المباركة. كانت ميسترال امرأة هادئة بطبعها ، تصفر لحناً حين تحظى بفرصة للقيام بذلك ، ولم تنطق كلمة أبداً من دون سبب ، وكنت أحمل إحدى حقيبتيها ، وأقوم بأعمال الترجمة ، وأستضيفها في مطاعم صغيرة. أزعجتني النظرات البغيضة التي تأمّلها بها رجال أغبياء حيث ذهبنا ، وتضرّعت إلى الله أن يهب الرجال الذين يرافقون حبيبات جميلات الصبر. ونظراً إلى أن الغزل كان ضد طبيعتي ، ولم أرغب بأي حال بإثارة أي سوء فهم ، أحجمت عن طرح أسئلة شخصية عليها.

وجدت أسلوب عمل د. سابونتزاوغلو غير معتاد نوعاً ما ، فقد أخرجت لايكا وبدأت

بالتقاط عشرات الصور حين وصلنا إلى الكنيسة الأولى على قائمتها، ثم خربشت بغضب ملحوظات بقلم توجد على غطائه دمية مثيرة. ذكّرتني خطواتها بمراسل حربي مبتدئ، ولاحقاً شبّهتها بطبيبة تعالج مرضاً عضالاً حين مرّرت إصبعاً خبيرة فوق سطح جدار. عزوت عدم ظهور أي رد فعل منها نحو مشاهد، وأصوات، وأشخاص، وألوان بجوار الكنائس إلى ألفتها مع مثل هذه الأشياء من اليونان الريفية. بدا هناك دائماً نوع من الموسيقى الشرقية في الخلفية عند المواقع العتيقة التي زرناها. وعندما كانت تلك الألحان غير الموسيقية ترتفع من نافذة نصف مفتوحة لمنزل متداعٍ، أو متجر متهدّم، أو سيارة أجرة عابرة، كانت الآنسة الدكتورة تطرف بعينها وتتمايل مثل راقصة شرقية.

ودّعنا بعضنا بالعبارة المعروفة: "لنلتقِ في ستوكهولم في وقت ما"، لذا دهشت من البريد الإلكتروني الذي وصلني منها في الصباح التالي. كانت ميسترال تدعوني إلى العشاء لتودّعني على نحو ملائم. رداً على جوابي - "لا بأس، إن كان على حسابي" - قالت: "عرفت أنك ستقول هذا". التقينا في مطعم أسماك معتم الإضاءة على البوسفور، وضحكت النادلة حين ضربت رأسها على الطاولة ثلاث مرات تعبيراً عن إحراجها عند تذكّرها أنني نباتي. باختصار، في أثناء العشاء الذي شمل الكثير من الشراب وبعض المازة النباتية المحضّرة خصيصاً، تلاشت الرسمية بيننا، وعرفت أنها كانت في الثانية عشرة حين تطلّق والداها وانتقلت مع أمها السويدية من أثينا إلى ستوكهولم. عملت أمها في مجال السياحة، لكنها توفيت وميسترال لا تزال في الجامعة، فعاشت بعد ذلك مع أبيها. أخبرتها - ربما لمواساتها - عن دراما أسرتنا، ولم تأتِ على ذكر قصص حبها، أو تعرض علي صورة لحبيبها.

خططت ميسترال للبقاء في إسطنبول حتى 29 كانون الأول من دون خطة عمل مكثّفة، واصطحبتها في اليوم التالي لزيارة غلطة، وتناولنا الغداء في البرج. اكتشفت أنها مستمعة جيدة، وأريتها معالم المقاطعة واحداً بعد الآخر من الموقع البانورامي للبرج؛ وكأنني أردت منها أن تحب المكان. كنت واثقاً بأن أصحاب المحال التافهين يهمسون أنني قد وجدت غانية مكلفة أخرى، ونساء الحي ينهمكن في أقاويل عن أن القط قد أمسك أخيراً بالفأرة.

في طريق عودتنا من حي ساماتيا الذي لم يتغير اسمه منذ تأسيس بيزنطة ، قالت إنها تريد لقاء أسرتي ، وتمكّنت من نيل إعجاب الجميع ؛ فقد قبّلت يد جدتي ، وجعلت أمي تضحك على شيء همسته في أذنها ، وضايقت خيال بالألمانية. عرفت ما سألقاه بعد زيارتها القصيرة ، وفوراً أصدرت جدتي أوامرها: "هذه الفتاة رائعة يا بني ، تزوجها حين تعتنق الإسلام وتغيّر اسمها إلى عائشة". وضايقتني خيال قائلة: "جاءت امرأة حياتك إلى قدميك". لكنني أسكتها ، على كل حال ، بردّي: "لديها حبيب ، كما أظن".

التقيت ميسترال كل يوم ، واصطحبتها إلى جزر الأميرات وقلعة يوروس ، وإلى بائعي كتب تاريخ مستعملة ، ولم أشعر بالملل أبداً حين كنت معها. تجاوزت جمالها الجسدي وأعجبني عالمها الداخلي ، وافترضت أنها عرفت ما أشعر به. سردت مشاهد من رحلاتي لها ، وبالمقابل حجبت حكاية بالايولوجي ، وأقمنا "منافسات سخرية" ، وشاهدنا أفلاماً وأعمالاً وثائقية في شقتي ، وطهونا وغسلنا أطباقنا معاً ، وكنا مرتاحين مثل شخصين لا يتوقعان شيئاً من بعضهما بعضاً.

في صباح التاسع والعشرين من كانون الأول اصطحبتها إلى المطار ، وكنا قد تجولنا في اليوم السابق في السوق المسقوف بناءً على اقتراح سلجوق ألتون ، وتوقفنا في متجر يدعى "الزاوية الزرقاء". في هذا المتجر الصغير الغامض رأيتها تنظر إلى قلادة عثمانية ذهبية عتيقة تدعى "أرمودي" ؛ نسبة إلى الجوهرة ذات شكل الإجاصة عليها ، فاشتريتها خفية ، وقدّمتها لها حين كادت تصعد إلى طائرة ستوكهولم ، فاتسعت عيناها وقالت: "من أنت ؟ هل أنت شخصية أرستقراطية هاربة من رواية رومانسية ؟".

رغم وجود كتب كبيرة وكثيرة عن خزف إزنيق - وهذا موضوع مبالغ فيه برأيي - ليس هناك تاريخ شامل عن إزنيق نفسها. أُسّست المدينة لتكون عاصمة بيثينية في القرن الرابع قبل الميلاد، وأضحت لاحقاً عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في المنفى، فضلاً عن دورها في الإمبراطوريتين السلجوقية والعثمانية. زُيّنت المدينة بصروح تحيي ذكرى خمس حضارات، وقد بنيت مثل خوذة تتجه نحو الشرق؛ وكأن مشاعرها قد تأذت من الغرب.

عُرضت المعتقدات الأساسية للنصرانية أولاً في إزنيق - كانت تسمّى آنذاك نيقية - حين استدعى الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول المجمع المسكوني الأول في العام 325، ولم تعرض مصادري تفاصيل بشأن مكان انعقاد المجلس بدقة، في حين توقعت أخرى فقط: "ربما احتضن قصر الإمبراطور الاجتماع". ورغم أن عدّة مؤلفين أشاروا إلى استقرار سام في إزنيق بسبب طقسها الرائع بعد ترجّله من السفينة لينال قسطاً من الراحة، لم يجرؤ أحد حتى على تخمين مكان وجود قصر الإمبراطور. وجد أولئك الخبراء الذين طلبت منهم العون أسئلتي في غير مكانها، وجاءت أفضل مساعدة تلقيتها من بائع كتب مستعملة يدعى بوزانت (بالأرمينية تعني "بيزنطة")، الذي التقيته عبر سلجوق ألتون. بعد أن تحدّث مع بعض المسؤولين في البطريركية، أبلغني أن القصر كان قائماً على الساحل الجنوبي للبحيرة، وهو موجود الآن على الأرجح تحت الأمواج.

زرت مرة إزنيق مع أوجينيو حين كنت في المدرسة الثانوية، وقمنا برحلة لمدة يوم واحد في أحدٍ هادئ من تشرين الثاني. استخدم أوجينيو كلمة تركية قديمة هي موكافيم لوصف الأميال الثلاثة من الأسوار العتيقة، وشعرت آنذاك بخجل شديد منعني من السؤال عن معناها الذي بدا شيئاً مثل "قوية". ولم يكن أوجينيو يتكلم التركية أفضل من أي شخص آخر فقط، وإنما تباهى بتزيينها بكلمات قديمة وذات معنى. أعجبتني الأسوار لأنها تحوّل المدينة إلى بلدة دمية، لكن النباتات الكثيفة على كل حال تكاد تغلّف البنية التاريخية مثل ضربات فرشات عشوائية، وأعجبتني البرسيمون أيضاً المعلّقة مثل فوانيس على الأشجار القصيرة المحيطة بالمنازل.

عندما جمعت ما قرأته في الكتب مع انطباعاتي من تلك الرحلة الأولى، تصوّرت أن أي دليل قد أجده في كنيسة آيا صوفيا أو عمارة نيلوفر خاتون - أساساً مطبخ حساء للفقراء - سيقودني إلى القصر. ركبنا حافلة صغيرة بوصفنا فريقاً، وقلت لأسكاريس، الذي حُشر بجانبي: "بالنسبة إلى هذا الدليل الرابع، يُفترض أن أجد مكاناً لم يُذكر حتى في كتب التاريخ. آمل ألا تكون نومو قد أفسدت الأمر". وكل ما فعله كان حني رأسه.

ذهبنا إلى إزنيق في صباح ضبابي من كانون الثاني (كان أول ما أعجبني في المدينة هو أن عدد سكانها 22,000 نسمة فقط). ورغم أنه لم يكن يوم عطلة، إلاّ أننا لم نرَ نشاطاً كبيراً في الشوارع، وبدت البلدة مثل متنزه هادئ، والسكان يحاولون التكيّف مع الصورة. خرجت من المركبة أحياناً لأقوم برحلات استكشافية صغيرة، لكن استفادتي منها لم تكن واضحة: هل كان حافزي مسرّات السياحة أم توقع شبه واعٍ؟

كانت المباني التي لا تزال قائمة ضمن الأسوار متساوية الأبعاد، وأيٌّ منها لا يهدّد بانوراما البلدة. أكثر ما أعجبني من بين كل الكنائس، والنوافير، والمسارح، والمقابر، والمساجد، والأضرحة، والحمّامات، والمدارس كان المآذن؛ فلأنها لم تكن تتنافس لتحديد الأعلى بينها، تفادت الاحتكاك بالسماء وبدت الأكثر قداسة في الواقع. علمت أن البلدة والبحيرة لم تحملا أصلاً الاسم ذاته، وتشبه بحيرة أسكانيا بطانية زرقاء-رمادية على قطعة أرض مقفرة، وذكّرني الصفاء المنبثق من مظلة البلدة الخضراء الكثيفة بإسبارطة. فكّرت أنه رغم كل الاضطرابات التاريخية التي تحمّلتها، فقد عاشت إزنيق وقتاً طويلاً في شرنقة، وتردّدت بعض الوقت، ثم قرّرت أن الرائحة التي يعبق بها الجو هي لتين محترق. بدا الرجال الصامتون الذين ملؤوا المقاهي منخفضة السقوف وكأنهم ينتظرون نبأ. وإذا أخبرني شخص ما أنهم ممثلون هامشيون في مسرحية من الثمانينيات فسأصدّق هذا. فقد بدوا غافلين تماماً عن أنهم مواطنون في واحدة من أقدم عشرين بلدة على وجه الأرض. لم يكن بمقدورهم تسمية الكنائس التاريخية الثلاث القريبة منهم، غير أنهم بقوا على الأقل جالسين منتصبين، وبدت الدماثة المستمدة من البساطة ميزة أيضاً لقاطني الأديرة المحلية قبل استشراء الفساد.

كانت نيلوفر خاتون سيدة نبيلة من أصل يوناني ، وهي أم السلطان مراد الأول ، وتضم العمارة التي بناها باسمها متحف إزنيق منذ عام 1960 ، وتبدو الطريقة التي يعرضون فيها أعمالاً فنية حضارية من ما قبل التاريخ إلى العهد العثماني روتينية جداً ، وتقضي على الرغبة برؤية المزيد من المتحف. أعجبتني شواهد القبور الإسلامية والتوابيت الرومانية في الحديقة على كل حال. وشاهدت حشداً صغيراً من الأطفال الذين يلعبون الغميضة معاً ، وفكّرت أنني إذا استطعت تسجيل هذا في فيديو فبإمكاني عرضه في كل معرض فني حول العالم. كما توقعت ، لم تكن هناك أدلّة تنتظرني ، وشعرت بأنني أول إنسان في التاريخ يغادر هذه المؤسسة الخيرية خالي الوفاض ، وانضممت إلى الفريق مجدداً ، ثم تابعنا طريقنا إلى كنيسة آيا صوفيا.

عندما دمّر زلزال هذه الكنيسة العتيقة في القرن السادس ، بنى الإمبراطور جستنيان واحدة جديدة في المكان نفسه ، وقد تُوّج كل الأباطرة البيزنطيين في المنفى هناك ؛ في ذلك المكان الذي بدا لي مثل مصلّى ضخم. بعد وقت قصير من فتح العثمانيين إزنيق حوّلوا الكنيسة إلى مسجد ، وتولّى عملية التحويل كبير المعماريين المعمار سنان ؛ بناءً على أوامر السلطان سليمان العظيم. كان المبنى آنذاك هيكلاً يلعب دور متحف صغير ، ونقطتي المرجعية في هذا المكان المنعزل هي الأرضية الفسيفسائية ، ويحمل الأثر الحجري البالغة مساحته ألفي قدم مربعة نموذجاً مثيراً للاهتمام من الأشكال الهندسية ، ويهيمن عليه اللون الأرجواني. عندما حدّقت إلى المشكال حجراً تلو الآخر تذكّرت الكتب المرجعية التي قرأتها ، وسردت كلها تقريباً اقتباسات ، ولم يقدّم أي منها نتائج أصلية. وكنت بحاجة إلى مصادر جديدة ، وليس إلى مراجع التاريخ القديمة المجتزأة تلك (ألم أتعلّم الكثير عن العالم العثماني من قراءة شعر كاراكا أوجلان ؟). زوّدني الحارس في الكشك متردداً برقم هاتف مرشد يدعى سادات إنغور الذي جاء مسروراً حين سمع أنني سأعطيه مئة ليرة تركية في الساعة نظير خدماته. التقينا عند الحافلة الصغيرة ، وعرفت أنه مدرّس تاريخ متقاعد وإنما يبدو مثل شخصية من كوميديا مرتجلة. طرحتُ عليه بضعة أسئلة لأختبر معرفته وأساعد أيضاً في استنفاد رغبته بالكلام.

إذا تجاهل المرء سوء نطقه أسماء العلم، فإن ما أخبرني به مماثل تقريباً لما أعرفه. فقد سرد التاريخ بصدق قاصٍ، وبنبرة موسيقية أيضاً، وأغمض عينيه تقريباً، وأصبحت فقراته أطول، وحرّك أعلى جسده إلى الأمام والخلف. عندما سألت عن مكان انعقاد المجمع المسكوني الأول، سمعته تقريباً يقول: "هل أنت من الشرطة؟"، وبدا واضحاً أنه لا يقبل الفشل في حال طُرح عليه سؤال لا يملك له جواباً. قال بجفاء: "الناس يتكلمون عن قصر مجمع أو كنيسة مجمع لكن لا أحد يعرف عنوان مثل هذا المكان". وذكر باستخفاف شخصاً محلياً يدعى أستاذ رضا.

ينتمي الشخص الذي ذكره إلى أسرة قديمة في إزنيق قد انتقلت أخيراً إلى إسطنبول. درس رضا التاريخ في إنكلترا وأصبح أكاديمياً وراء البحار، وعندما تقاعد عاد إلى إسطنبول، لكنه يقضي الربيع والصيف دائماً في إزنيق، وهو عازب دائم. بسبب زعمه أنه الأكثر معرفة على الإطلاق حين يتعلق الأمر بتاريخ إزنيق، لقّبه سكان البلدة "أستاذ"، وأقسم إنه سيكتب يوماً ما التاريخ النهائي للمكان، لكن لم يأخذ أحد كلامه على محمل الجد لأنه سكّير. تكلم سادات إنغور مطولاً عن المكان الذي ربما عُقد فيه المجمع المسكوني الأول، لكنني قاطعته وقلت: "هل يمكنك أن تزوّدني رجاءً بعنوان رضا بيك؟". فرد بنبرة شماتة: "توفي قبل شهرين".

ذهبت إلى النُّزل حيث أقام الأستاذ رضا حين كان في إزنيق، وبدا أن شخصاً ما قد قال لموظف الاستقبال: ريكاي "ابتسم باستمرار"! إن قضيت ليلة في هذا النُّزل العتيق، فسأتمكن على الأرجح من استخلاص بعض المعلومات عن الأستاذ رضا من ريكاي الذي يبدو مثل شريك في جريمة. كان نُزل أسكانيا مبنى بشعاً من ثلاثة طوابق على الساحل الجنوبي الشرقي للبحيرة، وبدا أنه قد شُيّد لتخريب الانسجام الرائع بين البحيرة والطبيعة؛ يصح هذا أيضاً على كل المباني الأخرى التي شُيّدت على عجل بمرور الأعوام الخمسين الأخيرة. لا بد أن الرجال العجائز في الردهة الذين يلهون مع فتيات يافعات كفاية ليكنّ حفيداتهم قد وصلوا في سيارة الجيب التي تحمل لوحة تسجيل بورصة والمتوقفة أمام النُّزل. استأجرت وأسكاريس غرفتين، والتزاماً بتعليمات نومو، سيقيم الحارسان والسائق

في فندق قريب ، فقد جئنا إلى إزنيق مستعدين لاحتمالات شتّى ، لذا يحمل كل منا حقيبة. قال أسكاريس إنه متعب وذهب إلى غرفته ، لذا تحدثت مع ريكاي بحرّية.

دفعت ورقة خمسين ليرة في جيب سترته ، وقلت: "أثار الأمر فضولي ؛ قالوا إنك إذا أردت معرفة إزنيق ، فلا يمكنك أن تفعل هذا من دون الأستاذ رضا". كان يرتّب على الأرجح جمله في ذهنه في حين تركّز عينه اليسرى على النقود.

قال: "من لا يعرف الأستاذ رضا ؟ هذه سنتي الثالثة عشرة في أسكانيا ، وقد أقام رضا بيك أولاً في هذا النُزل في الخريف الذي أعقب بداية عملي هنا ، وبقي عادة من أيار إلى أيلول. عندما يكون صاحياً يلتزم الصمت ، وعندما يكون ثملاً لا أحد يستمع إليه ، وإذا شعر أنه بصحة جيدة يمشي حول البحيرة في الصباح وفي أرجاء البلدة في أول المساء ، ويشرب في الليل ، ولا يخرج أحياناً من غرفته لمدّة يومين. كان رجلاً شهماً ، وقالوا إنه رأى وعرف الكثير ، وإنه تناول دائماً دواءً من نوعٍ ما ، وقد أخبَر النُدل في الردهة أنه يدفع ثمن خطايا شبابه. في نهاية الصيف الأخير ، قبل أن يعود إلى إسطنبول ، أعطاني حقيبة وطلب مني أن أحافظ عليها ، وفي داخلها ملحوظات عن إزنيق ، وقد خططت لمنحها إلى شخص آخر يوماً ما إن وجدت أحداً يأخذها.

كان حمدي سائق سيارة الأجرة مرافق رضا بيك المنتظم في جولاته ، وقد جاء في تشرين الثاني وهو يحمل علبة ألمنيوم في يده ، وأخبرني أن الأستاذ رضا قد توفي في مدينة أوروبية لم أسمع بها أبداً. طلب في وصيته أن تُحرق جثته ويُنثر رماده في البحيرة ، وبعد تلك الحادثة سرت خرافة في البلدة. يبدو أن الكبار في السن الذين تجاوزوا التسعين ولم يفتحوا أفواههم من قبل بدؤوا آنذاك يزعمون أن أسلاف الأستاذ رضا لم يكونوا مسلمين حقاً وإنما نصارى اعتنقوا الإسلام".

تبعت هذا الشرح حكايتان هامشيتان عن علم الأستاذ وكرمه. بدا واضحاً أن ريكاي يسعى خلف إكرامية أخرى إضافة إلى التخلص من مسؤوليته عن الحقيبة.

كان سؤاله كما توقعته: "هل تريد رؤية الحقيبة ؟".

قلت محاولاً ألا أبدو متشوقاً جداً: "نعم. لا بأس ، لمَ لا ؟".

كانت توجد داخل الحقيبة القماشية الخضراء محفظة أكواسكوتم تحتوي ملفين ودفتر ملحوظات بندقياً سميكاً بغطاء مزخرف. كُتِب على الصفحة الأولى رضا أقين بحبر أسود، ويتقاطع سهمان مرسومان فوقهما بطريقة تقول: اقرأ هذا بالعكس؛ "نيقا أضر". أعجبتني الكلمتان، فكلمة، "نيقية" هي الاسم اليوناني لإزنيق، و"أضر" نسخة مختصرة من أول اسم معروف للبلدة "هليكور". حتى إذا لم يكن رضا أقين شخصاً حقيقياً، أو إذا فشل في تقديم دليل مفيد في الدفتر السميك، فقد كنت واثقاً بأنني سأجد قصة حياة سرية. ضمَّ أحد الملفين خرائطَ ورسوماً بقلم رصاص لأشخاص ومبانٍ تاريخية، في حين اشتمل الآخر على ملحوظات بالإنكليزية، وموجز فصول لكتاب مقترح. شعرت بإثارة كبيرة تغمر روحي، وأغلقت المحفظة باحترام، ودفعت ورقة مئة ليرة في جيب ريكاي الذي تظاهر بأنه لا يلاحظها.

ذهبنا إلى أقرب مطعم أسماك جماعة. ولأزعج أسكاريس، دعوت سائقنا لينضم إلينا. طلب الأربعة "سلّور" أسميتها أسماك قرش بقوائم، واستمتعت برؤية السائق وهو يحدّق إلي بعينين مشفقتين حين أكلت وجبتي النباتية المكوّنة من السلطة، واللبن والخبز المحمّص. وعندما وصلت قهوتنا، قلت: "أيها السادة، سأصعد إلى الأعلى لأراجع عدداً من المصادر المحلية، لكننا نعرف جميعاً أن هذا لن يفيد كثيراً. أشعر أن هذا قد يكون عشاءنا الأخير معاً".

á á á

عرفت أن ريكاي سيخصّني بغرفة رضا أقين التي تطلُّ على البحيرة، وبسرعة أفرغت محتويات المحفظة الكبيرة على الطاولة. بدا دفتر الملحوظات كتاباً سنوياً أكثر من كونه مفكّرة. وقدّم النزيل السابق لهذه الغرفة التي تعبق برائحة الصابون، بعد ذكر معلومات أسرية على أول ست صفحات، سرداً موجزاً عن كل من أعوامه في ثلاث صفحات أو أقل، وكل عشرة أعوام ألصق صورة له في الزاوية اليمنى العليا للورقة ذات الصلة (شبّهته بفرانز كافكا حين كان شاباً، وقسطنطين كافكي حين صار عجوزاً). كان قد كتب بحبر أسود وإنكليزية فصيحة، لكن لغته التي أتقنها في الجامعة بدأت تتداعى في الصفحات الخمسين

الأخيرة، وأنهيت قراءة دفتر الملحوظات، بعد استراحتي شاي، عند الساعة الثانية صباحاً (قرأت مرة في مفكّرة شخص ما أن تلك هي الساعة التي يُتوفّى فيها معظم الأشخاص)، ثم لخّصت ذهنياً ما قد قرأته.

عندما استولى العثمانيون أخيراً على إزنيق، اعتنقت أسرة فتاتزيس - الأسرة الأكثر ثراء في المدينة - الإسلام (وفقاً لشجرة الأسرة البيزنطية، قد نكون في الواقع أقرباء) اعتناقاً زائفاً. كان هدفهم أولاً هو الحفاظ على ثروتهم. وثانياً، الحفاظ على إرث البلدة البيزنطي (عرفت مصادفة أن أشخاصاً مسلمين بالاسم لكنهم نصرانيون بالجوهر كانوا يدعون نصارى-مستترين). انتقل آخر فرد في فتاتزيس؛ صفا أفندي، إلى إسطنبول مع زوجته وابنته في القرن العشرين؛ لأنه خشي التطورات في حرب الاستقلال، وولد ابنه رضا في شتاء 1932، وكانت لديه توقعات كبيرة لهذا الفتى الرقيق. بناءً على نصيحة مدرّسه المفضّل في المدرسة الثانوية الإنكليزية، ذهب رضا إلى جامعة سانت أندروز في إسكتلندا التي أُسّست قبل أربعين عاماً من فتح القسطنطينية، وخطط لدراسة التاريخ امتثالاً لرغبات أبيه.

في أثناء أيامه الأولى في سانت أندروز، انتحرت شقيقته المكتئبة، وكان اكتشافه الحال التي كان عليها العام التالي أول نقطة تحوّل في حياته. توقّع والده منه أن يتزوج ويكمل سلالة فتاتزيس، إضافة إلى تأليف كتاب عن إزنيق البيزنطية، لكن صفا بيك عرف حقيقة ابنه في عام تخرّج الشاب من الجامعة، فطرده من المنزل. درس رضا الدكتوراه بدعم سري من أمه، وعمل في لندن في معهد أبحاث التاريخ البيزنطي، لكنه فشل على كل حال في إنهاء تخرّجه، وعاش عدّة علاقات تعيسة قصيرة الأمد. تلقى قبل يوم من ذكرى ميلاده الرابعة والثلاثين نبأ وفاة أبيه؛ ما تزامن مع ارتياح مالي.

كانت نقطة التحوّل الثانية في حياته لحظة لقائه ل. بعد خمسة أعوام، وكان وسيماً مثل خليل الإمبراطور الروماني هادريان أنتينوس من بيثينية، وأصغر من رضا بخمسة عشر عاماً، ومولعاً بالرفاهية. لإسعاده بدأ رضا ببيع الأيقونات والمجوهرات البيزنطية التي تعتبر وديعة مبجّلة لآل فتاتزيس؛ من دون علم أمه طبعاً. كانت رغبة ل. أن يعيش مثل أميرة في

أماكن مترفة ، وفجأة ، في أحد الأيام ، ترك خليله وراءه وهرب إلى نيس مع شخص جديد ، ولم يستطع رضا أقين التكيّف مع ذلك فعاقر الشراب. بعد ثلاثة أعوام ، عندما عاد ل. شعر رضا ببهجة كبيرة جعلته لا يكترث كثيراً لإصابة الأخير بنقص المناعة ومن أجل دفع تكاليف علاجه باع مخطوطاته النفيسة عن تاريخ إزنيق إلى معهد الأبحاث الذي يعمل معه ، وتبنّى أسلوباً بأن يصنع أولاً نسخاً من الوثائق المهمة ثم يعرضها على أصدقاء موثوقين. كانت حال ل. في تلك الأثناء تتدهور بسرعة ، وبدأ يضغط على رضا ليقتله. وفي إحدى الليالي ، وبعد أن ثمل رضا كثيراً ، خنق خليله بوسادة ، ثم أُصيب باكتئاب شديد عندما دفنته أسرة ل. - تلبية لرغبات ابنها - بجانب خليله الفرنسي الذي توفي بعد أن نقل فيروس نقص المناعة إليه.

في العام التالي ، تقاعد رضا وعاد إلى إسطنبول ليعيش مع أمه. وعندما بلغ الرابعة والستين توفيت والدته في أثناء نومها ، تاركة إياه وحيداً على الأرض ، فحاول إعادة ترتيب حياته على محور لندن-إسطنبول ، وخضع أيضاً للتأهيل ، وتمكّن من خفض استهلاكه للكحول نوعاً ما. فإذا كان مصيره - بوصفه آخر آل فتاتزيس - انتظار الموت ، فإن رغبته الوحيدة تمثّلت في تأليف كتاب بعنوان بيزنطة في إزنيق. وقد قام بالأبحاث اللازمة ، ولكنه كلما حاول الشروع في الكتاب ارتعشت يداه ، وآلمه رأسه ، وبدأ كفاحه مع الذكريات مجدداً. احتشد جيش من الأمراض المزمنة ليكافحه ، يقوده قصور قلب احتقاني ، وبدت فصول الصيف التي قضاها في إزنيق علاجاً ، لكن تحوّله إلى أحمق القرية كان القشة التي قصمت ظهر البعير.

بعمر السابعة والسبعين لم يعد لديه شيء يبيعه باستثناء المنزل في صقلية حيث يعيش ، فباعه إلى رجل من أذربيجان ، وأقام مع أصدقاء في لندن. في زيارته الأخيرة إلى إزنيق أضحى غريب الأطوار ، وكانت الجمل الأربع الأخيرة في دفتر الملحوظات السميك بالتركية: "سأذهب إلى نيس ، وسأوزر قبر ل. كل صباح. لا أصدقاء لي باستثناء الإرهاق ، ونهاية ذات معنى حق لي أيضاً".

قرأت الفقرة التركية مرتين ، وأزعجتني الثقة التي قد كُتبت بها في هذه الغرفة ، ثم

وقفت. كنت بحاجة إلى التخلص من التعب بسبب قراءة شيء من سيرة ذاتية ، ورواية بوليسية ، ومحاضرة مصوّرة عن رحلة في الوقت ذاته. خرجت إلى الشرفة - التي جعلتني أفكّر في قمرة طيّار - وركّزت على البحيرة ، بتوقعات غريبة ، ومن زاوية رؤية ستارة تُركت مفتوحة عمداً كنت قد حدّقت إلى فصل سري من حياة انتهت بالانتحار. لم يكن بمقدوري احترام علاقة رضا أقين الذي استمتع بالخداع حتى آخر نَفَس ، وإضافة إلى كل ما فعله من أجل ل ، أضحى قاتلاً ؛ رغم أنني أشك قليلاً في أن دافعه كان الحب فقط. غيّرت رأيي بشأن التشبيه بين نيس ونيقية.

أخرجت خريطة نيقية القديمة فقط من الملفات. التي تعدُّ صندوق كنز باحث. كان رضا أقين قد كبّر الخريطة ، ووضع عليها الاسم المعاصر لكل صرح ليكون عنواناً فرعياً للاسم اللاتيني الأصلي. على هذه الخريطة ، كان "قصر المجمع" موجوداً بين البحيرة والمطعم الذي تناولنا العشاء فيه ؛ ما يعني أن العمود الذي كان بارتفاع اثني عشر قدماً والذي لا يزال قائماً على الساحل لم يكن جزءاً من أسوار المدينة ، ولكنه ربما الأثر الأخير للقصر. يتفق هذا الدليل مع معلومة صحاف بوزانت. وإذا لم يكونوا يقصدون إفساد الأمر ، فقد تكون نومو - بوصفها آخر مالك لمخطوطات فتاتزيس - قد وضعت المربع الرابع على ذلك العمود.

في الصباح التالي ، عندما كنت أدفع الفاتورة أعطيت ريكاي - الذي لم يسأل عن الحقيبة - إكرامية حياته. مشينا بعد الفطور على الطريق الساحلية المؤدية إلى العمود. وقد لاحظ أعضاء الفريق على الأرجح أنني بمزاج ترقّب من تعبير وجهي ، لكن ماذا عن البحيرة التي تصبح أمواجها أكبر تدريجياً ؟ هل ينتابها القلق ؟ تحسّست طريقي حجراً بعد آخر حول الأنقاض الكئيبة للقصر الذي كان معروفاً بأنه أحد الأماكن النصرانية الأكثر قداسة ، ثم مددت يدي بحرص إلى المربع الأرجواني الرابع الذي انتظرني عالياً على الجانب الشرقي للعمود. عرفت أن أسكاريس سيُسر لرؤيتي أعود مع شيء في يدي ، وذكّرت نفسي بقراري ألا ينتابني فضول بشأن الشخص الذي وضع القطعة الممغنطة هناك.

شعر الفريق بإثارة كبيرة مثل عُصبة من لاعبي الروليت حين أدخلت المربع

الأرجواني في العلبة الفضية. ستكون المحطة الخامسة في كنيسة توقالي في كبادوكيا. صفّقوا وكأنهم يشجعون لاعباً فائزاً، فرمقتهم بنظرة عتب. كانت صحبتهم قد بدأت تضجرني، فمنحتهم إجازة حتى نهاية آذار؛ مستغلاً طقس كبادوكيا العاصف عذراً للقيام بذلك.

وضعت أوراق رضا أقين في كيس من النايلون باهت مثل كفن، وأضفت إليه حجرين كبيرين، وربطته بإحكام. وعندما قذفت الكيس نحو بحيرة أسكانيا، في أعقاب رماد مؤلفها، وضعتُ شعاراً مبتذلاً: "الشغف ليس سرمدياً، وإنما هو مميت!".



عندما عدت إلى الديار انتابني شعور بالقلق ؛ هل كان هناك شيء في غير مكانه في منزلي أو مفقود منه ؟ بدا لي أن شخصاً ما قد انتهك حرمته في أثناء غيابي. حضّرت بعض عصير الليمون الهندي ، واسترخيت على الأريكة التي ورثتها عن جدي ، ونقلت تحيات من إزنيق إلى المباني البيزنطية والعثمانية الواقفة جنباً إلى جنب في البانوراما أمامي. وعندما سحقت آخر مكعّب جليدي بين أسناني ، شغلتني هوية الفوضوية التي تعبث بحياتي ؛ ميسترال سابونتزاوغلو التي تركت خلفها باقة من صفرات وشذا ودفء. وعندما أدركت هذا ، غمرتني ذكريات جديدة عن ميسترال ، وبدأت أعيش مجدداً الساعات التي قضيناها معاً ، وأبحث عن رسائل خفية في كل جملة قالتها ويمكن أن تخطر ببالي. بدأت أشتاق إلى تلك الشابة التي تستطيع بسهولة جذب أي رجل تريده من النظرة الأولى ، وفكّرت: هل انتابتني نوبة من الضعف ؟ وجدت نفسي أتكاسل في كل فرصة ، أو أجلس بمفردي ساعات مع بهجة الحنين الكئيبة.

وعندما بدأت أسرتي تعاملني مثل شخص يعاني اكتئاباً مستتراً ، قرّرت مشاطرة سري مع شخص ذي خبرة. التقيت مدام أولغا الخبيرة في مشرب لوندراكولا ، وبدا من الممكن أن أشبّهها بمديرة مدرسة ثانوية. لتحصل على المواطنية كانت قد تزوجت مساعدها التركي. وهي تتقن التركية ، واستنتجت من تعاملها الحازم مع النُدل أنها واحدة من مالكي المكان معتم الإنارة. شعَرَتْ بالسعادة لأنني أردت مشاركتها متاعبي. أخبرتها قصتي ، مخفياً اسم ميسترال ومهنتها فقط.

قلت: "سيدة أولغا ، هناك شابة لا أستطيع إبعادها عن ذهني ، ولا أعرف إن كان لديها حبيب ، رغم أنني أفترض هذا. بدأت هذه الأزمة بعد أسبوعين من عودة هذه الفتاة التي تعتبرني صديقاً إلى بلدها. هي جميلة الوجه وذات صفات داخلية رائعة أيضاً. وإذا أردت الاختيار بينهما ، فسأنتقي على الأرجح صفاتها الداخلية".

أجابت بنبرة مريحة: "تكون النساء الجميلات اللواتي يتمتعن بشخصيات حقيقية أكثر وحدة مما يظن الرجال عادة يا سلطاني. لذا ، إن كنت تبحث عن علاج ، فاسعَ خلفها. حتى

إذا كان لهذه السيدة الشابة حبيب عادي ، فربما يمكن إنقاذها من علاقة مملة بفضل ذلك الشيء المدعو الحب".

لو أنني لم أصغِ إليها لكنت قد ندمت حتى نهاية حياتي. بدا أن رحلة شتوية إلى ستوكهولم قد تضيف بعداً جديداً إلى الرحلات التي تختارها نومو لي. قبل إجراء الحجوزات تصفّحت الإنترنت ، وعلمت أن ميسترال لا تزال تُحاضر في قسم الآثار الكلاسيكية والتاريخ القديم في جامعة ستوكهولم ، ولم يخطر ببالي حتى جلست لحجز مقعد على متن رحلة ستوكهولم في 14 شباط أن ذلك سيصادف يوم الحب.

كان هناك ثلاثة أشخاص فقط في درجة رجال الأعمال ، وسُررت برؤية ذلك العدد الكبير من المقاعد الشاغرة. إذ كنت قد عانيت طوال أربعة أيام من رشح وسعال ، ورغم كل الأدوية والفيتامينات لم تتحسّن حالي ، ونمت حتى حطّت الطائرة في مطار يحمل اسماً شعرياً ؛ أرلاندا. كان سائق سيارة الأجرة الذي أقلّني إلى ستوكهولم التي تبعد خمسة وعشرين ميلاً يدعى نديم عرب أوغلو ، وجاء من بلدة كولو الصغيرة في وسط الأناضول. ورغم أنه في منتصف العقد الرابع ، إلا أنه يتمتع بجسد مصارع متقاعد ، ومن دون شارب ، ويتحدّث بمرح بتركية فصيحة. كان قد تزوج بعد إنهاء خدمته العسكرية ابنة قريبه وانتقل إلى السويد ، ويعود الزوجان إلى كولو ليقدّما فروض الطاعة للعجائز هناك كل صيف. عرفت أنه يؤدي صلاة الجمعة ويصوم رمضان ، لكنه مخلص لشرابه أيضاً ، وأن ابنته تعمل في محل لتصفيف الشعر ، وابنه "محرّم" - الذي قبّل يدي احتراماً حين التقينا - في مدرسة ثانوية.

كنت قد لاحظت أن الحرم الجامعي يقع بين المطار والمدينة ، لذا أخبرت "نديم" من كولو أنني أريد التوقف عند قسم الآثار في الطريق. أعجبني التناسق بين المباني المدرسية الآجرية والأشجار المبعثرة بينها ، وبدا قسم الآثار الذي وجدناه بعد سؤال ثلاثة مارّة مثل مختبر كيمياء ، وعرف نديم أن النبتة الضخمة غير المثمرة في الحديقة هي في الواقع شجرة كرز برية. كان يوم أحد ، ولا حرّاس عند المدخل ، ولا أي شخص ، فمشيت بهدوء في المبنى الخالي. وعندما رأيت اسم ميسترال على قائمة مثبتة إلى لوح الإعلانات ، ربتُّ عليه.

بدأ ثلج خفيف يهطل حين غادرنا الحرم واتجهنا إلى المدينة ، وسجّل ترمومتر السيارة الحرارة في الخارج على أنها عشرون درجة فهرنهايت. وعندما كان السائق نديم يتكلم برتابة ويقول بإن 20,000 من 30,000 من أهل كولو الذين هاجروا إلى السويد قد استقروا في ستوكهولم ، وإن عدد سكان المدينة قد وصل آنذاك إلى مليوني نسمة إذا أخذت بالحسبان الضواحي ، كنت أضع خطة عمل ، ولم يُغفل إضافة أن المستعمرة التركية تدعوه "عربي". عندما خرجت من سيارة الأجرة أمام فندق شيراتون قلت: "أيها الأخ نديم ، أريد مناقشة مسألة شخصية معك ، الليلة إن كان هذا ممكناً". عرفت أن صدقي غير المتكلّف سيفاجئه مثل هدية غير متوقعة ، واتفقنا على اللقاء عند الساعة الثامنة في ردهة الفندق. خصّني موظف الاستقبال المتجهّم بغرفة في الطابق الخامس تطل على بحيرة ، وشعرت بالارتياح حين وجدت أن أياً من المباني في البانوراما التي تملأ نافذتي الكبيرة لم يُشيّد في القرن الحالي ، وتمثّل سببٌ آخر لسعادتي في صعوبة تحديد إن كان الجسد المائي الذي تعلوه جسور نهراً ، أم بحيرة ، أم بحراً. ابتلعت آخر دوائي وتكوّرت على السرير ، وعند السابعة استيقظت ونزلت إلى المطعم الكئيب لأملأ معدتي.

وصل نديم عرب أوغلو في الوقت المحدد أنيقاً جداً. وجلسنا إلى المشرب وتكلمنا عن إسطنبول ونفسي حتى تعوّد البيئة المحيطة به ، ثم تطرقنا إلى الطلب.

قلت لهذا الرجل اللطيف الذي تفادى طرح أسئلة شخصية: "صديقي نديم ، جئت إلى هذا البلد لأنني أشعر بألم في قلبي". نظرت إلى وجهه ، وأدركت أنني كنت على الأرجح أبالغ في وصف سجايا ميسترال الإيجابية ، لكنني تابعت الكلام. أخبرته أنني أردت البوح بمشاعري لها ، لكنني لم أعرف إن كان لديها حبيب ، وطرح هذا السؤال مباشرة يعدُّ ضد مبادئي. لذا ، يمكن أن أحاول البحث قليلاً في مبنى تلك الجامعة الصغيرة ، لكن يبرز خطر أن أقابل ميسترال نفسها ، كما أنني لا أملك الطاقة للقيام بذلك بسبب الزكام المريع. وسألته آنذاك إن كان بإمكانه أن يتوثق لي من ذلك في حيها ويعود إلي بالمعلومات الحيوية إذا زوّدته بعنوانها. هذا يعني أنني مستعد لأدفع له ضعف ما يكسبه يوميّاً إن استطاع تخصيص الاثنين لهذا العمل.

قال نديم: "بالنسبة إلى عمل يقود إلى مثل هذه النتيجة الميمونة ، لا يمكن أن أطلب أكثر مما أستحقه يا صديقي". خططنا للقاء مجدداً مساء الاثنين عند الساعة السادسة في الردهة لتقويم الموقف ، ثم الذهاب إلى منزله لتناول العشاء.

كنت أتمالك نفسي تدريجياً. وفي أثناء تناول الفطور صباح الأحد ، راقبت السيّاح الأمريكيين واليابانيين الذين لا يقبلون حدوداً في جولاتهم. كان الأمريكيون يعيشون متعة كل لحظة ، في حين بدا اليابانيون كما لو أنهم ينفّذون بإخلاص عملهم على أنهم سائحون. لم يكن الثلج يهطل ، وتجوّلت في المدينة في سيارة أجرة يقودها طارق من سراييفو.

تخيّلت أن إحدى مهمات ستوكهولم هي الدلالة على أن السماء قد تكون خياراً مملاً ، ولم تكن مباني المدينة مشتركة في مسابقة جمال أو حجم ، والتدابير الوقائية للشتاء متخذة في الشوارع ، ولا يمكن رؤية ازدحام مروري أو سماع أبواق سيارات. لم أرَ صفوفاً ، سواء أكانت في الشوارع أو في المباني ، وغني عن القول إنه لا يوجد متسوّلون في أي مكان أيضاً. وفي تلك المدينة المستثناة من التلوث البصري ، لم أرَ حتى حاوية نفايات واحدة صدئة جزئياً. ظهرت لمسة المصمم في ثياب عطلة نهاية الأسبوع لأولئك الحضريين الذين يتحرّكون بنحو مزعج ؛ وكأنهم عارضو أزياء يمشون على ممر ، وتساءلت عن السبب الذي يجعلهم ينفجرون ضحكاً ؛ ربما شحذت عناصر التنظيم الآلي المثالي حدود ردود أفعالهم. في تلك الأثناء ، فكّرت في الطريقة التي ينعش بها الإسطنبوليون متعتهم في الحياة بالكفاح ضد نوعٍ جديد ومختلف من مشكلات البنى التحتية التي تبرز لهم كل أسبوع. أبلغني سائق سيارة الأجرة من سراييفو الذي قرأ كل رواية ليشار كمال تُرجمت إلى السويدية ، أنه من أجل التعامل مع رتابة العيش في السويد يلجأ أهل ستوكهولم إلى الروايات البوليسية. سُررت حقاً حين لم أجد أي تحف عالمية في متاحف المدينة ، وكان فرض أزياء وأسماء على الشعب مستبعداً.

تجاوزني ثنائي يشبكان ذراعيهما معاً حين دخلت مقهى للاستراحة ، ومشت الفتاة الشابة الطويلة بمرح قرب حبيبها الأقصر قامة منها وغير الوسيم ، واعتبرت المنظر علامة مبشّرة. تناولت العشاء في محل بيتزا قرب فندقي. ولاحقاً ، عندما جلست في مشرب الفندق

مع كتاب سودوكو في يدي منتظراً شعوري بالنعاس ، اقتربت غانية مهاجرة مني واقترحت عليّ تدليكاً في غرفتي ، فطلبت منها الابتعاد. تلك الماكرة التي حاولت إغوائي لخيانة ميسترال رأيتها بعد عشر دقائق تمشي إلى المصعد مع شخص متشوق من الشرق الأقصى ، فضحكت في قرارة نفسي ، وفكّرت أن ميسترال قد تكون بين ذراعي حبيبها في هذه اللحظة تحديداً.

ذهبت في الصباح التالي إلى مكتبة كتب مستعملة تعرض هيكلاً عظمياً في وضعية القراءة قرب نافذتها ، واشتريت روما على الفرات لفريا ستارك. بقيت بعد ذلك في الفندق حتى ظهر محققي الخاص ، وبدأ نديم تقريره بالقول: "يا صديقي ، لم أحضر لك أنباء سيئة.

وجدت رجلاً أعرفه في شارعها ، وطرحت أسئلة على شخص يعرف شخصاً يعرفها. لم تحظَ سيدتك بأي أحباء حتى الآن ، والناس يتكلمون بالخير عنها. تعيش بمفردها ، وتستضيف منذ عشرة أيام أباها الذي يزورها من أثينا...". منحتني تلك الأنباء شعوراً مطمئناً بأنني قد قطعت نصف الرحلة.

في ما يخص نديم ، كان يعيش في ضاحية لم أستطع تذكّر اسمها قرب المطار ، وبعد الاتفاق على لقاء أسرته ، وصلت إلى منزله في شارع يبدو قابلاً للنقل ، ويجعل المرء يتساءل عما إذا كان حقيقياً. وقد جاء جيرانه على الأغلب من البلقان والصومال. كان اسم زوجته معقّداً مثل اسمي وتعمل في مخبز ، وقدّمت قارورة عطر إلى ابنته المتأنقة بنحو احتفالي ، ودفعت ورقة مئة يورو في جيب ابنه حين قبّل يدي. بدا أن غرفة المعيشة الضيقة تحقق نوعاً من تصميم بدائي يجمع أثاثاً أناضولياً وإسكندنافياً. وكنت كما يبدو سبباً وجيهاً لفرح أسرة عرب أوغلو ؛ لأنهم أرهقوني بضيافتهم ، وضحكنا حتى انتهاء الأمسية ، وعانقنا بعضنا بقوة عند الوداع.

طلبت من نديم أن يحجز الثلاثاء القادم لي أيضاً. ووفقاً لمعلوماته ، يقصد أب ميسترال مقهى بترفلاي هاوس في متنزه هاجا كل صباح عند الساعة الحادية عشرة. تقع هذه الحديقة النباتية قبالة الجامعة ، وهي غير بعيدة عن منزل ميسترال ، وكنت أريد لقاء كوستاس أفندي من إدرميت.

انتهت جولتي في المتنزه الذي يبلغ عمره 230 سنة عند المقبرة الإمبراطورية التي ترتفع مثل واحة جليدية ، وكانت الأكثر روعة بين المباني الصغيرة - وفقاً لنديم - الخيمة التي تمثّل السُرادق العثماني. بدا بترفلاي هاوس ، حيث أُعيد إنتاج مناخ مداري ، مثل مربى مائي مصنوع من قماش أشرعة ، وداخله مئات الفراشات التي تتحرّك بحرية وسلام بين الزبائن ، وتجثم عليهم كما تريد. كانت كل أنواع الطيور والأسماك المحلية الجميلة معروضة هناك أيضاً مثل أغراض فنية ، وكنت واثقاً بأنها تتفادى التواصل البصري مع الإنسان.

كان الزبون الوحيد في بترفلاي هاوس كوستاس سابونتزاوغلو ، وبدا مثل عمر الشريف ، وفكّرت أنه يحاول تحقيق توازن بين مظهره في سنّه البالغة ثمانين عاماً ، وبزّته البيج الشبابية ؛ وذلك في أثناء تقليبه صفحات مجلة وهو غير مبالٍ. تحرّكت نحو الطاولة بجانبه ، في حين خرج نديم ليتصل بهاتفي الخلوي ويجعله يرن مرة أو اثنتين ثم يغلق الخط. ألقيت نظرة على كوستاس في أثناء حديثي المفترض مع أمي - بصوتٍ عالٍ - عبر الهاتف ، وأنهيت حديثي الخيالي ، فرفع كوستاس بصره وقال بالتركية: "مرحباً يا بني". بدت كلمتان بالتركية كافيتين ، فجمعنا طاولتينا معاً ، وكانت قبعتي ونظارة القراءة نوعاً من التمويه.

بدأت الحديث بقول اسمي معكوساً ، وأخبرته أنني أعيش في هيسار وأعلّم في جامعة بوغازيتشي ، وأنني جئت إلى ستوكهولم لإجراء بحث. كان واضحاً من طريقة تلمّظه في أثناء إصغائه إليّ أنه متشوق إلى سرد قصة حياته ، ورغم فهمه التركية ، فضّل التحدث بالإنكليزية.

أفزعني سؤاله: "ما أشنع خطأ اقترفه أتاتورك برأيك ؟".

"توفي باكراً جداً".

ارتعش صوته. "تبادل السكان بين يونانيي تركيا وأتراك اليونان". استخدم الكلمة التركية لكلمة تبادل - "مبادلة" - وعندما فعل ذلك بدا مثل طفل صغير لا يستطيع قول غول من دون خوف.

"بعد المحرقة ، أعظم جريمة ضد الإنسانية هي إرغام شعب على مغادرة وطنه. لم يكن يحق لأحد باقتلاعنا من جذورنا في إيجة التي أنعم بها الله على أسلافنا قبل 3000 عام!

لقد ولدت في إدرميت قبل يوم من إعلان الجمهورية، ولم أكن قد بلغت عاماً حين ذهبنا إلى أثينا عام 1924. في تلك الأيام، لم يكن وضع اليونانيين - مثل باقي الأقليات العثمانية المنشغلة بالعمل - سيئاً جداً، وكنا نتكلم كلاً من التركية واليونانية في المنزل؛ مثل باقي أسر التبادل. كنت الابن المدلل لأنني ولدت بعد ثلاث بنات. وإلى أن أُصيب أبي بجلطة، بقيت الأسرة كلها تزور إسطنبول كل عامين؛ إذ كان لدينا أصدقاء أتراك وأرمن هناك، في بانغاتلي وبويوكادا، أحب إلينا من الأقرباء. استمر حنين أبي وأمي وشقيقاتي الأكبر سناً مني إلى الوطن كل حياتهم، واحترمت وشقيقتي الصغرى مشاعرهم، ولم تكن رحلاتنا إلى إسطنبول لتنتهي لو أنني لم أفقدها في الصيف الماضي.

أنهيت تخرّجي من جامعة مدينة ساحلية في كاليفورنيا خلال ستة أعوام، وبدأت العمل في شركة بحرية في بيرايوس. لم أتحمّل المسؤولية في حياتي، وعانيت من ضعف تجاه النساء، وأقنعتني أمي بالزواج من ابنة متقلّبة المزاج لفندقي، لكن الأمر دام عاماً فقط. كنت في الثانية والخمسين حين تزوجت آنا؛ أم ابنتي ميسترال، وكانت أصغر مني بأربعة وعشرين عاماً، وتعمل مرشدة في فرع المتوسط لشركة سياحة سويدية. جعلتني ألاحقها وقتاً طويلاً، لكنني أتعبتها، وتطلّقنا حين أنهت ميسترال مدرستها الإعدادية، فانتقلت كلتاهما إلى ستوكهولم، وزارتني ابنتي في أثينا أحياناً في أثناء عطلات الصيف، وشعرت بالألم دائماً حين غادرت. كانت في الجامعة حين توفيت أمها بالسرطان، وذهبت بعد ذلك للعيش مع جدتها عازفة البيانو التي ماتت قبل أربعة أعوام. بعد وفاة آنا، تحسّنت علاقتي بابنتي، والحمد لله أنها قد تحوّلت إلى سيدة وأستاذة لامعة جداً، وقد سرّني إنهاء علاقتها مع ذلك الأستاذ الأرمل، ورغبتي الوحيدة الآن هي أن أحب أبناء ابنتي حين يأتون إلى الحياة.

أعيش في أثينا مع ابنة شقيقتي الوسطى الأرملة، وأقضي الصيف مع ميسترال، وأحضر في الشتاء إن اتصلت بي. تقول إن الإجهاد المرتبط بعملها يتلاشى حين أكون بجوارها، والأمر مثل دعابة؛ أن تعرف أنك مفيد لشيء بعد الثمانين...".

استمتع بكونه محط الاهتمام، وطرح أسئلة عن والديَّ، وعندما قلت إن أبي أمريكي

وأمي مزيج تركي-يوناني-جورجي ، قال: "حسناً أيها الفتى ، يبدو أنك أناضولي أقل نقاءً مني".

سأل إن كان بمقدوري أداء أغنية إسطنبولية له قبل أن يغادر ، لكنه وافق حين اقترحت قصيدة بدلاً من ذلك. اخترت قسماً من "ملحمة إسطنبول" لبدري رحمي أيوب أوغلو الذي أحبه بنحو خاص:

قل فقط "إسطنبول" وسأفكّر في
سلّة مملوءة عنباً محمر اللون
في مساءٍ صافٍ في شاه زاد باشا
مرّت فتاة بجانبي ؛ أنثى متجهّمة
ثلاث شمعات فوق السلّة
سأنتحر من أجل تعرّفها
وتذوق عسل العنب على شفتيها
الرغبة تملؤها من رأسها إلى قدميها
شجرة صفصاف ، نسيم صيف ، رقصة حصاد
بالتأكيد ولدت في قبو شراب
في أمسية صافية في شاه زاد باشا
مرة أخرى صميم قلبي
يتدحرج على الصخور
ويقول فقط: "إسطنبول" والسوق الكبير
يذكّرني بآذار الجزائر العاصمة
ذراعاً بذراع مع السيمفونية التاسعة
جناح زفاف مثالي ومَهَر رائع
العريس والعروس فقط مفقودان
للبيع رخيصاً يصرخ بائع المزاد
وفي الزاوية عودٌ بَطين

مزخرف بأم اللؤلؤ
طمبوري جميل بيك في ال.78...

عندما قرأت البيتين الأخيرين أمسك كوستاس من أدرميت ذراعي وقال بالتركية: "توقّف حباً بالله". نهض، وحمل معطفه وقبعته اللتين كُتبت عليهما حروف إيه-إي-كي، ولفَّ الوشاح الفيروزي حول عنقه، وتركني جالساً هناك. توقف أمام الباب مباشرة، ورفع ذراعه اليمنى، ومن دون أن يستدير خرج ببطء شديد، وبدا الأمر دراما حقيقية.

á á á

عند نهاية الشارع الممتد أمام منزل ميسترال راقبت ونديم المكان ونحن جالسان في سيارته العزيزة فولفو، التي يدعوها "حماري الأسود الصغير". كانت الساعة السابعة مساءً، وقد بدأ الثلج يهطل ببطء؛ من النوع الذي اعتادت جدتي أن تصفه بأنه "يمر عبر أنعم منخل". توقفت حافلة صغيرة أمام المنزل المكوّن من ثلاثة طوابق، وخرج منها رجل عجوز، وصدحت نغمة سيرتاكي من باب الحافلة المفتوح، وفي حين خرج كوستاس إلى بوابة الحديقة ليرحّب بضيفه. ضحك الاثنان وعانقا بعضهما، ورقصا لوقت وجيز على وقع اللحن كتفاً بكتف، ودام هذا المشهد ثلاث دقائق، بدا الشارع المقفر في أثنائها حماسياً قليلاً، ثم غادرت الحافلة الصغيرة وتابع اليونانيان العجوزان الغناء.

كنا نتناول شطيرتينا حين توقفت سيارة جيب صغيرة في البقعة التي أخلتها الحافلة الصغيرة، وخرجت ميسترال من جانب الراكب فحاولت الانكماش على مقعدي، ملقياً قارورة الماء من يدي. كانت تحمل أشياء بكلتا يديها، وما قالته للمرأة الجالسة على مقعد السائق جعلها تنفجر ضحكاً. بعد عشر دقائق، عندما أنيرت المصابيح في كل الطوابق الثلاثة، طلبت من نديم الاتصال بهاتفها الخلوي وقول "رقم خطأ" ثم إنهاء الاتصال؛ فقد أردت التوثق من أنها تُبقيه بجانبها، ثم متذكراً أسماء كل الأباطرة البيزنطيين بالتناوب، كتبت لها رسالة نصية:

دخلت حياتي وخرجت منها مثل مذنّب ورأسي لا يزال يدور. اشتقت إليك كثيراً فتبعتك إلى هنا، وفي هذه اللحظة تحديداً أنا قبالتك في الشارع أمام متجر بائع

الزهور. سأعدُّ حتى 1001 ، وإذا نزلت من أجلي ، فسأهمس لك بكلمات كنت أدّخرها لامرأة حياتي...
هـ . أ.

قرأت ملياً ما كتبته مرتين ، وشعرت بالإحراج في كلتيهما ، وكنت واثقاً بأن رأسي سيؤلمني حين تضغط إصبعي المترددة على زرّ "الإرسال". انتظرت تحت الثلج ، لكن ميسترال لم تزعج نفسها حتى بالمجيء إلى النافذة والنظر إلى الخارج لترى إن كنت حقاً هناك. فهم نديم أن مناورتي قد فشلت من الطريقة التي مشيت بها عابساً وأنا ألف المظلة في يدي ، وعدت إلى السيارة وأنا أشعر بالخزي مثل مضيف خجل أمام ضيوفه. في طريق عودتنا إلى الفندق ، قال بعد أن أنهى تذمره: "اسمع ، إذا كانت فتاتنا هذه مثالية كما قد صوّرتها ، فربما تكون مختلفة عن سائر الفتيات". ابتسمت رغماً عني ، وفي الفندق تبادلنا عنوانينا ، وتكلم أولاً.

"يوجد سبب لقولهم إن شيئاً جيداً يتمخّض من شيء سيئ. أنت رجل رائع ، وآمل أن يكون نصيبك الزواج من فتاة تركية طيبة والعيش معها بسعادة. لم أرَ بعد تركياً يتزوج فتاة سويدية ويكون سعيداً".

قلت: "لو أنني لم آتِ إلى ستوكهولم وأعلن عن مشاعري لتلك الفتاة ، لشعرت دائماً بأن هناك شيئاً مفقوداً. أشكرك على مساعدتك وضيافتك يا نديم ، فالتعرّف إليك نتيجة جانبية جيدة لهذه الزيارة ، وأرجو أن تنقل تحياتي إلى أسرتك. سأتصل بك حين أحجز لرحلة عودتي ، وإذا لم تكن مشغولاً ، فبإمكانك أن تقلّني إلى المطار".

لم أدخل فوراً ، وإنما وقفت في الطقس شديد البرودة لبعض الوقت ، وكأنني - كما افترض - أتعرّض لوابل تأملي ، ثم حذّرني صوت داخلي: "هيا ، لا تُظهر ضعفاً يا صاحب الجلالة قسطنطين الخامس عشر. تنتظرك خاتمة أكثر مهابة".

عندما كان النقاش يتحوّل إلى بشرتي وطبيعتي الحسّاستين ، لم تغفل جدتي أبداً القول: "مثل جده تماماً". فإذا غيرت كريم حلاقتي تصبح وجنتاي حمراوين ، وكل شعور أكبته داخلي سيتحوّل إلى تقرّح في فمي.

عندما استيقظت في الصباح التالي أحسست بتقرّح بحجم حبة أسبرين على طرف لساني ، وكان مجرد شرب الماء مؤلماً. وفي الواقع ، كانت هذه أول مرة أُصاب فيها بذلك منذ تصالحت مع أمي. شعرت بالذهول ؛ مثل ضحية تعود إلى معذّبها مجدداً. إذا كان بعث رسالة ميلودرامية مثيرة إلى امرأة تعرّفتها حديثاً هو ما يُدعى الحب ، حسناً ، يمكن أن أتعامل مع هذا. إضافة إلى ذلك ، لدي عذر جاهز لعدم استطاعتي إغواء النساء ، ويعزى السبب إلى أن أسلافي تزوجوا وفقاً للنظام ، وهذا كل شيء! بهذه الجملة أفترض أنني قد قدّمت سبباً لاستئجاري غانيات مكلفات.

إذا كان كاراكا أوجلان مكاني فسيقول شيئاً مثل: "نتمتع بنبل حين ننطلق / لكننا نفقده على الطريق". ابتسمت رغماً عني ، وقررت لقاء إلسا في البندقية ، وتمنيت أن تقول: "إذاً ، هل أنت أحمق تماماً أم ماذا ؟". حين تسمع بما قد جرى لي. لم يكن كافياً لتغيير رأيي سماع أنها قد سافرت إلى ملبورن للاحتفال بذكرى ميلاد أبيها السبعين ، وعقدت العزم على السفر جواً إلى البندقية بأي حال في اليوم التالي ، عبر روما ، وكنت قد حجزت خمسة أيام في فندق طويل الاسم.

ذهبت بعد الفطور إلى المربى المائي لبلدية ستوكهولم ؛ لأستريح وأشاهد السمكة الكبيرة وهي تحدّق إلى البشرية وتسخر منها ، وأردت قبل عودتي إلى الديار إلقاء نظرة على تلك الأبنية المتراصة مثل متاريس على كلا جانبي غاملا ستان التي ترفض التخلّي عن العصور الوسطى. قمت بحركة لملاحقة بعض ألحان الأكورديون التي تصدح عبر الشارع المقفر متسائلاً عن الموسيقي ، لكنني توقفت وعدت فوراً إلى فندقي حين تطفّلت عصبة من السياح الكبار في السن الذين يمشون مثل دمى محطّمة على المشهد.

أحسست بالنعاس ، وشعرت أنني سأنام نوماً هانئاً ، فركّزت على كتاب أسفار تاريخي

مولع بالأناضول لفريا ستارك ، وأحضرت تلك الليلة غانيتين مهاجرتين لتقوما بتدليكي. خرجت في الصباح إلى المطار من دون الاتصال بنديم من كولو.

á á á

وجدت ويستن يوروبا آند ريجينا اسماً ملائماً لفندق ولد بصعوبة من اندماج قصرين خاصين. لم أبتسم عندما قال موظف الاستقبال صديق تركيا: "خصّصنا أفضل غرفة لك". يتمتع الجناح 106 المطل على القناة الرئيسة بجو نبيل ، وتذكّرت الأقوال المأثورة التي كتبتها تكريماً للبندقية ، والتي لم أعرضها على أحد قط ، حتى على إلسا.

إذا قلت: "البندقية هي الأقرب إلى السماء" ، فقد لا تفيها حقها.

كل عام يتدفق 14 مليون سائح إلى البندقية ، ويزور خمسة فقط من كل ألف متحف كورير وأعماله الفنية الأصلية ، في حين أن الآخرين البالغة نسبتهم 99.5% يحاصرون المدينة بتلوث بصري وصوتي. قد تكون المدينة تدفع ثمن ذنوبها الماضية!

هل تخرج ليلاً لاستكشاف شوارع البندقية ؟ هل يمكن أن تنسلَّ بين الضباب والأصداء بخفّة وبرشاقة جندول ؟

لا ينزع أهل البندقية أقنعتهم أبداً ، ويضحكون خفية على السياح الذين يظنون أنهم يضعونها في المهرجانات فقط.

قضيت بعض الوقت وأنا أفكّر أن أفضل شيء يخرج من الفوضى التي حوّلت نومو حياتي إليها هو لقاء ميسترال. خرجت في الصباح التالي في رحلة لتجديد الذكريات ، وتقوية أواصر قديمة مع البندقية. وما أدهشني فوراً هو كيف أصبحتُ تدريجياً مدافعاً عن بيزنطة. كان التأثير البيزنطي واضحاً في إنشاء القصور والأبنية الرئيسة على الماء ، وحاولت تصوّر المباني المشابهة على الساحل بين ساراي بورنو والقرن الذهبي التي دمّرها كلها تقريباً - بمساعدة أهل البندقية - مجرمو الحملة الصليبية الرابعة. نقلتني قدماي إلى كنيسة سان ماركو ؛ النسخة المبهرجة من آيا صوفيا. لقد وضعوا في الأعلى تمثال عربة تجرّها أربعة خيول مسروقاً من المضمار في القسطنطينية ، فصعدت حتى وصلت إليه ، وقرأت على لوحة تحته: "جُلب من فتح القسطنطينية". وفي الواقع ، عمل أهل البندقية بجد في سلب

كل ما خفَّ حمله وغلا ثمنه. انتابني شعور غريب هناك أمام أشهر الخيول في العالم ؛ مثل شخص التقى بعض أفراد شعبه الذين أرغموا آنذاك على العمل في سيرك عالمي ، وآلم مظهرهم قلبه البريء ، فقد بدا أنهم يعرفونه ، ويتوقعون منه أخذهم إلى الوطن. تساءلت عن العقوبة التي ظنّ قسطنطين الحادي عشر أنها ملائمة للقصاص من أهل البندقية بالمقابل.

اعتقد آخر إمبراطور أوروبي فاتن الشخصية ؛ نابوليون ، أن ميدان سان ماركو أجمل غرفة معيشة في أوروبا. هناك زرت متحف كورير ، وقد حظيت مكتبة مارشيانا بشهرة كل من قصر ومعبد ، وتتباهى بسقوف مزخرفة مثل سقف في كنيسة. وهب محب الكتب وجامعها الكاردينال بساريون (1403-1477) مارشيانا كل المخطوطات والكتب النادرة التي حصل عليها من علماء بيزنطة وفنانيها الذين تبعثروا في أرجاء أوروبا بعد فتح القسطنطينية. كان باسيليوس بساريون راهباً من طرابزون قد عيّنه الإمبراطور جوانز الثامن مطراناً على نيقية حين واجه مشكلة في إقناع المجتمع الأرثوذكسي في الانضمام إلى الكاثوليك ، وقد لجأ باسيليوس إلى الفاتيكان ورُقّي هناك إلى مرتبة كاردينال. لكن ، لم أستطع تحمّل النظر إلى تلك الوثائق البيزنطية التي جمعها محب الكتب المرتد ذاك لوقت طويل ، ودار في ذهني أنني قد دفعت مبلغاً طائلاً لأُعجب بمجوهرات مسروقة من منزلي وتُعرض آنذاك لدى السارق. انسحبت إلى غرفة معتمة مملوءة كراتٍ أرضية عتيقة ، وراقبت الحارس النائم على كرسيه ، متمايلاً مثل عرّاف لم يكن قد فسّر أحلامه التوقعية بعد ، ثم تجوّلت في المكان حتى وقت الإغلاق ، ووجدت مدني المفضّلة متوارية في أنفاق الوقت. حكمي على البندقية: كنت أكثر دولة-مدينة-تقدماً في العالم ، لكن بدلاً من أن تصبحي دبلوماسية تتمتع برؤية بعيدة المدى تحوّلت إلى نشّال مخادع.

á á á

لعب النُدل في مشرب هاري دوراً كبيراً في المكانة التي وصل إليها على أنه المطعم-المشرب الأغلى في البلدة. وإضافة إلى تذكّرهم صلصة السلطة المفضّلة لدي ، كانوا مازحين ماهرين. لكن ، هذه المرة بأي حال ، لم يفعلوا شيئاً أكثر من تحيتي. ذهبت بعد العشاء إلى

غرفتي، وشاهدت إفراغ مراكب عند نقطة على الشاطئ المقابل، ثم نزلت إلى المشرب المعتم في الردهة، وتساءلت عن عدد المرات التي أرهق فيها عازف البيانو مجموعته الروتينية من الأغاني التجارية، وعزمت على قراءة فياجيو دانفيرنو لأتيليو بيرتولوتشي وأنا أحتسي الشراب. رأيت ساقية تضع بطاقة على صدرها كُتب عليها "متمرّنة". أوقعتُ كأسي، وفيما كانت تناولني للساقي الذي جاء مسرعاً ليرى سبب التحطّم: "إنها غلطتي". ونظرت المتمرّنة إلي بشفقة، وفكّرت أنني لن أحل معضلتي مع النساء أبداً. كنت أفرغ كأسي الثالثة حين اتصل أوجينيو بهاتفي الخلوي؛ ظناً منه أنني في لندن، ليطلب أن أحضر له نوع الشاي المفضّل لديه الذي لا يمكن إيجاده إلا عند فورتنوم وماسون.

"لكن، لا أظن أنني سأعود قبل ثلاثة أسابيع أو أربعة".

"إذاً، يمكنك أن تجلب ثلاث علب أو أربعاً".

رفع الحديث الساخر معنوياتي، ورأيت امرأة جذّابة متوسطة العمر تقترب، وقالت: "عندما أسمع جملة بالتركية، أحيي قائلها". فدعوتها للجلوس.

كانت ويندي ساد معلّمة في مدرسة الفتيات الأمريكيات في أوسكودار قبل عشرين عاماً، وجاءت إلى البندقية لمرافقة ابنتها عازفة الكمان التي ستعزف في حفل موسيقي مع باقي فرقة الوتر الرباعية. لم أعرف ما تفعله ويندي من بوسطن حقاً باستثناء العمل كمترجمة مستقلة.

رغم هذا، عندما همَسَت: "هل هَجرت أم هُجرت؟" في أذني، كانت المرأة الفاتنة واثقة تقريباً بأنني سأبوح بسرّي لها. بدأت قصتي مثل شخصية في أغنية ريفية: "إذا كان رجل ما سيتعرّض للهجر، فينبغي أولاً أن تكون لديه حبيبة. لقد أُقصِي في المرحلة السابقة: اقتراح العلاقة". بدلاً من سماع جواب ويندي أو تشخيصها أردت سماع تكهنات ساخرة؛ وكأنها عجوز عرّافة قد ظهرت مصادفة في طريقي، وتمنيت أن تنتهي الليلة بملحوظة ظريفة أو اثنتين، وأخرج بعد ذلك لأحظى بغانية.

"من أين جئت بفكرة أن عدم الرد على رسالة نصية يعني لا؟ أهي من المسرحيات البرازيلية؟ صدّقني، كنت ستلقى رفضاً بجملة واحدة لو أن مشاعرها سلبية تجاهك. هذه

الشابة تنتظر على الأرجح الفرصة المناسبة لتتصل بك".

"ويندي ، حتى يحصل هذا التطوّر ، هل يمكن أن أدعوك العمة بوليانا ؟".

"لا شأن لي بهذا يا صديقي الشاب صاحب الاسم غير المعتاد. لكن ، إذا استطعت يوماً أن تتزوج الفتاة ذات الاسم الجميل ، فأرسل لي تذكرة طائرة مع دعوة لحضور الزفاف".

كُتب على البطاقة التي تركتها على طاولتي أن ويندي ساد أستاذة أدب في جامعة فلوريدا الحكومية (هل كنت أعرف هذه الأستاذة المفعمة بالحيوية التي يبدو اسمها مستعاراً من مكان آخر ؟).

انبلج الصبح في فينيروتيكا ، ولدخول هذا النادي الليلي ؛ حيث يضع الزبائن الذكور أقنعة ، كان ينبغي أن ألتقي أولاً رجلاً ذا رِجل واحدة على جسر ريالتو ، ثم أتبعه لمدة عشر دقائق.

قبل يوم من بدء الكرنفال ، انتقلت إلى رافينا المجاورة التي كانت ممثلية بيزنطة في إيطاليا من القرن السادس إلى الثامن ، وأقمت في فندق بيزانطيو ، وزرت الكنائس التي حاولت من دون طائل منافسة آيا صوفيا في مجال الفسيفساء. وجدت آثار القسطنطينية في بيازا ديل بوبولو ، وأدركت أنني قد اكتفيت من تذكارات بيزنطة هناك في تلك البلدة حيث زفر مواطني ؛ باسيلوس بساريون ، نَفَسَه الأخير. لا أعرف السبب حقاً ، لكنني سافرت جواً إلى نيس - مدينة انتحار رضا أقين - وسئمت من جوها الشبيه بمنتجع خلال يومين ، ثم انتقلت إلى إشبيلية فقط لأن قبطان بحر متقاعداً قال في ردهة الميريديان: "أسوأ شيء قد يحدث لرجل في إشبيلية هو أن يولد ميتاً". اخترت لوزان التي كانت تعاني غزواً من سياح متقدّمين بالعمر عبر القرعة. ولأن أول حرف من اسمها كان "هـ." ذهبت إلى هامبورغ ، في حين أن سبب زيارتي نانت يتعلق بحرفها الأخير "ت" ، وبالنسبة إلى ليج ؛ بسبب حروفها الثلاثة. قرأت المجلدات الستة كلها من انحدار الإمبراطورية العثمانية وسقوطها لإدوارد جيبون ، وعدت إلى لندن حيث اجتمعت مجدداً بفريقي ، ولم يجد أسكاريس فرضيتي بأن المؤرخين يكونون مفسّري أحلام جيدين مضحكة. وعندما اتصلت جدتي في صباح 6 آذار وطرحت سؤالها الساحر: "لقد حلَّ الربيع ، وأين أنت يا ابن الأمريكي عديم الفائدة ؟" كنت

مشغولاً في وضع قائمة بأعمالي في معهد أبحاث التاريخ البيزنطي.

شعرت أنني مثل قيّم على منارة مشيّدة في وسط وادٍ. كنت في فندق صخري في أوشيسار ؛ أعلى نقطة في كبادوكيا ، وقد قامت أسرة حيثيين على الأرجح بنحت الجناح 234 في منتجع كهوف كبادوكيا قبل 4000 عام. وقفت للمرة الألف بجانب النافذة لتأمّل منظر المداخن الطبيعية التي تملأ البانوراما ، وأصغيت إلى صمت الصخر ، وقلّبت حبّات مسبحتي النظرية حين ركّزت على المداخن واحدة تلو الأخرى.

لا أصدّق أن الكتل المخروطية التي يدعوها الناس مداخن طبيعية قد قُذفت قبل 25 مليون عام من الجبل البركاني الذي يقع على بعد خمسة وثلاثين ميلاً. هذا مريبٌ بالنسبة لي ؛ مثل كل تلك الصفحات عن تاريخ بيزنطة الرسمي. وربما تلاشى الجبل البركاني الذي قذفها في الهواء بعد ذلك ، مثل أخطبوط يموت بعد الولادة ؟

عندما كنت في المدرسة الثانوية ، اعتدنا تشبيه المداخن الطبيعية بخيام هنود مخروطية قد حجبت ألوانها الحقيقية عن المصورين ، لكنني أشبّهها الآن بعرّافين مجتمعين لتنفيذ مراسم ميمونة ، ما جعلني أظن أنها بمثابة أعمال شعرية ، وأحسست باحترام الشمس لقوس قزح الألوان الباهتة هذا. فرض الوادي قوانين صمته على البشر والمآذن وحدائق الحيوانات في نقوش الحيثيين. وإذا سألت: "لماذا لم تنتج براكين أخرى مثل هذه الحمم الفنية ؟" ، فسيكون هذا سؤالاً مخادعاً.

الوادي الذي بدا من نافذة فندقي مثل سطح طاولة ضخمة ، بدا عن قرب مثل منحوتة فنية ، ولا أظن أيضاً أن كلمة "كبادوكيا" جاءت من الفارسية وتعني "أرض الخيول الجميلة". الجمل وحده سيفي بالغرض ليكون كناية عن هذا البحر من الصمت.

تقع كبادوكيا بين الحضارة الأولى ؛ بين النهرين ، والدول-المدن غربي الأناضول. جاء الحيثيون من القوقاز واستقروا في هذا الممر الاستراتيجي ، وأغفل التاريخ الرسمي حقيقة أنهم كانوا مدرّسي فنون لليونانيين. والمثير للاهتمام أيضاً أن المؤرخين لا يتفقون على تواريخ نهضتهم وسقوطهم. نافسوا الطبيعة بالنقوش ، وحققوا في هذا المجال إنجازات أكثر من أي حضارة أخرى ، وربما يكون هذا التنافس هو الذي قضى عليهم ؛ لأنهم انقرضوا نتيجة

مجاعة في القرن السابع قبل الميلاد.

أولاً، كان النصارى المتزمّتون المدانون من قبل الرومان، ثم النصارى الشرقيون الهاربون من العرب، وبعد ذلك النصارى البيزنطيون الخائفون من محطّمي الأصنام هم الذين سكنوا في كبادوكيا. هناك، نحتوا أشكالاً صخرية مخروطية بصبر، وجعلوا الكثير منها حجيرات رهبان وديراً وكنيسة، حتى إنهم حفروا مدناً تحت الأرض؛ حيث يمكنهم الاختباء من جيوش الوثنيين.

دامت رحلتي إلى كبادوكيا يومين، وبدا الوادي غامضاً مثل رقعة شطرنج مصنوعة من عددٍ غير معروف من المربعات والقطع، وتعرض الطبيعة هناك للفانين قيمةَ الصمت وحكمة الصبر. شعرت بأنني أصبح أكثر خفة حين أمشي؛ مثل منطاد هواء ساخن يتخلّص من ثقل الموازنة، وتساءلت عن عدد الأماكن المبجّلة التي كانت موجودة قبل آلاف السنين؛ إذا لم يكن إلا 300 منها فقط مفتوحة للسياح اليوم. كانت قصص الكتاب المقدّس في تلك الكهوف التي تثير في النفس رهاب الاحتجاز زاهية؛ وكأنها قد حفرت قبل ألف يوم فقط. في الواقع، لم تكن تلك الأماكن المعتمة تحتاج إلى عناية فائقة لتصبح جاهزة لقداس مسائي، وبدا أنها تبعث رسالة إلى كنائس القسطنطينية الضخمة والمزخرفة كثيراً.

في متحف جوريم الهواء الطلق، واقفة عند باب دير الفتيات، مرّرت امرأة أمريكية عمرها سبعون عاماً يدها فوق المدخنة الطبيعية وقالت: "لماذا سطح هذا الحجر ناعم جداً؟ يبدو أنه سيتفتّت إذا ضغطت عليه بقوة. هل عمره 20 مليون سنة حقاً؟".

قال زوجها المتحفّظ الذي يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً من دون ردنين، ويبدو مثل متنافس في مهرجان قبح من العصور الوسطى: "حسناً يا عزيزتي، إذا أخذت بالحسبان أن تلك التماسيح كانت تقضي وقتاً طيباً في مياهنا العذبة في آخر 200 مليون سنة، فربما تكون هذه المخروطات موجودة في الواقع منذ وقت أطول قليلاً".

يفضّل السياح الذين يأتون إلى كبادوكيا كل عام، والبالغ عددهم نحو مليون سائح، أن يزوروها في الربيع أو الخريف، ومعظمهم نصارى كبار في السن من كل أصقاع الأرض،

بالإضافة إلى بعض الأشخاص الهادئين من الشرق الأقصى. أراد بعضهم تأدية الواجب الديني قبل أن يرحلوا عن الدنيا. وعندما سلكوا طريقاً متعرجة بين المداخن الطبيعية فرحوا مثل أولاد ريفيين أُخذوا إلى مدينة ملاهٍ في أواخر طفولتهم.

تتميز ضواحي الوادي بسكون الصحراء. وفي البقاع البعيدة، يسود الهدوء في حقل قطن أو مزرعة مقفرة. عندما تودّع طيور البوم الغروب تتحوّل كبادوكيا ببطء إلى دير مهجور، وبدا ذلك رائعاً.

خضعت جدة جون نيوبري - جاري في الفندق - من كبادوكيا لتبادل سكان عام 1924. وعندما واجهت أسرتها مشكلة في التكيّف مع الحياة في تسالونيكا هاجرت إلى ملبورن. كان جون متقاعداً وأرملاً. وتكريماً لذكرى جدته، جلس على شرفته معجباً بمنظر جبل أرجياس، وهو يطقطق ويأكل بذور القرع واحدة تلو الأخرى. عبّر الرجل عن ذهوله لأنني لا أعرف اللاعب الأسترالي في فريق كرة قدم غلطة سراي؛ هاري كيويل، وحاولت نيل الصفح بسرد مقطع شعري كتبه مواطنه لس موراي.

ذهبت مع الفريق في اليوم التالي إلى وادي إهلارا مستقلين شاحنة الفندق المغلقة. كان السائق طاهر رجلاً ضئيلاً ذا وجه مشرق، وإذا ألقيت دعابة على مسمعيه فسيحني رأسه محرجاً، وبدا التواضع سمة شخصية تركها عهد الدير خلفه في المكان. عرفت أن باباس سيكون أول من يضحك على نظريتي بشأن الحجم الصغير لأهل كبادوكيا (يمكن أن يتخذوا من المداخن الطبيعية ملتجأ قبل يوم من القيامة).

كان الوادي جميل الاسم إهلارا يبعد ثلاثين ميلاً عن الفندق، وكنت قد بدأت أعتاد الشعور بأن دربنا تأخذنا عبر نجد باتاغونيا المرهق. قبل ملايين السنين، عندما مارس طود حسن - قاتل الكثير من متسلّقي الجبال - حقه في الثوران، غمر جدول ميليندز الصدوع، ومنع على الأرجح تكوّن معسكر من المداخن الطبيعية هناك. كان إهلارا وادياً غامضاً تماماً، ولهذا السبب بالتأكيد نُحتت - منذ القرن السادس - حجيرات رهبان كثيرة، وكنائس، وقبور نبلاء، وأبنية أخرى في الجروف الصخرية البارزة من الجدول.

ترجّلنا من الشاحنة المغلقة عند نقطة ترتفع 500 قدم فوق أرض الوادي، حيث

يمكننا - كما قال طاهر - رؤية البانوراما ، والنظر نحو الأسفل إلى الجدول الذي يتلوّى مثل حبل. عندما خرجت من المركبة ، تجسّدت فتاة عمرها عشرة أعوام أمامي ، وبدا واضحاً أن قميصها التائي وسروالها القطني الباليين يؤديان مهمة مضاعفة ؛ فهما للنوم ليلاً ، ولتمضية النهار في الوقت نفسه. في حين أن السترة الرجالية السوداء التي ترتديها فوقهما - ربما للتمويه - أكبر من حجمها بقياسين. كانت بشرتها ناعمة ، ووجهها طويلاً ، وعيناها لامعتين بلون اللوز ، وربما تكون إحدى أسلافها جميلة بيزنطية قد لجأت إلى الوادي قبل ألف عام.

قالت: "أهلاً بكم في إهلارا".

قلت: "شكراً لك. وهل اسمك جميل مثل وجهك ؟".

"نائلة".

"نائلة ، ماذا تفعلين على قمة الجبل بمفردك بحق الله!؟".

"أنا مرشدة".

أطلق ذلك ضحكة. لكنْ بدا أن نائلة لا تمانع ذلك ؛ ربما لأنها كانت معتادة على رد الفعل ذاك.

"حسناً إذاً يا مرشدتنا الشابة ، أخبرينا كيف تكوّن وادي إهلارا".

رصّت نائلة قدميها معاً ، واستدارت نحو طود حسن ، وقدّمت بنبرة فاتنة عرضاً مثيراً للإعجاب وموازياً لما يقدّمه دليل سياحي. مصغياً إليها ، شعرت بالجذل والأسف معاً على أبوتي المؤجلة ، من دون أبناء من صلبي أفرح بهم. وعندما فتّشت في جيوبي بحثاً عن قطع نقدية صغيرة ليصبح المبلغ خمسين ليرة ، أخبرتني أنها ستصبح في الصف الخامس في العام القادم ، وإذا فازت بمنحة الطلاب الفقراء ، فهي تتمنّى أن تصبح يوماً ما معلّمة. عانت مشكلة في إخراج يدها اليمنى من جيب السترة الكبيرة.

سألت: "لماذا ترتدين هذه السترة في هذا الطقس الحار ؟".

"لا تسمح لي أمي بالخروج من دونها".

"حسناً ، هذا يثير الفضول ، لماذا ؟".

قالت: "لأنني فقدت ذراعي من تحت مرفقي". وأحنت رأسها اعتذاراً. شعرت بموجة رثاء

على هذه الفتاة اليافعة التي قد أبهجتني ، وبدا الأمر وكأن ريحاً عاتية قد عرّت التويجات من زهرة نادرة وهشّة فيما كنت أقف معجباً بجمالها.

عقدت اجتماعاً سريعاً مع الفريق ، واقترضت نصف المبلغ الذي يحمله كل منهم وأضفته إلى كل المال الموجود في جيبي ، ثم وضعت ألفي ليرة في مغلّف ، وسألت نائلة عن مكان سكنها ، وعرفت أن أباها متوفى ، وأنها تعيش مع أمها في منزل جدها الحاج علي. وضعت المغلّف في الجيب الأيمن لسترتها حين جلسنا على صخرتين متجاورتين.

"نائلة ، أرجو أن تنقلي تحياتي إلى أمك والحاج علي أفندي ، وتقولي لهما: ساعدت أربعة رجال اليوم ، وقد أعجبتهم كثيراً فأرسلوا هذا المال معي من أجل تعليمي. وتوثّقي من إبلاغ الحاج أفندي أن المال قد اكتُسب بطريقة مشروعة.

قولي لهما إنّ أصغرهم هو الرئيس ، وإنه ترعرع مثلك ، يتيماً ، ويعاني مشكلة صغيرة وطلب منك الدعاء له. فلأنك فتاة ذكية وذات قلب نقي ، سيقبل الله دعاءك. قولي لهما إنني سأزوركم عندما أحلّ مشكلتي ، ثم سأحرص على معالجة ذراعك ، وسأدفع تكاليف دراستك أيضاً إلى أن تحصلي على شهادتك".

جعلتها تكرّر الجمل حتى حفظتها. التقط باباس صورة لنا حين عانقتها. وعندما جثوت لتوديعها ، وضعت ذراعها السليمة حول عنقي وانفجرت بكاءً ، فدمعت عيناي أيضاً. قالت: "شكراً لك". واختفت خلف الصخور ، وهي تقفز على الدرب مثل معزاة صغيرة.

لو أنني ظننت أن باباس لن ينتهز المناسبة ليبالغ في تذمراته ، لقلت: "لن أصبح إمبراطوراً أبداً حتى في المنفى ، أليس كذلك؟". مشينا عائدين إلى الشاحنة المغلقة ، وسردت له أبياتاً من قصيدة جاهد سيتكي تارانسي ؛ الشاعر الذي توفي في الواقع وهو في السادسة والأربعين من عمره: "عمري خمسة وثلاثون عاماً ، وقد قطعت نصف الطريق".

قلت: "كان لقاء نائلة نقطة تحوّل بالنسبة لي ، وذكّرني أنني في الرابعة والثلاثين. حان الوقت لأتزوج - بحلول العام القادم - وأبدأ بالتمتع بمحبة أبنائي".

á á á

بعد انحدار طويل وإنما ممتع على السفح ، وصلنا إلى أرض وادي إهلارا ، وجلسنا

لتناول الغداء في مطعم مكشوف بجانب نهر ميليندیز الذي انكمش وتحوّل إلى جدول ضعيف، وقد أصبح الوادي في هذا الوقت محمية متنزهات معروفة عالمياً. رأيت إلى الطاولات المتجاورة سياحاً أوروبيين قد أنهوا جولتهم للتو، ومعظمهم في منتصف العمر، وتظهر عليهم ربما تعابير شكر مبالغ فيها قليلاً عن "المهمة التي أُنجزت".

شرعت في السير على درب النزهة من قرية بليسيرما - الباقية من بيزنطة - وكان مقصدنا كنيسة يلانلي. سلكنا الدرب المتعرّجة، مع بقاء ميليندیز إلى يسارنا. وعزّز تدفق الماء بهدوء وزقزقة الطيور بهمس الجو الشاعري. ومع كل خطوة خطوناها، تغيّر المشهد النباتي، وظهر نوع مختلف من الأشجار في طريقنا. وقفت أشجار الحور والصفصاف مثل جيش رماح، ورغم كونها أجمل نباتات الوادي، إلا أن رائحة أشجار الزيزفون كانت الأكثر روعة، وانتابني إحساس بالانتعاش حين لحقت بسرب من الفراشات الصغيرة مثل نحل، وغمر شعور بالسكينة المكان.

لم تكن كنيسة ديركلي التي برزت إلى يميننا على جدول أعمالنا، ولكنني لم أستطع مقاومة التحدّي، فأصدرت الأمر بصعود الدرب الصخرية. كانت الكنيسة التي ظهرت للوهلة الأولى مثل كهف واسع، قد نُحتت من قبل منفيين هربوا من النزاع مع محطّمي الأصنام. وبدا أن الفنان الذي رسم اللوحات الجدارية من الكتاب المقدّس على السقف قد طلاها في ساعتين وفرّ. جعلتني الأعمدة النحيلة، والمصلّى الضيق، والزوايا الصغيرة المتناثرة هنا وهناك في أرجاء المكان أشعر بأنني على سفينة نوح نزلت تحت سطح الأرض.

أردت أن أصرخ "افتح يا سمسم!" حين اقتربت من المحراب الذي رُسِمَت لوحة يوم القيامة داخل قبته، وشعرت بعد قليل بخوف مفاجئ؛ هل كانت قطعة الجص المتدلّية من الممر على شكل خنجر نذيراً؟ ابتسمت وتابعت السير، وذهني يحاول معرفة سبب عدم انتقال الحيوانات البرية إلى هذه الكهوف المهملة. في أثناء عودتنا على الدرب، زلّت قدم باباس ووقع، فساعدته على النهوض وأنا أهمس في أذنه: "ينبغي أن أسال نومو عن سبب إرسالهم كيس بطاطا مثلك في إثري".

تابعنا السير بنشاط في الاتجاه الشرقي، وجذبتنا الدرب إليها مثل قصيدة مجهولة، من

دون أن ينسلَّ بيت واحد إلى الهوامش. كان الوقت آخر الأصيل، ولا أحد غيرنا تقريباً في الخارج؛ باستثناء مجموعة مترنّحة من اليابانيين العائدين من جولتهم. تتمتع كنائس كثيرة بلوحات جدارية للقديس جورج الذي يظهر فيها وهو يذبح تنيناً أو أفعى معادية للدين، ولهذا تدعى يلانلي كنيسة "الثعبان". وكان سبب اختياري كنيسة يلانلي في وادي إهلارا أنني أردت رؤية صورة المسيح (عليه السلام) وهو جالس ويضع ساقاً على أخرى، وانتابني فضول بشأن القدّيسين الأربعة والعشرين الذين يمثّلون الحروف الأربعة والعشرين للأبجدية البيزنطية.

تابعنا السير شرقاً، ومع اقتراب انقضاء الأصيل، أمست الطبيعة أقل روعة، وعبرنا إلى الجانب الأيسر من الجدول فوق جسر يشبه مركباً مقلوباً. بدا الصعود إلى كنيسة يلانلي مثل تطوير نوعٍ من التحدي للفريق. وتبيَّن في الواقع أنها مصلّى على شكل صليب نُحت في الصخر في القرن التاسع، وأعجبني الشعور الفوضوي بشأنها حين تجوّلت حاملاً مصباحي.

نقلت النبأ السار بأن حملتنا قد انتهت. وكنا نمشي عائدين نحو الجسر الصغير حين قفز أسكاريس فجأة علي وهو يصرخ: "جلالتك، احذر!". سقطنا على الأرض معاً حين أطلق رجل يقف على الصخور فوق الكنيسة النار ثلاث مرات علينا من مسدس. وبدا صوت الرصاصات وهي تئز فوق رأسي غنائياً. أفرغ كاليغاس مسدسه المصغّر بالمقابل، لكن أسكاريس ظنَّ آنذاك أن الظل الذي يرتدي بزّة تزلّج سوداء قد رحل بعيداً.

رفعت نفسي عن التراب وقلت لأسكاريس: "لا يمكنني التعبير عن شكري لك يا أسكاريس، وإنما أستطيع القول إنك لم تفشل في اختبار نومو للشجاعة".

á á á

إنه يومي الثالث في كبادوكيا. هناك رقم سحري في الحكايات الخيالية، لكن التفكير في هذا لم يكن دلالة جيدة. هل كان شيء أسوأ ينتظرني في أرض المداخن الطبيعية؟ حسناً، لم أهتم حتى لذلك، وقد بدأت أشعر بالملل من لعبة الشطرنج هذه التي قد أُرغمت عليها، وربما "لمتلازمة ستوكهولم" التي لم أستطع التغلب عليها علاقة بالأمر.

كانت رؤية الشروق أمراً مستحيلاً بسبب مناطيد الهواء الساخن السياحية الأربعين أو

أكثر التي تلوّث السماء. لم أتخيّل مستوى الإثارة التي يشعر بها الناس في تلك المناطيد برّاقة الألوان التي قد تبقى معلّقة في المكان نفسه نصف ساعة، لكنني كنت واثقاً بأنهم لا يهتمون كثيراً للجانب الشاعري من ارتقائهم بوساطة شعلة. تناولت الفطور في غرفتي، وانتظرت خروج الموجة الأولى من السياح من الكنائس، وفتحت با، للشاعر برهان كسكين.

عندما تردد صوت أذان الظهر في الأرجاء، كنا نكاد ندخل متحف جوريم الهواء الطلق الذي يضم كنيسة توقالي القائمة بهدوء خلف جداره الإستنادي، وترمز إلى قداسة كبادوكيا. اكتشفت داخل المكان العائد إلى القرن التاسع أسرار كل كهف وملتجأ تحت الأرض. كانت الرسوم الجدارية في كنيسة توقالي مثل لوحات زيتية مقارنة بالنقوش والرسوم في الكنائس الثماني الأخرى، وفكّرت أن فن توقالي يعتذر تقريباً من الكتاب المقدّس نيابة عن المواد الأخرى، وبدت اللوحات الجدارية المقدّسة، بخلفياتها الملونة الزاهية، وكأنها في كرّاس معرض. ظنَّ جورج سفريس أنها تكوّن سرداً بصرياً للملحمة النصرانية بأسرها.

بجانبي، كان هناك ثنائي بريطاني متقدّم بالعمر في الكنيسة. وكانا يتكلمان همساً، ومثلي يفحصان بصبر الجدران والسقف باستعمال مصباحيهما. كنت بمفردي تماماً حين وجدت المربع الأرجواني ينتظرني على طاولة "العشاء الأخير"، في الجزء الأوسط من اللوحة المرسومة في مكان التقاء قبة الكنيسة بالجدار، وترتفع عشر أقدام من حيث أقف؛ لكنني لم أستغرق وقتاً طويلاً لأجد طريقة للوصول إلى هناك. أخرجت العلبة الفضية من حقيبتي ورفعتها تحت اللوحة تماماً، وانقضت ثانيتان تقريباً لينزل المربع الأرجواني، إلى العلبة ويستقر تماماً في أمانها، وظهرت مباشرة هذه الكلمات: "آيا صوفيا، القسطنطينية". أغلقت العلبة متمتماً: "طبعاً سيفاجئني عدم وجود آيا صوفيا في هذه الأحجية الفسيفسائية البيزنطية".

لم أغادر كنيسة توقالي فوراً، وشعرت ببعض الانزعاج من وصولي إلى النهاية السعيدة بتلك السرعة. هل كان الشيطان المجنّح الذي التقيته سابقاً في وادي إهلارا هو الذي أرشد مصباحي إلى العشاء غير المنتهي قبل أكثر من ألف عام؟ وفقاً لدليلي السياحي، كنت قد

حصلت على المربع الأخير من يد الخائن يهوذا الإسخربوطي، وشعرت بقلبي يخفق وجبيني يحكّني بقوة. مشيت ذهاباً وإياباً في الرواق المعتم، وفكّرت إن كنت قد اختُبرت أمس بالشجاعة واليوم بالخداع؟ أُنقذت أمس من قاتل مأجور، فهل أتلقى اليوم نبأ وجود خائن بيننا؟ حسناً إذاً، إذا صح هذا، فلماذا لم تكن نومو تحمي إمبراطورها الذي يجتاز امتحاناته بنشاط ونجاح؟ هل هذا اختبار ضغط آخر؟

هل كان المربع الأخير الذي أخذته من يد يهوذا يتضمن رسالة ؟ إذا كان هناك خائن في الفريق ، فمن واجب نومو أن تقضي عليه ، وكرهت فكرة وضع لائحة بمرشحين من دائرتي المقرّبة ، لكن ليحيا الحدس! تذكرت لائحة أعدّها أبـي سابقاً وقد رأيتها بين كتب جدي النادرة ، لكنني لم أستطع العثور عليها آنذاك ، وهي كما أتذكر تبدو شيئاً مثل أحجية فسيفسائية مع زخرفة. إذا كنت شخصية في رواية - كما فكّرت مبتسماً - فبإمكاني أن أجدها بسهولة وأستنتج أدلّة سرية منها.

حدّدت منافسة الشطرنج في نصف الكرة الجنوبـي في شهر نيسان ، وكنت على وشك التسجيل حين اتصل بـي نديم من كولو ، وكان صوته متوتراً.

قال: "يا صديقي العزيز ، لدي أشياء أخبرك بها ، لكن أولاً ينبغي أن تعدني أنك لن تغضب".

قلت: "هيا يا نديم ، ماذا يمكنك أن تفعل لتغضبني ؟".

"اسمع يا صديقي ، أعجبتني منذ اللحظة التي وقع فيها بصري عليك ، وأنت مثل ملاك بالنسبة لي. بعد توديعنا بعضنا ، لم أنعم بنوم هانئ لمدة يومين ، وقررت الذهاب لرؤية السيدة الأستاذة التي فطرت قلبك. فتوجهت إلى مكتبها في الجامعة ، واعتذرت عن تطفّلي ، وطلبت أن تمنحني عشر دقائق من وقتها. أخبرتها كيف قد تبعناها لمدة يومين ، وعن مدى جدّيتك بشأنها ، وأقسمت إنك لا تعرف شيئاً عن زيارتي لها. قلت: آنسة ميسترال ، إذا كنت تظنين أن مواطني غير جدير بك لأنكِ لا تعرفينه جيداً ، فستكون هذه غلطة فادحة. لن تجدي رجلاً صادقاً آخر مثله في أي مكان ، حتى ولو أنني لم أحضر إلى هنا لأخبرك بهذا فسأشعر بتأنيب الضمير في كل مرة أصلّي فيها. ظننت أنها ستندهش ، لكن أنا من دُهش حين بدأت تضحك. وقالت لي:

"اسمك لطيف ، ماذا يعني ؟".

قلت: "يعني الصديق المقرّب بالعربية ، وكنيتي عرب أوغلو ، أي ابن عربـي". نظرت إلي وقالت: "آه ، أنتما تركيان". ثم أضافت: "اسمع يا نديم ، أنا أناضولية وسويدية في الوقت

نفسه ، وسأخبرك سراً إن احتفظت به لنفسك. اكتشفت في كانون الثاني الماضي أنني مصابة بمرض عضال. وعندما كان كلاكما يحاول التحرّي عني ، كنت أعاني اكتئاباً لأنني لم أجد طريقة مناسبة أنقل بها النبأ لأبي ، رغم أنني قد دعوته من أثينا لهذا الغرض. إنه المرض نفسه الذي توفيت أمي بسببه ، ومن الآن فصاعداً - كما أخشى - سأكون مشغولة في الكفاح من أجل حياتي".

صديقي العزيز ، أعجبتني ميسترال هذه نظراً للطريقة التي نقلت لي بها هذا النبأ الصادم ، والفتاة المسكينة شجاعة وناضجة. أخبرتها: "إذا كان مرضك شيئاً تستطيعين هزيمته ، فأنا واثق أنك ستفعلين ؛ وذلك نظراً إلى الطريقة التي تتكلمين بها. سأدعو من أجلك ، وإذا احتجت إلى سيارة أجرة ، فسيكون مواطنك نديم تحت تصرّفك".

اتصلت بـي مرة أو اثنتين ، وأخذتها إلى بعض الأماكن ؛ حتى خارج وقت خدمتي ، وأمس اصطحبنا والدها من المطار ، وقد انهار حين سمع عن حال ابنته ، لكنه سيطر على نفسه حين وصلنا إلى المستشفى. رغم هذا ، بكى طوال الوقت هناك ، في حين حبست دموعي بصعوبة. بعد ثلاثة أيام ستخضع ميسترال لعملية معقّدة في مستشفى الجامعة ، ولا يوجد أحد ليساعد والدها الهستيري على البقاء هادئاً. ثم إن كوستاس أفندي لا يعرف السويدية ، وتركيته ليست جيدة كفاية بالنسبة لي لأتمكن من مساعدته في أي شيء. إضافة إلى هذا ، في السويد يتفادى الناس طلب المساعدة من بعضهم بعضاً ؛ حتى في ملء ملعقة ملح.

إذا لم تكن مشغولاً جداً ، فهل يمكنك أن تحزم أمتعتك وتأتي فوراً؟ ستفرح الفتاة المسكينة حين تراك مع والدها قبل العملية ، ثم إنها سترى أنك لست مجرد صديق في أيام الرخاء فقط...".

ازداد شعوري سوءاً مع كل جملة ، وقد غضبت من نفسي لإرسالي تلك الرسالة والتسبّب لها بمزيد من الألم. دوّنت بسرعة التفاصيل وقلت: "سأحضر فوراً ، قابلني في المستشفى. وفي هذا الأثناء ، لا تدعهما وحدهما".

لسبب ما خطرت لي فكرة الاتصال بأسكاريس ، وزوّدته بالتفاصيل عن عملية ميسترال.

ورغم أنني لم أتكلم أبداً عن الأمر، إلاّ أنه بدا واضحاً أنه يعرف بشأن "مغامرة ميسترال"؛ على الأرجح أكثر مني.

قلت: "ماذا يمكن أن تفعل نومو لمؤرخة بيزنطية على فراش موتها؟ أودُّ حقاً معرفة هذا". وأنهيت المكالمة.

á á á

كان الوقت منتصف الربيع، وستوكهولم مثل مدينة حلم تبدو طبيعتها بدرجات ألوانها الفاتحة وكأنها قد تختفي في سحابة غبار إن نفخ أحد عليها قليلاً، وسرّني التفكير في أنني سأشعر بالراحة إن مشيت في الشوارع التي تغري بالنوم وقتاً طويلاً كفاية. كان من الواضح أن سكان سولنا قد أقسموا على الصمت إن وضع مستشفى جامعة كارولنسكا في ضاحيتهم، وبدا المجّمع من بعيد وكأنه مصنوع من قطع ليغو، وافترضت أن التصميم الداخلي قد جاء مباشرة من قاعة عرض إيكيا.

تعانقت ونديم من كولو عند البوابة الرئيسة، وقال: "لقد جلبت حظاً طيباً يا صديقي، فقد ضمّوا للتو أفضل جرّاح في البلاد إلى فريق العملية". انتابني شعور فوري بأن لنومو علاقة بالأمر. وضمَّ الفريق ممرضة اسمها حليمة كانت - مصادفة - من كولو أيضاً. افترضت هذه المرأة الريّانة الغافلة عن التطورات الأخيرة أنني كنت خطيب ميسترال، ووفقاً لرواياتها - بتركية وسويدية مختلطتين - ستخضع المريضة لعملية مدتها ساعتان ونصف الساعة على الأقل في رحمها. عندما نطقت الجملة الكئيبة - "حتى إذا نجت، فلن تُرزق بأولاد أبداً" - وقع بصرها علي بإشفاق، وكرّرت أن من واجبي إنقاذ ميسترال من أبيها الهستيري، وأنها ستعود بعد عشر دقائق لتأخذ المريضة إلى غرفة العمليات.

فتحت باب الغرفة 527 بضع بوصات، فبدت لي ميسترال شاحبة ومرهقة، وبصرها ثابت على نقطة ما في السقف. كان والدها يبكي إلى جانب سريرها، ولم ينقضِ وقت طويل لأكتشف طريقة تغيّر هذا المشهد. تذكرت هوس كوستاس سابونتزاوغلو بالسمك، وهمست ببيتين من "ملحمة إسطنبول" في أذنه:

عندما يقول شخص "إسطنبول"

أفكّر في شبكة أسماك ضخمة.

نظر إلي، وتوقف نحيبه، وارتعشت شفتاه. وقفت وتابعت سرد أبيات مفعمة بأسماء يونانية لأسماك إسطنبول:

قسم واحد شبكة عنكبوت واهية

ممتدة بإحكام على بيكوز

قسم آخر مرتخٍ على فنربخشة

أربعون سمكة طون زرقاء في الشبكة

تتلوّى مثل أربعين حجر رحى

عندما تقول "سمكة طون زرقاء" تعني

ملكة الأسماك، أسماك الطون الزرقاء

أُصيب في العين ببندقية صيد

أشجار في البحر مقلوبة

شبكة الأسماك وعاء دم

المياه الفيروزية الصافية حالكة الآن

في طرفة عين أربعون سمكة طون زرقاء

تحرك لسان الصيّاد فرحاً

حطَّ نورس على الصاري ليبتلع

الشَّوب التي التقطها في الجو

وطار مبتعداً من دون انتظار المزيد

يقول إن اسمها ماريكا

مثل هذه تأتي وتذهب دائماً.

عندما توقفت، ألقى كوستاس ذراعيه حولي وقال: "من أين جئت يا ابن غلطة؟".

"بابا كوستا، لم ينته عملي هنا بعد. بعد أن التقيتك قابلت ابنتك وأصبحنا صديقين تقريباً. وقد قيل لي إنها تحتاج إلى جراحة، لذا جئت لأرى إن كان هناك شيء يمكنني فعله

للمساعدة".

ثم أمسكت ذراعه وسلّمته إلى نديم الذي كان ينتظر في الخارج. جلست على الكرسي بجانب سرير ميسترال، ومسحت العرق عن جبينها بيدي، ومنعها ضعفها الشديد من قول أي شيء، لكن جفنيها ارتعشا.

قلت: "دكتورة سابونتزاوغلو، ستُجرى لك عملية من قبل أفضل الجرّاحين في البلاد. في حال لم تلاحظي، رقم غرفتك هو 527 الذي كان - دعيني أذكّرك - عام تولّي جستنيان الكبير عرش بيزنطة. لن أتركك أو أترك والدك بمفرده حتى تتحسّني، ولأنني قد لا أحظى بفرصة ثانية، دعيني أعتذر عن الرسالة الخاطئة التي بعثتها لك في الوقت الخطأ".

حاولت أن تبتسم، ورفعت يدها اليمنى وأغمضت عينيها، وبدا وجهها مشرقاً. م أستطع منع نفسي، فلمست وجنتها قليلاً بطرف إصبعي، وأدركت أنه لن يكون إخراجها من حياتي سهلاً. وعندما دفعوا سريرها إلى المصعد، فقد بابا كوستاس وعيه، وأنعشه الطبيب وأمر بإخراجه من المستشفى، فأرسلته إلى منزل ابنته مع نديم، ووعدته أنني سأبقى مع ميسترال حتى تتعافى.

دامت العملية ثلاث ساعات، واتصل بابا كوستاس كل ساعة. استأصل الجرّاحون رحم ميسترال ومبيضيها، وقرّروا أن ذلك كافٍ، وقالوا إنها ستحتاج إلى يوم لتستعيد وعيها. طلبت من نديم أن يشرح الوضع لكوستاس حين يحضره إلى المستشفى. وعندما خرجا من المصعد، اندفعنا جميعاً نحو بعضنا بعضاً نتعانق معاً.

قلت بالتركية: "لدي نبأ جيد وآخر أقل جودة لك يا كوستاس من إدرميت".

أجاب بالإنكليزية وهو يعنّفني تقريباً: "لا تخبرني أن ابنتي قد أُنقذت لكنها معوقة يا ابن غلطة!".

"ابنتك أُنقذت نعم، وإنما لن تستطيع إنجاب أولاد. يمكن أن تقبلني حفيداً إن شئت، وسأكون سعيداً بأن أدعوك جدي".

قال بصوت عالٍ: "أتمنى أن يكون لي صهر مثلك". فوضعت ذراعي حوله مجدداً.

"تستحق ابنتك رجلاً أفضل مني. لكن، لا تدع هذا يمنعك من محبتي أكثر من

صهرك".

أرسلت كوستاس سابونتزاوغلو إلى المنزل مجدداً. كان الوقت آخر الأصيل، وكنت جالساً في الرواق، أكاد أبدأ بقراءة قصائد منتقاة لهنريك نوردبراندت حين حصل اضطراب مفاجئ في غرفة ميسترال. ثم اندفعت حليمة إلي قائلة: "هناك مضاعفات. ما زمرة دمك؟". كانت زمرة دمي مطابقة، لكنهم احتاجوا إلى المزيد، فاستدعينا "نديم"، وتمتمت حليمة: "دم الأمة التركية كله إيجابي".

قضيت نصف وقتي طوال يومين وأنا أحرس باب ميسترال. وأحببت رؤيتها وهي تستجمع قوتها. وبدا الأمر مثل بستاني يشاهد نباتاته وهي تنمو. تكيّفت مع نمط حياة المستشفى، فكنت أقرأ حين يكون الجو هادئاً، وأحيّي المرضى وأقرباءهم في الممرات. وفي صباح اليوم الثالث، انضمت حليمة إلي.

قالت: "يا أخي، لم أكن منصفة معك".

"لماذا تقولين هذا يا حليمة؟".

"ظننت أنك ستهجر فتاتك حين تسمع أنها لن تنجب أولاداً. إحدى الصفات السيئة لدى الرجال الأتراك هي أنهم يرون المرأة آلة تناسل. لكنني أرى كيف تعاملها، وأعرف أنك ستمنحها عضواً إن دعت الحاجة. حسناً، إذا كنت تفكّر: ليس من دون طفل، يمكنك أن تتبنّى واحداً، وسيكون هذا شيئاً جيداً".

كنت مرهقاً جداً لأشرح حقيقة الوضع لحليمة. أو ربما كنت خائفاً من توبيخها لي. بعد ساعتين من ذلك، أعلن الطبيب المناوب أن المريضة تستطيع استقبال الزائرين، فاتصلت بكوستاس، ولكنني خشيت من أن يفقد وعيه مجدداً على الطريق. نحّيت "نديم" جانباً وقلت له: "لا أريد أن أكون هنا حين تستيقظ ميسترال. فقد تظن أن لدي توقّعات وتشعر بأنها مرغمة أن تبادلني العواطف".

ردَّ: "ماذا عساي أقول؟ أنت تفكّر حقاً في كل شيء. أسأل الله أن يهبك ما تستحقه، آمل أن تصبح يوماً ما رئيس بلادنا".

ربت كل منا على كتف الآخر، وودّعنا بعضنا مرة أخرى، ووضعت ما يعادل أجور أربعة

أيام في جيب معطفه. استأذنت كوستاس للمغادرة ، وأبلغته أنني سأعود بعد الحصول على استراحة ، ثم دفعت أجور المستشفى المختلفة ، وأرسلت سلّتي ورود إلى ميسترال وحليمة من أول بائع زهور عثرت عليه ، وعدت إلى فندقي.

أخبرني سائق سيارة الأجرة الصربي الذي أقلّني إلى المطار في الصباح التالي أن الوقت المثالي لزيارة ستوكهولم هو تموز ؛ فالمحليون يذهبون جنوباً إلى البلاد الدافئة كما قال ، ويتركون الشوارع لرحّالة العالم. كنت على وشك إلقاء دعابة من نمط: "لا شيء سيعيدني إلى هنا إلا جائزة نوبل لعدم قدرتي على جذب امرأة حياتي ، لكنني أحجمت عن ذلك. في المقام الأول ، لن تكون إنكليزيته بالمستوى المنشود. وثانياً ، رأيت أنه يشبه ، بشعره اللامع ، التمثال النصفي للإسكندر الكبير. كانت جدتي لأبي سيئة الطالع صربية ، ولم أرغب بإثارة نقاش ماراثوني عن تفاصيل سلالتي ، وبدا ماضيَّ متاهة تحاول ابتلاع منعطفها الأخير.

á á á

سافرت جواً من لندن إلى ساو باولو التي سُمّيت تيمناً بالقديس بولص من طرسوس - بلدة في جنوبي تركيا - ولم يكن غواروليوس اسماً جذاباً للمطار ، الذي يشبه خلية نحل منوّمة بأي حال. فاحت في الطريق من سيارة الأجرة إلى فندق إنتركونتيننتال رائحة الفانيلا ، وتساءلت عن معنى التخفّي ، ودهشت لأنّ السائق - ساندرو - لم يسألني من أين جئت ، وعندما لاحظ أنني أُعجبت بالسوق الضخمة ، حاول أن يعرّفني إلى البلدة بإنكليزية ركيكة.

"تأسّست ساو باولو في القرن السادس عشر... إنها البلدة الأكثر حداثة في البرازيل... يفوق عدد سكانها 12 مليوناً...".

أمعن النظر إلي في المرآة الداخلية ، ثم بدأ يوجز لي عروض البلدة الجنسية ، وتحسّنت إنكليزيته.

"يا سيد ، هل تود أن تحظى بفتاة أجمل من أولئك اللواتي تراهن في كرنفال ريو ؟".

"إذا كن يتحدّثن الإنكليزية ، فأودّ أن أحظى باثنتين منهما يا ساندرو".

لم أفترض أن الفتيات الخُلاسيات يعرفن شاعرهن الوطني البارز؛ ماشادو دي أسيس، وسُررت حين سألتني صاحبة الأظافر الصفراء اللامعة من أين جئت.

"أنا من البلاد التي ولد فيها القدّيس الذي منح بلادك اسمه".

قالت التي تمضغ العلكة: "أتعني أنك من السماء؟".

في إنتركونتيننتال شاركت في مسابقة شطرنج مكوّنة من أربع مجموعات. وعندما تغلّبت على منافسيَّ الستة أصبحت الأول في مجموعتي. وسافرت جواً مع أبطال الفرق الثلاثة الأخرى إلى أوشوايا عبر بوينس آيرس. تغلّبنا في أقصى بلدة جنوبي الأرض - مكان هادئ - على أبطال منافسة موازية في ليما، وهزمني في المباراة النهائية صيّاد متقاعد؛ فلاد غودنوف من سانت بطرسبرغ، ولم أدرك إلا متأخراً استراتيجية الروسي. لكن بحلول ذلك الوقت تذكرت المكان الذي وضعت فيه لائحة أ.ب.ي.

كان سلجوق ألتون من وجد لي نسخة موقّعة بالتركية من كتاب أستاذ الشطرنج غاري غاسباروف أساتذتي. كانت الوثيقة التي حان دور فك شيفرتها بين صفحات الفصل عن كابابلانكا، وعندما يُثار موضوع العبقرية في الشطرنج، يبرز اسم خوسيه راؤول كابابلانكا (1882-1942) بالتأكيد. تعلّم الرجل الشطرنج حين بلغ الخامسة، وكان يشاهد مباراة حين توفي، ولم يتدرّب كثيراً أو يغشَّ ضد أساتذة آخرين أبداً، كما فعل منافسوه، وبدلاً من الدخول في مبارزات نفسية مع خصومه ركّز على هجومه. قارنت أسلوبه بقصيدة يمكن فهمها من دون بيت واحد إضافي، وكنت سأعتبر كابابلانكا نموذجاً لحركاتي في المتاهة البيزنطية.

استمتعت في أمريكا الجنوبية حتى أيار، وتساءلت عمّا كان يعنيه عدم تلقي أي رسائل، أو حتى "شكراً لك" من ميسترال؟ إذا كانت ويندي ساد بجواري، فستقول من دون شك: "هي تلتزم الصمت من أجل تطوّرات المستقبل الجيدة"، في حين ستقول جدتي، من ناحية أخرى: "تلك الوضيعة اليونانية عديمة الفائدة!".

أصبحت الورقة التي دفعتها في كتاب عن تاريخ الشطرنج قبل تسعة شهور، معتقداً أنها إحدى الوثائق الخاصة بجدي فقط، أمامي الآن؛ لكن بوصفها وثيقة خاصة بأب.ي.

كانت هناك جملة واحدة بالعربية في أحد المثلثات الخمسة لنجمة رُسمت بمسطرة، وضمّت المثلثات الأربعة الأخرى شيفرات هي مزيج من حروف وأرقام، حللت اثنتين منها بتحريك الرموز ونقلها، في حين وضعت الجملة العربية أمام المرآة. لكن خلال ثلاث ساعات كنت أنظر إلى خمس جمل، وقد تمنّى أب.ي على الأرجح أن يجد شخصاً يحلُّ شيفرات - يُفضّل أن يكون ابنه - القائمة، ورتّبت الجمل التي حُلت رموزها بالتعاقب:

ي. أ.: الرجل المتواضع الذي التمس مني عملياً الزواج بابنته؛ كأنه يتوقع تقريباً منقذاً له من مكيدة غامضة.

ع. أ.: بدلاً من أرستقراطية شرقية، تزوجت عرّافة شرقية.

ابني: عانيت الكثير بسبب أب.ي، لذا لن يعاني كثيراً بسبب أبيه، وقد عهدت به إلى أ. ج.

بدأ كل شيء بالتشكيك بالأسماء.

ينبغي أن أحصل على تعويضي.

لم يحظَ جدي - الذي لم تعتبر نومو أنه ينتمي إلى المختارين - باحترام زوجته وابنته أيضاً، لكن سكان غلطة يتذكرون يحيى أصيل الذي أفلس في كل جوانب حياته بمحبة كبيرة. أظن أن كل ما أراده بتزويج ابنته إلى رجل كفؤ، هو وريث واعد لعرشه المنفي، وبدا المستأجر الأمريكي مرشّحاً جيداً. آنذاك، خارج نطاق مسألة تورط نومو في كل ذلك، كانت هناك مشكلة أخرى أمامي ينبغي أن أتعامل معها: إذا لم أستطع تحقيق مكانة المختار بنفسي، وأتعلّم ما ينبغي تعلّمه، فسأذوي في منطقة الشفق.

- لم تدهشني الصداقة بين أب.ي وأوجينيو جينالي أيضاً، وأردت سماع قصة بول هاكيت منه، إضافة إلى تفسير من طرف ثالث عن علاقة أب.ي وأمي.

- بعد اكتشافي أنني قسطنطين الخامس عشر، عرفت أن اسمَي جدي وأمي تركيان

معدّلان من "جوانز" و"صوفيا". إذا كان أبي قد حلَّ جوهر هذين الاسمين من دون مساعدة أدلّة ، فينبغي أن أتمكّن من الوصول إلى نهاية هذه الطريق أيضاً.

- "ينبغي أن أحصل على التعويض". هذا أكثر من قرار ، بدت هذه الجملة كما لو أنها تشير إلى الرغبة في تلفيق عذر. إذا ظنّت أمي أن أبي قد أخذ شيئاً من المنزل عند طرده منه ، فقد كانت ستذكرنا بالحقيقة مراراً وبكثير من التفصيل ؛ لذا لم تكن تعرف شيئاً على الأرجح عن هذا "التعويض" الخاص ببول هاكيت. في هذه الحال ، هذا يعني أن أبي أراد مني الحذر من وجهة النظر هذه في القضية ، إن ظهرت لي.

نهضت عن طاولتي وذهبت إلى الشرفة حين رُفع أذان الظهر في مسجد بركة زاد علي أفندي ؛ أول مسجد يُبنى في الحي بعد الفتح. نظرت عبر القرن الذهبي إلى إسطنبول ؛ قلب القسطنطينية ، وانتظرت إلهاماً ، ورأيت ستارة ضباب تتلوّى وتغمز مثل عرّاف يقص أنباء سعيدة ، ثم دمّرها سرب من النوارس يزعق عالياً. خطرت في ذهني ألقاب أفراد فريقي المساعد.

لم أدعُ نفسي إلى العشاء في منزل أوجينيو فقط ، وإنما فرضت عليه قائمة طعام أيضاً. قال: "هل تريد راقصة شرقية أيضاً؟". فأجبت: "لا ، أفضّل الرقص مع الذئاب".

وعندما طلبت منه أن يخبرني عن العلاقة بين أمي وأبي ، قال: "آه ، ظننت أنهم قد جعلوك تمحو بول من كتابك".

سُررت لدى ملاحظتي أن نبرته أضحت أكثر جدّية حين قال: "عرفت أمك من أيام جامعتها" ، فقد عنى هذا أنه لن يكون متحيّزاً. "كانت جذّابة وطموحة ، واعتادت الخروج مع فتيات ثريات غير مسلمات ، وكان لقبها الأميرة. بخلاف أبيها ، امتازت بطموحها في العمل ونشاطها التجاري ، وربما يكون يحيى بيك قد أفسد ابنته ؛ لأنه رأى هذا وأعجبه. سألتها مرة إن كانت تريد أن تصبح عضواً في البرلمان عن حزب يميني ، فقالت: لا ، لا يمكن أن يضمنوا لي وزارة.

كانت شقق دوغان مفضّلة لدى الأجانب البوهيميين قبل ثلاثين عاماً ، وعندما حزم صحفي بريطاني أعرفه كان يعيش هناك أمتعته وعاد إلى لندن ، انتقل والدك إلى الشقة. كان رجلاً ودوداً ويعرف التركية بما فيه الكفاية ليتفاهم مع الآخرين ، واعتبر الجيران بول عميلاً سرياً ، لكنه لم يعترض لأنهم تصوّروا أنه يقاتل ضد العدو ذاته. كان ذكياً ، وذهب في رحلات غامضة كثيرة ، والتقى جدك في مسابقة نرد ، وأصبحا يدخّنان النرجيلة ويلعبان طاولة الزهر في كل فرصة ممكنة. وعندما فرغت شقة تطلُّ على منظر جميل في مبنى جدك ، انتقل بول إليها ودفع إيجاراً رمزياً. دُهشت لدى سماعي أنه يتودّد إلى والدتك لكنه لم يقل شيئاً ؛ لأنه لم يسألني رأيي أبداً ، وعرفت أن العلاقة لن تستمر بالزواج. تعب والدك ، من عمله ، وأراد أن يصبح أستاذاً جامعياً في العلاقات الدولية ، وظنَّ أنه إن أصبح صهر يحيى أصيل فذلك سيجنّبه مشكلة مالية ويسمح له بالبقاء في المدينة التي أحبها.

خلعت الأميرة عقيلة القناع الكرنفالي بعد شهر العسل وبدأت تقمع زوجها ، وفي الشهر السادس من زواجه غادر والدك منزله ولجأ إلى بيتي. كان قد قرّر الطلاق ، وعمل جدك وسيطاً بينهما وتصالحا بعد مرور بعض الوقت ، لكن الجرّة كُسرت. عاشا مثل غريبين في

المنزل نفسه، ثم وُلدت أنت، وحاولت والدتك تحويل مهمة العناية بك إلى الخادمة، لكن والدك اعترض، وأصبح - على حساب عمله - أباً وأماً لك. وعندما مات جدك، انهارت العلاقة تماماً، وقال والدك مرة: عندما كان أبوها حياً، عاملتني عقيلة مثل كبير خدم، لكنها تظنُّ الآن أنني الخادم.

كانت والدتك امرأة مرهفة الإحساس وغيوراً، ورغم أنني كنت صديق والدك، إنما لم تخطر لي فكرة أنه يرى أمينة سر كندية جميلة. أرسل شخص ما صورة إلى الأميرة التقطت لكليهما في حفل عشاء، وحدثت النتيجة المتوقعة. حاول رؤيتك عدّة مرات، لكن أنصار والدتك أبعدوه عنك، وكنت كل عام أرسل له صورة لك ألتقطها خلسة، إضافة إلى تقرير عمّا آل إليه أمرك.

بالنسبة إليك، قدّمت رسالة أنني موجود دائماً إن احتجت إلى العون، لكن يُتماً هشاً لم يكن إطلاقاً جزءاً من شخصيتك. تمتعت بالثبات، وظننت دائماً أنك محظوظ؛ لأنك ورثت أفضل صفات والديك وجديك".

"ما الصفة الجيدة التي حصلت عليها من أمي؟".

"لست طموحاً جداً مثلها، الحمد لله، لكنك تثابر على تحقيق أي هدف تفكر فيه".

برز آنذاك سؤال آخر على القائمة التي كنت سأقدّمها لنومو - إذا حظيت بفرصة لقائهم يوماً - لماذا أرسلتم إلى أمي صورة أبي مع حبيبته؟

"مرحباً أيها الأخ الكبير ، أين أنت ؟".

"كنت مع الليدي جين ، ومينا ، وياسمين ، وبريسيلا الثانية ، ونيفباهار وعدد كبير من السيدات النبيلات اللواتي لا أتذكر أسماءهن يا خيال".

"إذاً ، كنت في حلبة السباق".

"لو أن البشر اهتموا بـي كفاية ، ما كنت لأذهب إلى الخيول".

"آمل أن تفوز بما فيه الكفاية لتشتري لي خاتماً بلغارياً".

"أنقذ إسكندر نفسه ، وإنما بصعوبة. لقد سُرقت تماماً".

"هذا غريب ، فقد سُرقت هنا تماماً أيضاً".

"أختي الصغيرة ، هل يمكنك أن تشرحي لي هذه الجملة الأخيرة قليلاً ؟".

"حسناً ، اقتحم لص غبـي منزلك ، وأخذ بضعة أُطر صور فضية ، وبساطاً حريرياً ، ومذياعك. لسوء الحظ أنه ترك ذلك الطائر المغفّل المدعو تريستان".

"إذا حدث شيء لتريستان ، فسأضع اللوم على عينك الحسود أيتها الآنسة الغيور".

"الأفضل أن تسرع إلى المنزل وتفعل شيئاً بشأن هذا يا ابن الأمريكي عديم الفائدة".

دخلت المصعد وأنا أدعو ألا تكون تلك حادثة ماكرة أخرى من لص بسيط ، واندفعت خيال عبر الباب قائلة: "نسيت نظارتي" ، حين فتحته. ذهبت إلى غرفة المعيشة ، وظننت أنني سأصاب بأزمة قلبية ؛ فقد رأيت على الكرسي ذي الذراعين بجانب الشرفة ، ميسترال ، التي وقفت.

"ابقَ حيث أنت أيها الفارس الأبيض ، سأقدّم لك شرحاً في أربع جمل ، وقصيدة من تسعة أبيات.

عندما هربت من ستوكهولم ، انتظرت أن تعود إلى إسطنبول ؛ لأن لدي أشياء أخبرك بها أكثر من شكراً لك. أعلمتني خيال أنك عدت إلى البلدة ، لذا جئت إلى هنا مع قصيدة ، وآمل ألا تهرب إلى باتاغونيا حين أقرأها:

عندما يقول شخص إسطنبول ،

أكثر غموضاً من بيزنطة ،
أكثر غروراً من عثماني ،
ودود مثل الأناضول ،
واسع المعرفة وإنما مهذب ،
مسلٍّ وخجول ،
وسيم مثل قرلّى ،
عندما يقول شخص إسطنبول ،
أفكّر في حبيبـي خلاص".

وقفت ساكناً ، متسمّراً مثل هر تحت ضوء ساطع ، وفكّرت في ويندي ساد التي كانت محقة دائماً.

"هل أعيد قراءة القصيدة ثانية أيها الفارس ، أو أشرح لك الأبيات التي لم تفهمها ؟".

"أنا مشغول بالعدّ حتى العشرة يا ميسترال ، وإذا لم أسمع في هذا الوقت بيتاً آخر يحوّلها إلى دعابة ، فسأعانقك الآن ، ولن أتركك أبداً".

á á á

اسمي خلاص ، وبالعربية يعني "نجاة" ، وإذا عكسته تجد أن "صلاح" باللغة نفسها تعني السكينة والراحة والتقوى. هذا المعنى المضاعف مثل رمز بيزنطة وجوهرها ؛ نسر برأسين. إذا لم تكتشف جدتي أن اليونانيين يدعون بلدهم هلاس ، فسأكون شاكراً.

صدّقت ميسترال أنني في إجازة مدتها سنة ، وكان لدينا الكثير من الوقت لنمضيه معاً حتى الخريف ؛ بعد أن أنتهي من عملي في مؤسسة الاستثمار تلك التي لم تسمع بها أبداً في تموز. أرسلتها إلى ستوكهولم وحجزت نفسي في غرفتي ، وأزعجني احتمال أن أتعرّض للضغط: لم تكن مصادفة بالتأكيد أن يكون المربع الأرجواني الأخير الذي وجدته من دون صعوبة إطلاقاً مثبّتاً في يد الخائن يهوذا. لم تكن نومو لتقتنع أبداً بقول: "احذر ، هناك خائن بينكم" فقط. لكن ، ماذا الآن؟ هل كانوا يدفعونني إلى اختبار ضمن الآخر ، أم يبلغونني عن موقف خارج نطاق سيطرتهم؟ كان هناك تدبير وقائي واحد فقط يمكنني اتخاذه ، إضافة إلى الشك في كل صوت ومشهد بجواري ؛ وهو التحقّق من الثلاثي الذين لم تكن سيرهم الذاتية في متناول يدي ، وكانوا مسؤولين في الوقت عينه عن سلامتي. قد يحالفني حظ أكبر من أب.ي الذي قال بالمحصلة: "بدأ كل شيء مع الريبة بالأسماء" ، وربما تكون مكافأة الحصول على دليل من مجموعة ألقاب أكثر إثارة للدهشة.

كان عدم العثور على أسكاريس عبر الإنترنت غريباً ، مقارنة بحشدٍ من أسماء باباس وكاليغاس (لم أعرف إن كان ينبغي أن أضحك أم لا ، عندما عرفت حقيقة أن "أسكاريس" اسم طفيلي في علم الطب). اتصلت بتاجر الكتب بوزانت الذي يتقن عدّة لغات لأسأله إن كان من الممكن نقل لقب "عسكرجل" (قريب جندي)، المشتق من الكلمة التركية "عسكر" (جندي) ، إلى اليونانية على أنه "أسكاريس".

قال: "إذا كان ذلك بالأرمينية ، فستكون محقاً تماماً ، لكن باليونانية ، بالتأكيد لا".

توهّج مصباح في ذهني ، فتحرّكت ذهاباً وإياباً في غرفتي عدّة دقائق ، وتناولت جرعة مضاعفة من الشراب. ركبت أول طائرة متجهة إلى لندن في اليوم التالي ، وكنت بحاجة إلى العثور على منقذي أسكاريس ، لكن لم يكن لدي إلا تصوّر فقط عن مكان إقامته. في أثناء تدريب.ي في لندن ، ذكر أسكاريس وينشستر مرة أو اثنتين. ولم أكن لأدهش ، في الواقع ، إن وجدته يعيش في هذه المقاطعة الجنوبية الشرقية ؛ العاصمة السابقة لمملكتين التي يقطن فيها آنذاك 40,000 نسمة ، وتبعد ساعة عن لندن بالقطار. بصفتي طالب دكتوراه

كنت قد زرت وينشستر التي تحتضن أعلى كاتدرائية في أوروبا، ولم تثر إعجابي كثيراً. وتلك المرة، حين مشيت في الشوارع المزدحمة بسياح محليين، لفت انتباهي شكل المباني وحجمها. ترتفع أبنية جديدة باستمرار، لكن مع فائق الاحترام للتاريخ، ونتيجة لهذا اكتسبت وينشستر جو بلدة قصص أطفال، وشعرت بأنني مثل غوليفر يسير في ليليبوت. سَئِماً من الجو السياحي، لجأت إلى الكاتدرائية، ولم تعجبني معلومة أن جين أوستن مدفونة هناك، وشعرت بدوارٍ من احتمالات البحث السخيفة.

ظننت أنني سمعت صوتاً يقول: "طاب يومك أيها الشاب!"، فاستدرت متجهماً. كان "قس الزائرين" - وفقاً للوحة على صدره - قد تعرّفني ربما على أنني الزائر الأكثر كآبة، ولم يسعني إلا التفكير بأنه يدفع ثمن نوعٍ معين من الأخطاء بتأديته هذه المهمة. عندما أخبرته أنني جئت من إسطنبول، أبلغني بسعادة أن صهره قد عمل في تشييد أول جسر على البوسفور. وفي نهاية حديثنا الجغرافي، سألت القس الثرثار عن طريقة للعثور على شخص أعرفه قديماً، ربما من وينشستر، قد نسيت اسمه لكنني أحمل صورته معي، فقال وهو يضغط برفق على ذراعي اليمنى: "النادل دائم الشباب في كافيتيريا الكاتدرائية، ألان باكستون هو الرجل المنشود". وركّز اهتمامه بعد ذلك على الثنائي اللذين بدآ يتشاجران للتو أمامنا.

غلّفت رائحة اللحم الشهية المنبعثة من الكافيتيريا متجر التذكارات بجانبها، وعرفت أن خدمة الغداء قد بدأت، وبدا أن كل الزبائن المبكرين يفضّلون المواد منخفضة السعرات الحرارية ذاتها. بدا واضحاً أن البطاطا تُقدّم نصف ناضجة لتلائم لون يخنة اللحم. والنُدّل جميعاً كانوا يتجاوزون السبعين عاماً، ويمشون مثل مراقبين. كان ألان، منتصباً مثل نعامة، مسؤولاً عن جمع الكؤوس والصواني الفارغة، ويعاين الطاولات مثل منظار بشري، ثم يهاجم فوراً الشاغرة منها، وبدت مراقبة ما يجري أمراً مسلياً. منتهزاً الفرصة المناسبة، دفعت صورة أسكاريس الموجودة على هاتفي الخلوي تحت أنف ألان فأطلق الرجل صفيراً طويلاً، وقال بعد هذا التمهيد: "لم يعش أحد بهذا القبح في وينشستر طوال السنوات الأربع والسبعين الأخيرة". ثم استدار على قدم واحدة، وابتعد بسرعة.

كان ذلك مثل القول إن أسكاريس، بلهجته المثالية من كامبريدج وآدابه المتكلّفة، يختبئ في لندن. عندما عدت إلى الفندق، اتصلت بهاتفه الخلوي ودعوته إلى مطعم البيتزا المفضّل لدي في نايتسبريدج، وقلت له إنني قد جئت إلى لندن لأشارك في حفل ذكرى ميلاد مفاجئ لصديق دراسة قديم، وعرفت أنه سيشعر ببعض القلق حين أضفت: "لدي أشياء أخبرك بها". جاء إلى بومودورو بأقصى سرعة، وعرفت أنه سيسترخي حين يسمع أن الموضوع الذي أردت مشاطرته إيّاه يخص علاقتي مع ميسترال، وسألت في لحظة الاسترخاء تلك: "إذاً، أي جزيرة يونانية تقترح أن أصطحب حبيبتي إليها في ذكرى ميلادها؟".

أجاب من دون أن يفكر لحظة: "رودوس"، ثم أضاف: "سانتوريني، ميكونوس، باروس". لكن، لم تكن لهذا أي فائدة.

قبل أسابيع، عندما كنا في أثينا، كان أسكاريس قد استودعني سراً في مشرب الفندق، وهو أنه قضى طفولة تعيسة على إحدى جزر بحر إيجة، واعتذر فزعاً بعد ذلك فوراً. أشارت الحادثة إلى شيء لم أستطع وضع إصبعي عليه في ذلك الوقت، وبدا واضحاً أن ذلك المكان المبجّل هو رودوس. كان الوقت قد حان لأزور الجزيرة وأكتشف الاسم الأصلي لنيكوس أسكاريس، ولم أرغب في التفكير في ما قد تورّطني به هذه الحركة بعد ذلك، وأملي الوحيد أنني أحلم بكل هذا.

عند التاسعة، كانت أوركسترا الرجل الواحد في بومودورو تكاد تبدأ عرضها. وعندما دفعت الفاتورة، حاولت طمأنة أسكاريس. "أظن أنني سأختار باروس من بين الخيارات التي عرضتها. تذكرت للتو أنها كانت المفضّلة لدى جورج سفريس؛ الشاعر من إزمير".

أبحرت من مرمرة في تركيا، إلى رودوس على متن مركب متداع. وبدا الركاب اليونانيون مثل متنزهين مرهقين وسعيدين في طريقهم إلى الديار. عندما أبعدني شخير عن شعر فلاديمير هولان، حوّلت انتباهي إلى الأسرة الجالسة قبالتي، وجعَلتِ المرأة العجوز بوشاحها ومعطفها المطري في قيظ حزيران - التي تثبّت بصرها على الأرضية - عنقي يتعرّق. واجهت مشكلة في تصديق أنها تتجه إلى الجزيرة في الإجازة نفسها مثل ابنها البدين، وكنتها الجذّابة، وحفيدها البالغ من العمر خمسة أعوام. وكلما تمايل المركب عبر سلسلة

من الأمواج ،كانت تتضرّع بصوتٍ عالٍ ، ما يجعل الطفل ينفجر ضحكاً. كان اسمه كاندانكان ، وقهقه على الأرجح في تينك الساعتين أكثر مما فعلت في سنواتي الأربع والثلاثين ، وأشارت أمه التي تمضغ علكة "مثل امرأة تركب دراجة هوائية" بكلمات إسكندر أَبِيه إليّ وقالت لابنها صعب المراس: "ذلك الرجل مطهّر ، فأحسن التصرّف!". ما جعل الفتى شائك الشعر يميل بحذر نحوي.

"هل أنت مطهّر حقاً ؟".

"مطهّر وملك أيضاً!".

"هل تعرف الملك الأسد ؟".

"عندما يراني ، يفر مبتعداً".

"هل لديك حصان يَعدو على المحيط ؟".

"لدي حصان أزرق يعدو على المحيط ، ويطير ويتشقلب في الهواء أحياناً ، وينتظرني حيث سنذهب. إذا بقيت لطيفاً وهادئاً ، فسأجعلك تمتطيه حين نصل إلى هناك".

مع تسمّر كاندانكان على مقعده ، لم يغادره مجدداً. سُررت كثيراً لدى رؤيتي الأسرة تحدّق إلي بريبة. وعندما وصلنا إلى الجزيرة ، كان مستغرقاً في النوم على حجر جدته ، فغادرت المركب مسرعاً قبل أن يستيقظ وترّحب به رودوس ، لا حصان أزرق سحري. أفزعني افتراضي المفاجئ أنني سأقع في حب الجزيرة ، وشممت رائحة مشمس في الجو ، وشعرت بأن مجسّ أخطبوط يسحبني ببطء إلى المشهد. اخترت "فخم" في المدينة القديمة ليكون فندقي نظراً إلى اسمه ، وشبّهت شجرة الخرنوب الضخمة في ساحته بدرويش يرفع يديه إلى السماء ، وأردت أن أجلس تحتها وأقرأ ريتسوس ، لكن بدا مستحيلاً وضع خطة عمل من دون القيام بجولتي الاستكشافية المعتادة بعد أن أستقر. كان الوقت آخر الأصيل ، ووفقاً لموظف الاستقبال الذي افترض أنني أتكلم الإنكليزية بلهجة بريطانية حضرية ، يمكنني الاستمتاع بمباهج المدينة القديمة ؛ لأن كل السياح الصاخبين موجودون على الشاطئ.

بدت رودوس على الخرائط مثل ورقة عملاقة عائمة على البحر ، وعندما التقت تلك الكتلة الضخمة الخضراء إيجة الأزرق ، تكوّنت طبقة صفراء ساطعة من الأرض. إذا كانت

القلعة على التلة راعياً، والمخازن على الواجهة المائية كلابه، فستكون مجموعات الأبنية المحصورة بينهما قطعان خرفان وحملان. وبدا السكان مثل غرباء متعبين من انتظار رسالة لن تصل أبداً، وهم يتمتعون بأجساد تركية-يونانية ووقفات أنيقة. سرت عشوائياً على طول الشوارع الضيقة الخالية من متاجر التذكارات، وعندما بدأ السياح يتوافدون إلى المدينة القديمة ليرفّهوا عن أنفسهم في المساء، تابعت الانتقال عبر الجادات المرتبطة ببعضها بعضاً، في حين تحرّك الحضريون الذين غادروا مكاتبهم في الشوارع مستقلين سياراتهم. أشارت كل ساعة - في الداخل أو الخارج - إلى وقت مختلف، وكنت سأصدّق إن قال لي شخص ما إنهم قد نسوا إلغاء التعتيم بعد الحرب العالمية الثانية.

كانت المقاهي خارج المسالك السياحية مملوءة محليين، وفي كل مشرب دخلت إليه رأيت أيقونات أصلية. بدت الترجمات الحرفية الغريبة إلى الإنكليزية على مظلات المتاجر كوميدية-تراجيدية تقريباً؛ وتلك هي المقاربة التركية أيضاً، طبعاً. كان مالك المطعم الموصى لي به من إزمير أصلاً ويدعى ثيو، وزعم أن بمقدوره معرفة أنني تركي من الطريقة التي جلست فيها على كرسي، ولم يصدّق النادل الألباني أنني قد قرأت رواية لكاتبهم الوطني إسماعيل قادري. حاولت أن أبدو مقنعاً حين قلت إنني أجمع بين العمل والمتعة حين سألني ثيو عمّا كنت أفعله بمفردي على الجزيرة. وقد ظنّت ميسترال أن لدي موعداً في رودوس مع رجل أعمال عرب.ي.

تناولت الفطور باكراً، ثم ذهبت إلى الجزء الأعلى - التركي - من الجزيرة عن طريق جادة سوكراتيس الهادئة. كان لا يزال هناك نحو 1500 تركي وثلاثين مسجداً على الجزيرة. مشيت في الشوارع المقفرة المرصوفة بالحصى نحو الساحل، ورأيت أن المنازل المنخفضة لم تُطلَ منذ أن بُنيت، وذكّرتني بالقرى الجبلية المحتضرة على ساحل إيجة. نظرت عبر الستائر المفتوحة جزئياً، ورأيت غرفاً بسيطة الأثاث، واسترقت السمع إلى الشائعات التي تُقال بتركية عمرها أربعون عاماً. كان أفضل وصف لحال الأطفال في الشوارع هو "كئيب"، فغمرتني كآبة مع شعور قصير وإنما قوي بالذنب.

هل كنت أتجوّل في معرض هواء طلق يدعى "فتنة المحطّم والمبتذل"؟ استنتجت أن

هدف الأعمال الفنية المحطّمة، والصدئة، والمشقّقة، والممزقة، والمتهدّمة، والغارقة، والمجوّفة كان إثارة تعداد في ذهن الرحّالة.

حاولت أن أتذكّر اسم الإمبراطور البيزنطي في المنفى حين افتُتح مسجد إبراهيم باشا للصلاة عام 1530، وقد أخذ المعماري بالحسبان بالتأكيد أبعاد كنائس الجزيرة. جلس رجل عجوز ذو وجه لطيف داخل الأنقاض، وبدا على الأرجح ينتظر أذان الظهر لأداء الصلاة في المكان الذي لم يكن قد تحرّك منه منذ صلاة الفجر. سلّمنا على بعضنا في طريقي إلى الخارج. كنت خائفاً من أن تنشأ عن محادثة بيننا من ثلاث جمل فقط عروة؛ وعندها سأضطر للإصغاء إلى قصة حياته.

كانت هناك "نحو ألف" مخطوطة في مكتبة حافظ أحمد آغا - افتُتحت عام 1793 - وفقاً لأفضل تقديرات المكتبة. رأيت مجموعة آغا وابنه وهما محلّيان من رودوس تبوّآ منصبين بارزين في عهد سليم الثالث - معروضة في شروط بدائية، ومتروكة لتتلف بمرور الوقت. تذكرت أن مخطوطتَي قرآن (كريم) سُرقتا من هناك قد عُرضتا في مزاد في لندن. وبدت المكتبة، بساحتها ومبانيها الملحقة البسيطة، مثل قصر باشا منفي. جلستْ على وسادة في الظل امرأةٌ جميلة الوجه عمرها ربما مئة عام، وكنت سأراهن أن أسرتها تولّت العناية بتلك الأبنية طوال أجيال. في تلك اللحظة، ملأ عزف ناي منفرد الساحة تدريجياً، وأضحى رتيباً بعد عشر دقائق، وإلا كنت سأبقى لمدة أطول. عندما تابعت السير في الشوارع الشبيهة بالمتاهة، تطفّلت قضية نسختي القرآن المسروقتين على ذهني، وشعرت بالرغبة في حكّ مؤخر عنقي.

شعرت ببعض الراحة حين تلقيت اتصالاً هاتفياً من ثيو؛ مالك المطعم. وكنت قد طلبت منه أثناء العشاء في الليلة السابقة أن يجد لي مرشداً خبيراً يتحدث الإنكليزية. وكنت قد خططت لجعله يقتفي أثر أسكاريس في حين أبقى في الخلفية. التقيت ميكيس إلى مائدة الغداء عند ثيو، وكان مدرس إنكليزية متقاعداً في العقد الخامس من العمر ويتكلم مثل رشاش حين يجيب عن سؤال. وبدا مسترخياً وفاتناً. عندما أخبرته أنني أقرأ أوديسوس إلايتس، سأل: "هل أنت تركي حقاً؟".

حفاظاً على صورة رجل الأعمال المنهك الذي يضطر إلى انتزاع جولاته السياحية من جدول أعماله ، رافقت ميكيس إلى أسوار الفرسان ، ولم تعجبني تلك الأكوام الحجرية العائدة إلى القرن الرابع عشر ، وبدا أن شيئاً ما فيها يفسد تناغم الجزيرة. كانت متاحف الآثار والفن البيزنطي - هكذا تدعى - التي دخلنا إليها وخرجنا منها في الحقيقة مجرد قاعات عرض. وجعلتني النوعية البدائية للأيقونات واللوحات الجدارية التي جُلبت من كنائس بيزنطية على جزر إيجة أشعر بالانزعاج. كان الساحل الشمالي للجزيرة - حيث ذهبنا في سيارة ميكيس الصغيرة - مملوءاً فنادق بشعة لسياح من الطبقة الوسطى.

آنذاك أصبحت ودوداً جداً مع ميكيس. تلك الليلة ، عندما أمست القارورة الثانية من الشراب جاهزة لتُفتح في مطعم ثيو شعرت بالإلهام ، فعرضت عليه صورة أسكاريس على هاتفي الخلوي.

قلت: "الشهر الماضي حين كنت أصطحب صديقاً في كبادوكيا التقيت هذا الرجل هناك ، وأخبرني أنه جاء من رودوس. لا أتذكر اسمه الآن ، لكن أعجبتني معرفته ومواقفه الرزينة ، فهل تعرفه ؟".

إذا كان افتراضي صحيحاً ، وهو أن أسكاريس مواطن من رودوس ، فينبغي أن يعرفه ميكيس ؛ فهما بالعمر نفسه تقريباً ، والجزيرة مكان صغير يقطنه 50,000 نسمة. في الواقع ، عندما طلبت من ثيو أن يجد لي مرشداً خبيراً كان هدفي الحقيقي زيادة فرصي في هذا المجال ، وقد أخذ ميكيس هاتفي خمس ثوانٍ ثم أعاده لي.

"انقضت على الأرجح عشرون سنة منذ أن رأيته آخر مرة ، لكن هذا يانيس رافن. كان يتقدّمني أربعة أعوام في المدرسة الابتدائية ، وأمه يونانية وأبوه تركي ، ويدعوه والده السكّير والأتراك الآخرون "مالك". غادر الجزيرة في أثناء المدرسة الثانوية ولم يعد إلا مرة واحدة فقط ؛ لحضور جنازة أمه. تقول الإشاعة إنه أستاذ ، أو جاسوس ، أو شيء مشابه ، وقد عمل أبوه صياداً وتوفي شاباً في حادثة في البحر...".

"حسناً ، لقد زادت هذه المعلومة فضولي. إذا استطعت ترتيب لقاء بيني وبين شخص من أسرة يانيس غداً ، فستحصل على أفضل إكرامية في حياتك".

كوّن عصير الليمون الهندي ، والبطيخ ، والجبن الأبيض ، ورغيفا خبز غُمسا في الفلفل الأحمر وزيت الزيتون فطوري تحت شجرة الخرنوب في الصباح التالي. ظهر ميكيس بتكشيرة على وجهه حين بدأت أسأم من خفق الريح المزعجة ، وبدا - وفقاً له - أن رجلاً يدعى راجي جمال - يعيش في قرية كوسكينو البعيدة خمس عشرة دقيقة - قريب أب يانيس. كان لدينا موعد لرؤية مدرّس الجامعة المتقاعد عند الساعة الخامسة ؛ بعد أن نعود من ليندوس.

كانت ليندوس مقاطعة على الساحل الشرقي طُمس جمالها الطبيعي ، ونُهبت ثرواتها التاريخية ، وقد ابتُليت كذلك بحافلات جولات سياحية لا تُحصى ، إضافة إلى حر صحراوي قائظ. غادرنا على عجل ، من دون البقاء لتناول الغداء ، ووصلنا كوسكينو بعد التوقف للاستراحة في كل قرى المعسكرات الصيفية على طول الطريق. تجثم منازل كوسكينو - التي بدا واضحاً أنها في قيلولة سرمدية - على تلة خضراء مثل لوز طازج ، وتتمدّد هناك وكأنها قد تلقّت أوامر بذلك. ولم أرَ حتى هراً في الشوارع التي بالكاد تتسع لشخصين. وصلنا إلى منزل له حديقة في نهاية طريق مسدود ، وبدا البيت الممتد في وسط بستان من أشجار الزيتون اليافعة مثل عربة متنقّلة. كان راجي جمال على الأرجح في العقد السابع من عمره ، وشعره الأبيض الطويل لا يلائم جسده الممتلئ ، وبدا أنه قد ارتدى الثياب الباهتة نفسها في الأعوام العشرة الأخيرة. فاحت من المنزل رائحة صابون ، وبدا بسيطاً ومرتّباً. دعانا الرجل إلى مكتبه ، حيث دُهشت لدى رؤيتي المكتبة الضخمة المليئة بالكتب الدراسية والكلاسيكية ، وعرفت أن راجي بيك يعيش مع شقيقته ؛ وهي امرأة عجوز محدّبة الظهر - ربما بسبب زواج ضمن الأسرة - أتعبتني بأسئلتها التي لا تنتهي وعرضها تقديم الطعام باستمرار.

كان راجي جمال قد حصل على دكتوراه في علم الاجتماع من جامعة مينيسوتا ، ودرّس في جامعات ريفية إلى أن تقاعد ، وباح لي بأنه لم يتزوج أبداً ؛ لأن أمه المتوفاة قد عهدت بشقيقته إليه ، وتمنيت ألا يحجم عن الإدلاء بمعلومات عن قريبه يانيس. كان قد بدأ بكتابة رواية قبل خمسة أعوام ويخطط لإنهائها في خمسة أخرى ، وعنوانها لم أبتكر شخصية

يمكنها كتابة رواية لأنها فازت باليانصيب، أنا أكتب هذه الرواية لأنني الفائز باليانصيب، وأخبرته أن هذا العنوان وحده قصيدة. قدّمت شقيقته، رنا خانم، لي منديلاً أبيض قد طرّزته بنفسها بشريط مزركش، وخرجت لزيارة جارتها، ولم تُغفل أن تعدني بالاتصال ب.ي حين تزور إسطنبول. شغلت نفسي في محادثة بالتركية مع مضيفنا، في حين سحب ميكيس كتاباً عن أقوال مأثورة بالإنكليزية. وكلما ارتفعت قهقهته في أثناء القراءة، ازداد راجي بيك عبوساً. تمكّنت أخيراً من فتح موضوع أسكاريس الذي التقيته في كبادوكيا، وأعجبتني شخصيته، وظننت أنه يعيش في رودوس... إلخ. وقلت له إنني أسافر إلى لندن كثيراً، ولهذا إن استطعت الحصول على عنوانه، إن كان لديه تحسّباً فقط - فلا أحد يعرف ما سيحصل بأي حال - فسأكون شاكراً.

عندما قال راجي إنه لم يكن قد رأى قريبه منذ جاء لحضور جنازة أمه، أريته الصورة على هاتفي. تمتم الرجل لنفسه وشدَّ ناصيته، لكن عدم قوله ما يعرفه كان منافياً لقواعد الضيافة التركية.

شرع بالقول: "كان عمي عارف زير نساء مختالاً. وقد جعل العانس اليونانية تينا حاملاً فاضطر للزواج منها. كانت تينا قبيحة جداً، وسرت دعابات عنها مثل لا بد أنها قد خرجت من قصر بيزنطي. بعد عامين من إنجاب مالك، انفصلت عن عارف، وبقي الابن مع أمه. تعتبر العلاقات التركية-اليونانية أكثر تحضراً على رودوس ممّا هي عليه في الجزر الأخرى. لكن اليونانيين لا يزالون يرونه تركياً، والأتراك يرونه يونانياً، وأنا أقرب أقربائه إليه من ناحية أبيه. أراد أن يهرب من الجزيرة في أول فرصة تسنح له، وكان مجدّاً وطموحاً وانطوائياً، ويقرأ كتب التاريخ طوال الوقت، وعاش مع أمه وخالته العمياء، وتدبّروا أمرهم بمال يرسله خاله الذي لم يره أحد أبداً. انتقل للعيش مع خاله حين انتسب إلى المدرسة الثانوية، ولم يعد لحضور جنازة خالته العمياء، لكنه عاد إلى الجزيرة ليحضر جنازة أمه، قبل عشرين عاماً تقريباً. كنت هناك، وبدا مغروراً ومتحفّظاً وبارداً معي، ولم أكن أريد شيئاً منه باستثناء تقديم تعازيَّ له. وقد أقحم كلمات إنكليزية في جمله أحياناً، وجعلني لفظه أظن أنه يعيش في إنكلترا. سمعت أنه قدّم إجابات شتّى إلى أشخاص جازفوا بسؤاله عمّا

يفعله في تلك الأيام. وبدا أنه قد تحوّل إلى شخص فظ ومخادع ، فمحوته من كتبي...".

"راجي ، أخبرني يانيس مرة بلقبه ، لكنني لا أتذكّره بدقة. هل هو أسكاريس ؟".

"اقتربت كثيراً ، إنه لسكاريس".

هذا هو الاسم - لسوء الحظ - الذي كنت قد قصدت رودوس لسماعه. كان جون الرابع لسكاريس آخر إمبراطور في سلالة الأباطرة البيزنطيين الذين تم نفيهم إلى نيقية ، واعتلى العرش بعمر السابعة حين توفي والده ، ثيودور الثاني لسكاريس ، بداء الربو. نصّب مايكل ، مؤسس سلالة بالايولوجي ، نفسه بالقوة على أنه وصي على الإمبراطور اليافع ، ثم نفاه إلى قلعة في جبزي ، حيث دبّر حرمان الفتى البالغ من العمر أحد عشر عاماً من بصره. كنت أعرف قصة الإمبراطور الصغير سطراً بسطر ، وقد كانت قسوة مايكل - مقارنة بالتسامح الذي أظهره جد جون له - مصدر إحراج لي دائماً.

لم يصفح الشعب البيزنطي أيضاً عمّا فعله مايكل بالإمبراطور الشاب. ووفقاً لمصادر روسية ، قبل جون لسكاريس مصيره ، وعاش مثل قدّيس ومات في المنفى. في الشفق الإمبراطوري ، الذي أعتبره الكتاب الأكثر شمولية عن بالايولوجي ، وُصفت طريقة إصابة الإمبراطور الطفل بالعمى بأنها الأكثر "إنسانية": جُعل بؤبؤا جون الرابع يركّزان على الشمس حتى حلَّ الظلام. على كل حال ، زعم المؤرخ المعاصر المنشق مايكل جياناكوبلوس أن لسكاريس بدأ في سنوات رشده يرى مجدداً وفرَّ إلى صقلية.

ذكّرني هذا بحال السلطان جيم. جعل ملوك أوروبا الخائفون من العثمانيين جيم "ضيف دار" بشكل إلزامي ، في تدبير وقائي ضد شقيقه الأكبر سناً ؛ السلطان بايزيد. بنحو مشابه ، ربما يكون ملك صقلية قد أبقى جون الرابع تحت سلطته وقتاً طويلاً في مناورة ضد الإمبراطور البيزنطي الذي اشتبك معه في مناوشات متكررة. وسّعت فرضيتي: لم يتمكن جون الرابع لسكاريس من استعادة عرشه أبداً ربما ، لكنه استطاع الزواج وإنجاب ذرية ، ومن ثم حافظ على ديمومة السلالة. آنذاك ، كانت الأمنية الوحيدة - على الأرجح - لآخر أفراد الأسرة ، الذي لُقِّب أيضاً تيمناً بجون ، هي القضاء علي واستعادة العرش المسروق من أجداده الموغلين في القدم. كانت نومو - التي لاحظت أخيراً هذا المشروع - تحذّرني من

دون أن تتدخّل ، وعرفت أن لا حول لهم أيضاً في مواجهة مبدأ "العدالة الإلهية" الذي يعتبر حجر زاوية الإمبراطورية البيزنطية ونهايتها المحتّمة. يستطيع جون لسكاريس مساعدة الإمبراطورية بالقضاء علي ، لذا ينبغي ألا يُمنع ، وبدا هذا النوع من المصير ثقباً أسود تركه جستنيان مرغماً لبيزنطة. ولأن نومو ستبقى حيادية ، لن يعلم جون لسكاريس أنني قد كشفت أمره ، وهذه أفضلية أحتاج إليها من أجل تحييده. كان ينبغي الإعداد لأسوأ سيناريو ، والأهم من كل شيء آخر ، تساءلت عن اللائحة الطويلة من الشرور التي فرضها هذا المنتقم القاسي ، البيزنطي أكثر مني ، على أسرتي.

كان أولئك السكان غير الملزمين بالبقاء في البلدة في حزيران قد غادروا سابقاً إلى أماكن أكثر دفئاً في نصف الكرة الشمالي، وتميّزت الملابس الصيفية لأولئك الذين بقوا هناك بلمسة مصمم سري، وتساءلت عن ثياب السباحة. كانت دعابة تقريباً ألا أسمع ضحكاً أو أصواتاً عالية في شوارع أكثر المدن تحرراً في العالم. وكان عدم وجود عيوب بنيوية رئيسة في التيار اليومي للحياة غريباً أيضاً. عندما عدت إلى ستوكهولم استنتجت مرة أخرى أنه إذا كانت المدينة فردوساً، فسيعتبر المواطنون الأتراك الذين يستمتعون بازدحام حركة إسطنبول المكانَ مملاً.

بقيت في ستوكهولم ثلاثة أيام هذه المرة، وبدا جدول أعمال ميسترال النهاري حافلاً، وقد غادر نديم إلى كولو مع أسرته. اصطحبني جار ميسترال، لينارت إسبمارك؛ أمين مكتبة متقاعد، إلى المناطق غير السياحية في البلدة؛ وكأنه يدفع ديناً قديماً مجدداً. وشعرت بتعب شديد منعني من إبلاغه أنني أملك كتب الشاعرين السويديين لينارت سجورغن وكجيل إسبمارك. كان يشترك في منزل مع آخرين في مرماريس، حيث يذهب مع زوجته في شهر آب، ولا يستطيع أن يقرّر إن كانت الضيافة التركية نعمة أم نقمة نزلت على الأتراك. كان يصدّق أن سفوح المدينة - حيث لم أتمكن من تحديد تنافر في اللون أو الصوت - تتمتع بسحر خاص، وأراد مني تلخيص انطباعاتي عن المكان بجملة واحدة قبل أن نغادر إلى مكان آخر.

سُرّت ميسترال بالطريقة التي استمتعتُ بها بالبلدة ومع أصدقائها، لكنها لاحظت لحظات شرودي حين كنت أحاول تصوّر ما ستؤول إليه مبارزتي مع جون لسكاريس. قالت: "مرحباً أيها المغامر، هل تلعب الشطرنج مع نفسك؟". ظننت أنني سأقع في فخ من صنع يدي إن سألت عن سبب وصفها لي بالمغامر، وأدركت أنها ينبغي أن تقتنع بعذري؛ وهو أن الموعد النهائي لتقارير أبحاثي يضغط علي، وأردت جعل نفسي تصدّق أنني شخص في رواية تخلّى عن عرشه ليتزوج حبيبته.

لم يكن لينارت وزوجته في المنزل حين قرعت بابهما لتوديعهما، وكان كيس إيكيا

الذي علّقته على مقبض الباب يحتوي على قارورة شراب ومغلّف دوّنت فيه انطباعي بجملة واحدة: "عندما تعود سفينة نوح يا ستوكهولم ، لن تعرفي إن كنتِ ميناءً أم راكباً!".

á á á

لم أكن أكذب حين أخبرت إسكندر أنني أريد إخافة شخص ما ولهذا أرغب باستعارة مسدسه الآلي من عيار 7.65. كنت سأهدّد جون لسكاريس وأجعله يأخذني إلى مديره. وإذا رفض ، فسأصادر هاتفه الخلوي وأنتظر اتصال ذلك المدير به. فنظراً إلى أنني لم أكن قد ارتقيت إلى مرتبة "المختار" بعد ، كانت قناة اتصالي الوحيدة بنومو عبر عدوي اللدود ؛ وهذا شيء يليق برواية بوليسية. في مساء 22 حزيران اتصلت بلسكاريس ، الذي ينتظرني في إسطنبول ، وطلبت منه أن يلاقيني في الحي أسفل قصر تكفور ، ووضعت في حقيبتي حبلاً ومقصاً وشريطاً قوياً. كانت ركبتاي ترتجفان رغم جرعتي الشراب المضاعفتين اللتين تجرّعتهما. وتوقف ارتعاشي حين صافحت يد لسكاريس ، لكن الصداع حلَّ مكانه بسرعة. أحسست بأعراض انزعاج لدى ذلك المخلوق الذي يستحق بعينيه الجاحظتين وأنفه المعقوف كنيته "الغراب". وبدا مثل موظف يحاول الاستقالة قبل أن يُطرد. جلست على كرسيّ بذراعين إلى رأس الطاولة ، وأخرجت مسدسي وقلت: "تعال واجلس بجانبي وأبدأ بالكلام. أخبرني كل شيء عن المكيدة اللعينة التي قد أعددتها يا صاحب الجلالة ؛ عزيزي جون لسكاريس".

تاركاً مقعداً شاغراً بيننا ، جلس وابتسامة وقحة ترتسم على وجهه ، وكدت أفتح فمي مجدداً حين شعرت بلمسة فولاذ باردة لمسدس على قفا عنقي. ضحك لسكاريس ، وقد كان على الأرجح ينتظر هذه اللحظة منذ خمسين عاماً ؛ ضحك حتى سالت دموعه على وجهه ، ثم هدأ أخيراً نوعاً ما وتوقف ليرتاح وهو لا يزال يلهث.

"ألن تستدير وتحيي جلادك المنتظر ، يا عزيزي حفيد حفيد الحفيد البائس لمايكل الخائن ناكر المعروف ؟".

قال صوت عميق خلفي: "قبل أن تستدير ، ضع ما بيدك على الطاولة". وتجمّد الدم في عروقي.

كان صوت إسكندر، واستدرت مندهشاً لأرى وجهه الحقيقي. لم يكن هناك أي أثر للخجل على وجه الشخص الذي دعوته "أخي الكبير" لمدة عشرين عاماً وعاملته على أنه المؤتمن على أسراري. وبدلاً من ذلك، شاهدته يعض شفته حتى لا يضحك.

قلت: "ليرسلك الله إلى الجحيم، يا من لا تملك ذرة شرف". وبصقت في وجهه، ثم استدرت إلى لسكاريس الذي قال:

"قبل أن تبدأ رحلتك الخاصة إلى الجحيم أيها الإمبراطور الزائف، ستسمع أكثر مما تود سماعه.

بعد أن فرَّ إلى صقلية، انتظر جد جد جدي جون الرابع؛ آخر أباطرة سلالة لاسكاريس، من دون طائل استعادة العرش البيزنطي. لم تتوافر الشروط الضرورية بأي حال، وتوفي في أثناء وجوده في المنفى بعد أن تزوج امرأة نبيلة من صقلية وأنجب ولداً.

دوّن المؤرخون البيزنطيون الرسميون الذين لفّقوا قصة وفاة قسطنطين الحادي عشر على الأسوار - بناءً على الأوامر - أن جون الرابع قد مات في المنفى في جبزي؛ وبهذه الطريقة أُلغيت تماماً إمكانية اعتلاء أحد أفراد لاسكاريس العرش مجدداً.

عملت وجدي المعاصر وخالي جون جميعاً مع نومو للتمويه، وكنا نبحث عن دليل ملموس لحقوقنا. درست التاريخ في كامبريدج بموافقة خالي الذي كان يحترم نومو، وبدأت بعد الجامعة بالعمل معه. توفي الخال جون بسكتة قلبية حين كاد يتقاعد.

أعمل مع نومو منذ أربعين عاماً، وطوال ستة أعوام كانت مهمتي نقل الرسائل بين جدك والمنظمة. امتلكت بيزنطة أروع الوثائق التاريخية في عهدها، وفي أثناء البحث عن الدليل الذي أحتاج إليه، عملت أيضاً لأمنع بالايولوجي كفؤ من الوصول إلى السلطة، ولم يكن هذا الجزء من مهمتي مشكلة كبيرة؛ فقد كان جدك رجلاً صادقاً، ولكن لا فائدة منه. فهو حالم، وطفيلي، ويحبّ المتعة، ولم ينجُ من كل حالات "الإفلاس" التجارية التي غرق فيها إلا بفضل جهود نومو فقط. في العقد السادس من عمره، أُقنع بالتخلي عن أعماله والانتقال إلى غلطة، واشتُريت له عدّة عقارات حتى يعيش حياة مريحة في إسطنبول.

لا شك لدي أن طبيعة موت جدك قد أُخفيت عنك، وقد جرى ذلك في منتصف ليلة

شتوية. كان يغادر مشربه المعتاد حين صدمته سيارة جيب مسروقة هاربة من مطاردة الشرطة. بعد الحادثة حصلت بعض التطوّرات المدهشة في نومو، وعرض أحد الأعضاء - الذي انخفض أمله بإيجاد واحد مناسب من أفراد أسرة بالايولوجي - إمكانية تولي الصهر هاكيت العرش. وبعد بعض التردد، استجاب الأعضاء الآخرون بإيجابية. بالمحصلة، كان هاكيت أمريكياً مثقّفاً، ومؤرخاً قد استوعب كلاً من الغرب والشرق، وعميلاً سرياً أيضاً، وانتابني الارتياح حين عُيّنت لتقديم تقرير عن حياته الخاصة.

أردت ترتيب الأمر لك لتصبح إمبراطوراً مكان أبيك، فذلك سيمنحني وقتاً طويلاً يمكنني أن أجد فيه الدليل الذي أبحث عنه. كتبت تقريراً زائفاً بأن أمك تكاد تنفصل عن أبيك بعد علمها بأمر خليلته، ولم ينقض وقت طويل قبل أن تتحوّل الكذبة إلى حقيقة. في المستعمرة الأنغلو-أمريكية في إسطنبول، كانت هناك فتاة كندية جذابة قد انفصلت للتو عن خطيبها التركي، وعملت في وظائف شتّى، وتواجه مشكلات في دفع قرض مصرفي قد حصلت عليه، وترغب بالعودة إلى ديارها، فجعلت رجلي يعرض عليها مبلغاً يسدّد دينها ويغطي تكلفة تذكرة درجة أولى إلى كندا مقابل إغواء بول هاكيت. غضبت أمك حين رأت صورهما وهما يتناولان العشاء في ضوء الشموع، ويمشيان يداً بيد في متنزه أميرجان. وبعد أربعة شهور من وفاة جدك، تطلّق والداك.

لإظهار أنه مُقدّر لك ارتداء الأرجواني، زوّدت تقريرك بالقليل من الأعداد السحرية المستترة التي يحبها البيزنطيون، واعتبر مديري المغفّل أنجلوس تاريخ ميلادك الذي تزامن مع اليوم التالي لسقوط القسطنطينية بشارة إلهية. كان التطوّر الذي لم أتوقعه هو وقوع أبيك في حبّ تلك المرأة الموظفة فعلاً، وذهبا معاً إلى كندا. وبموافقة نومو جعلت شخصاً يتبعهما. لم يكن أبوك سكّيراً، لكنه أحب الشراب دائماً، وكانت كأسان من الشراب تحرران عقدة لسانه. وكلما حظي بفرصة كان يلقي دعابة عن حياته الزوجية، ويقهقه لنفسه بعد أن يروي مثلاً كيف حُوّل اسما زوجته وحميه من اسمين بيزنطيين، وكيف جعلهما بعودته إلى بلاده يدفعان "تعويضاً" بالطريقة البيزنطية. استغرق الأمر ثلاثة أعوام من مهاجر تسالونكا الذي جعلته يلاحقه ليكتشف أنه سرق كتباً نادرة من منزل حميه. وقد عرّفني ذلك الرجل

مرة إلى بول على أنني تاجر كتب عتيقة مهتم بالكتب البيزنطية ، وبعد خمس دقائق من مصافحتي بول هاكيت قال: أظن أنني أعرفك من مكان ما ، ولاحقاً: آه ، أتذكر أين - إسطنبول. غادرت المشرب فوراً ، وفي المرة التالية التي التقى فيها رجلنا من تسالونكا ، أخبره: أنا واثق تماماً الآن أنني رأيت صديقك الغريب مرة مع حماي. كانت تلك هي الجملة التي حكمت على أبيك بالموت ، ولقي المصير نفسه مثل جدك ؛ صدمته سيارة جيب غامضة حين خرج من المشرب.

وفقاً للرجل من تسالونكا ، بيعت كل كتب جدك النادرة ، باستثناء واحد ، وقد اشتراها تاجر كتب من تورنتو لمصلحة معهد أبحاث التاريخ البيزنطي في مزادات مختلفة. لم أعرف متى باعت زوجة بول الكتاب الأخير ، لكنني وجدته في لندن في متجر صغير عام 2007 ، وهو مخطوطة كتبها مانويل الثاني ؛ والد قسطنطين الحادي عشر. ضم هذا العمل الذي سجّل فيه الإمبراطور البيزنطي الأكثر فلسفة تذكاراته وانطباعاته الشخصية ، الدليلَ المكتوبَ الذي كنت أبحث عنه ، ويذكر بالتفصيل أماكن إقامة جون الرابع لسكاريس في صقلية وتواريخ حصول ذلك. اشتريت الكتاب وأخفيته عن مكتبة المعهد لأحافظ على المعلومات بعيداً عن أيدي مؤرخين متطفّلين. بالنسبة إلي ، إنّ أفضل وقت لإظهار حقيقة الوضع هي حين يصبح العرش البيزنطي شاغراً ، وستكون شهادة مانويل الثاني المكتوبة كافية لتوكيد زعمي ، ويمكن التوثق من أنني شخصياً أحمل مورثات جون الرابع من شجرة الأسرة التي احتفظت بها جدتي ، إضافة إلى سجلات كنسية ذات صلة بالموضوع.

كانت فكرة نومو أن يكون إسكندر معلّمك وحارسك ، وهو أيضاً من اخترته. كانت جدته اليونانية جارة أمي ، وأبوه تركياً من رودوس انتقل إلى موغلا مع إسكندر بعد وفاة زوجته. الرجل مخلص لي ، لكنه يعرف أيضاً أنني الخليفة الشرعي للعرش البيزنطي.

كما قلت ، حصلت على مخطوطة مانويل الثاني عام 2007 ، واقترحت في تقريري إلى أنجلوس أن يُعرض العرش عليك عام 2008 ؛ تزامناً مع الذكرى 555 للفتح ، وكنتَ مستعداً لخوض الاختبار. قرّرت اتخاذ تدابير وقائية ضدك في طرابزون ، فقد أدهشتني بالمربع الأرجواني الذي قلت إنك وجدته في غرفة فندقك. فإذا كانت نومو قد وضعته هناك حقاً

لتختبرك ، كنت سأضعك في موقف صعب بعدم نقل رد فعلك إليها. وإذا لم يكن هذا من ناحية أخرى من صنيعهم ، وإنما فعلك أنت ، فسأتفادى الوقوع في مكيدتك بالتزام الصمت. عندما رأيت نظرة الشك تلك في عينيك ، ماذا تظن أنني فعلت لأجدّد ثقتك بي؟ كان إسكندر من أطلق النار عليك في كبادوكيا ، وأنا من أنقذ حياتك بدفعك إلى الأرض! لكن ، لم يكن هناك تغيير كبير في موقفك ، لذا طلبت من إسكندر أن يلحق بك عن كثب. وعندما سمعت أنك ذاهب إلى رودوس ، عرفت أنك تكاد تكشف أمري ، ثم عندما طلبت من إسكندر مسدسه ، بدا من المحتم طبعاً أن نصل إلى هذه النقطة.

لو لم تذهب إلى رودوس من تلقاء نفسك ، لكنت قد دعوتك إلى هناك قبل رحلة آيا صوفيا ، وسيُعرض المشهد على الأرجح كما هو الآن. إذا استطعتُ استدعاء روح جون الرابع - الله يعلم - فسيكون سعيداً جداً بجعلك تُقتل برصاصتين في العينين. لكن ، ينبغي أن ألتزم بسيناريو مختلف ، لذا استأجرت مركباً صغيراً باسمك ، وستُنقل إليه وأنت غير واعٍ حيث ستنتظرك غانية سلافية غير واعية أيضاً. يشير التقرير الذي قدّمته إلى أنجلوس إلى أنك مهووس بالعلاقات ، ومغرم تماماً بإقامتها مع غانيات على متن مراكب مستأجرة على البوسفور ليلاً. وسيُسكب الشراب في حلقيكما ، وستصل مع غانيتك إلى قعر البوسفور حين يصطدم مركبك بالصخور في إحدى أسوأ نقاط الحوادث في المضيق ، وستنقل الصحف تقرير الحادثة القائل إنك فقدت السيطرة على القارب نتيجة ثمالتك الشديدة.

بعد شهر ، ستُمنح مخطوطة مانويل الثاني إلى مكتبة المعهد ، وفي الوقت الملائم ستدعوني نومو لاعتلاء العرش البيزنطي. سأُدهش طبعاً من هذا التحول غير المتوقّع ، وسأبذل قصارى جهدي لأستحق ثقتهم...".

كان أداءً تراجيدياً تقريباً ؛ الطريقة التي أدلى بها خطبته المسهبة. وعندما كنت أصغي إليه ، على كل حال ، تلاشى خوفي تدريجياً ، وظننت أن بمقدوري النهوض والمغادرة ببساطة ؛ مثل الخروج من مسرحية فردية سيئة. صاح لسكاريس بأمر إلى إسكندر باليونانية ، وعندما اقترب هذا الأخير وهو يحمل خرقة في يده ، لم أستطع منع نفسي.

صرخت: "ألم تشاهد قط فيلماً بوليسياً أيها المعتوه؟ ألا تعرف أن هذا المختل عقلياً

سيتخلص منك في أول فرصة تسنح له بعد أن تقتلني ؟".

مال رجل لسكاريس فوقي ، وتكلم في أذني قائلاً: "هناك أشياء في هذا الكون لا تعرف شيئاً عنها يا ابن الأمريكي الشائن". أدهشني اللطف في صوته ، وظننت أن قلبي سيتوقف حين حمل فجأة المسدس عن الطاولة وأفرغه في لسكاريس الذي كان جالساً على بعد خمس خطوات. تنهّدت من الصوت الإيقاعي الصادر عن رصاصات تنبثق من مسدس مزوّد بكاتم للصوت ، وعانقني إسكندر ثم قبّل رأسي.

"أقسمت على أن أحميك يا خلاص ؛ حتى على حساب حياتي. أنت صديقي وأخي ، وينبغي على كل من يحاول إيذاء حتى شعرة من رأسك أن يتعامل معي".

عند ذلك المنعطف ، دخل ثلاثة رجال الغرفة الكبيرة ، وبدا كاليغاس ممسكاً كيس جثث في يده ، في حين يحمل باباس قارورة ماء. كان يتقدمهم رجل طويل أبيض الشعر في العقد السادس من عمره. قال بالتركية: "يا صاحب الجلالة ، اسمي باسيل أنجلوس ، ولأعبّر عن نفسي تماماً سأتابع بالإنكليزية إن سمحت". كانت لهجته أمريكية ، ويتصرّف مثل دبلوماسي. وعندما جلسنا على مقاعدنا حول الطاولة ، سلمّني باباس الماء بسرعة ، في حين ساعد إسكندر. وهو يتمتم على وضع الجثة في الكيس.

"كما قال الخائن لسكاريس ، كنت مديره وعلى اتصال مباشر بنومو. انهارت خدعته حين امتنع عن نقل رسالتك إلي من طرابزون ، فتوثقنا من خلفيته ، ثم اتصلنا بألكسندر - آسف ، إسكندر - موظفه ، وطلبنا منه إبلاغنا بأي شيء قبل تنفيذ أوامر لسكاريس. كان لسكاريس قد فشل في إعادة دفعة مقدّمة حصل عليها لشراء كتاب نادر قبل وقت طويل ، وعندما كان معك دخلنا منزله في لندن وعثرنا على كتاب جلالته مانويل الثاني. وجد علماؤنا أن زعم لسكاريس لا يستحق النقاش ، لكن لأننا نعرف أنه لن يغادر هذا البلد حياً أبداً ، أرسلنا هذا الكتاب إلى مكتبة المعهد ، ودُفع بذلك دين الرجل.

انتظرنا أن تقابل لسكاريس وجهاً لوجه ، وما جعلته يفضي به كان أكثر مما نعرفه سلفاً. بعد إذنك ، سننقل الجثة يا صاحب الجلالة. وكما تعرف ، ستنتهي مدة اختبارك بعد أسبوعين ، وستكون مرافقتك إلى آيا صوفيا شرفاً لي. أنا واثق بأنك ستنهي المرحلة النهائية

وترتقي إلى مرتبة أرستقراطية ، ثم بعد مراسم تقليد الرتبة ، ستكون المهمة التالية على القائمة تنفيذ البند الأخير في وصية الإمبراطور. والآن ، أودُّ تزويدك برقم هاتفي الخاص...".

عندما عدنا إلى المستوى الأرضي ، ارتعشت ، وشعرت كما لو أنني أفيق من كابوس. داعب نسيم صيفي وجهي وتعثّرت ، وقبلت أول سيارة أجرة رأيتها لتكون مخلّصي الشخصي ، ثم اشتريت قارورة مهدّئ من أول صيدلية. عندما أويت إلى السرير شاكراً ، أزعجتني حقيقة صغيرة واحدة مفادها: إذا احتفظ لسكاريس بخبر عثوري على المربع الأرجواني في غرفة فندقي لنفسه ، فكيف عرف أنجلوس بشأنها ؟ أهو باباس ؟ هل زُرعت شريحة داخلي ؟ ربما لم يكونا حارسين عاديين أيضاً.

أخيراً ، عرفت ذلك جيداً ، وبدلاً من جمع قطع فسيفساء الماضي ، كان ينبغي أن أجهّز نفسي لخدع المستقبل. إذا كنت آنذاك بيزنطياً حقيقياً مثل مانويل الثاني وأبنائه الأمراء ، فسأكون بأمان تحت جناحَي نومو ، أليس كذلك ؟

"... في صور بانورامية قديمة لإسطنبول تظهر كنيسة الكنائس بسيطة مثل دمية خشبية ، وتجعلها وضعية الجثو التي تتخذها تبدو وكأنها تحتضن غرضاً ثميناً في حجرها وتحميه من الخطر. يبدو الجص بلون الآجر الذي يغطّيها من الخارج وكأنّه سيتقشر عند أول هطول للمطر ، لكن عمره 1500 عام ، واستغرق جمع مواد تشييدها سبعة أعوام ونصف العام ، والبناء نفسه خمسة أعوام. آيا صوفيا شكسبير الكنائس ، وترتفع قبتها 180 قدماً عن سطح الأرض ، بقطر 100 قدم ، وقد نجت من كل أنواع الكوارث الطبيعية والبشرية ؛ بما فيها الزلازل. آيا صوفيا قريبة من السماء بأقواسها المتناظرة وقببها الواسعة ، وقريبة من البشر بأعمدتها المزخرفة وتفاصيلها الملونة ، ولم أرَ قط أي كنيسة أخرى يمكن أن ترتقي إلى هذا المستوى من الروعة المعمارية وجمال التصميم الداخلي.

... عام 1934 أصبح المكان المقدّس متحفاً ؛ وكأنه يعرف ما يتوقعه من المستقبل. تتميز كل من لوحاتها الفسيفسائية بمزيج مترف وفريد من الدين والفن ، وفيها رأيت كل شيء ؛ قصر حكايات خيالية ، ونفق وقت ، ومنارة ، ومربى مائي ، وخاناً ، وينابيع مياه حارة افتراضية ، وأعرافاً واستوديو فن.

... لم يُغفل المجرمون الثملون في الحملة الصليبية الرابعة آيا صوفيا حين نهبوا القسطنطينية بإذنٍ من دوق البندقية. وقد اقترف المؤرخون جريمة عندما لم يدوّنوا شيئاً عن عربدة الصليبيين مع الغانيات في الكنيسة ، ولفّقوا قصصاً عن ارتفاع ألسنة اللهب من قبتها حين استسلمت المدينة للعثمانيين.

... إذا جاء زائرون من كوكب آخر إلى الأرض في ألفية مستقبلية ، فستكون آيا صوفيا هي التي تقدّم لهم الرسالة العامة للإنسانية...".

تخص هذه السطور أبـي ، وعندما رأيتها أول مرة ، مع "X" فوق كل فقرة ، قرأت فوراً أهازيج المديح هذه ووجدتها مبالغاً فيها قليلاً. لكنني قرأتها مجدداً قبل رحلة آيا صوفيا ، وعقدت العزم على أن تكون خطوتي الأولى في بحثي اكتشاف البند الأخير في الوصية.

في إحدى ملاحظاته الأخرى ، اشتكى أبـي بشأن الثغرات والأخطاء الغامضة في تاريخ

بيزنطة، وأشار مثلاً - دلالة عن نقص في المعلومات - إلى أن عالم الرياضيات أنتيموس وعالم الهندسة إيسدور معروفان بأنهما معماريا آيا صوفيا، لكن في الواقع جعلهما الإمبراطور جستنيان مسؤولين عن كل تفصيل في عملية التشييد. هناك أيضاً الخطآن اللذان كنت أعرفهما شخصياً: الأول، لم يُتوفَّ الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر على الأسوار وإنما خُطف. والثاني، توفي الإمبراطور الأخير من سلالة لسكاريس؛ جون الرابع، في صقلية وليس جبزي. لقي المؤرخون أو رجال الدين القليلون الشجعان كفاية لتدوين هاتين الحقيقتين السخريةَ إن لم يكن الاضطهاد.

á á á

لم تكن الصفوف الطويلة عند مكتب تذاكر آيا صوفيا مشجّعة، ومع أكثر من مليوني زائر في العام، أضحت الكنيسة المتقاعدة منذ وقت طويل المتحف المفضّل في البلاد الآن. كانت الأبواب قد فُتحت قبل عشر دقائق فقط، والخط الطويل من السياح الكبار في السن العراة الواقفين في قيظ الصيف يؤذي عينيّ. لكن، عندما كنت لا أزال أقنع نفسي أنني إمبراطور في مرحلة التمويه، تلاشى الصف ودخلت المكان. كانت الساحة في حال فوضى عارمة، وعندما حاول المرشدون المنهكون يائسين تنظيم المجموعات السياحية من البحر المتوسط، نظر أفراد المجموعات اليابانية المنظمة بدقة إليهم مذهولين. رأيت باباس وكاليغاس يحومان بعصبية حول البوابة الرئيسة، وقد بدأت أتعب منهما. وقبل دخول الكنيسة ناديت باباس وقلت له: "ستتخلّص مني قريباً يا صاحبي". لم أتوقف عن قرص وجنتيه والقول: "لا أعرف السبب، لكنني شعرت دائماً بأنني مقرّب منك". اتصل أنجلوس بهاتفي الخلوي حين عبرت بوابة الإمبراطور ليخبرني أنه موجود في المقهى المجاور في حال احتجت إلى العون، فبدأت أتعرّق، ثم أدركت أنني لم أعد أهتم كثيراً حقاً بشأن وصية جد جد جدي. لم أكن أريد قبول هذا العمل الذي لا يمكنني الاستقالة منه، لكن لن يكون منصفاً أيضاً القول إن الفائدة الوحيدة التي جنيتها منه حتى ذلك الوقت هي لقاء ميسترال. فبالنسبة إلي، إن فهم الحضارة البيزنطية أمرٌ بالغ الأهمية.

عندما مشيت ببطء في الداخل نحو القبة، شعرت بالحرارة تزداد هناك. ومع كل خطوة

خطوتها، بدت الأعمدة الضخمة كما لو أنها تتطاول والقبة ترتفع إلى السماء. انتابني إحساس بفرح شديد بالحياة مع احترام كبير للموت، وضم السقف المطلي بالذهب نقوشاً وتصميمات ومنحوتات من حضارات شتّى؛ في تكافل يلفت النظر ويُثلج القلب. كنت في فسحة خلف الكنيسة أو المتحف أو القصر، وملأتني برودة من الداخل إلى الخارج، فثقل جفناي. هل كان المسيح المصوّر في الفسيفساء على الجدار يكاد يؤدي ترتيلة رثاء؟ إذا فعل، فسترد جوقة عظيمة بانسجام مثالي، وسيحني كل الأباطرة رؤوسهم. صحوت من شرودي على رفرفة حمامة فوق رأسي. نعم، كانت هناك حمائم تطير بحرية داخل الكنيسة. كنت قد وصلت إلى أومفاليون؛ الدائرة حيث يتلقى الأباطرة تيجانهم، وعندما مسّ طرف حذائي الحد، شعرت مرة أخرى بالأسى على العائق الرئيس لدى البيزنطيين: الافتقار إلى مبدأ راسخ لتعاقب الأباطرة. آنذاك، ظهر سائح بدين في العقد السابع من عمره، غافلاً كما يبدو عن روعة آيا صوفيا بجانبي، وبدا أنه من الريف الأمريكي، وتركه تعليقه "هل هنا حيث نصطف لنصبح أباطرة؟" ويقهقه بمرح على دعابته؛ ما أزعجني. لم يكن هناك طائل من الرد عليه بسطر كتبه مواطنه عزرا باوند: "الأحلام هي الحقيقة الوحيدة".

صعدنا إلى الرواق العلوي على منحدر مقوّس مصنوع من حجارة رصف ملساء وزلقة. قالت امرأة فرنسية أنيقة في مجموعتي: "يذكّرني هذا لسبب ما بشبح الأوبرا".

اقتربت من تحفة قطع الفسيفساء: ديسيس. لم يكن النصف السفلي من اللوحة الضخمة موجوداً، والمسيح (عليه السلام)، زاهياً وملوناً، يقف بين أمه مريم (عليها السلام) وحنّا المعمدان. ورغم اللافتة المجنّحة الكبيرة تحتها، وتحذيرات حارسات الأمن المتكرّرة - "لا تستخدموا الوميض" - كان أفراد المجموعات السياحية يضغطون أزرار آلات تصويرهم من دون توقف أو رأفة بالفسيفساء الهشّة، وبدا واضحاً أن هذا الحشد سيتجاهل تلوث البيئة حتى يقفز على عتبة أبوابهم.

بدا المسيح كما لو أنه يشير إلى شيء قبالته، بكل من يده اليمنى المرفوعة وعينيه، وهناك أوقفتني بلاطة بارزة تحمل نقشاً في الأرضية بين عمودين، حيث يوجد ضريح دوق البندقية وجزّار القسطنطينية؛ إنريكو داندولو (1107-1205) (مفارقات التاريخ مخزية).

فبناءً على أوامر داندولو - عدو بيزنطة - قام جيش الصليبيين بنهب عاصمة العالم، ودُمّر مجمّع القصر الفريد ميسي الذي كان يُعدُّ ميلان ذلك الوقت، والبيوت الساحلية على القرن الذهبي التي قلّدتها البندقية. ذُبح الأثرياء والفقراء معاً، واغتُصبت فتيات صغيرات، وكانت تلك أبشع مذبحة يشهدها التاريخ على الإطلاق. أغمض العالم الغربي المرائي عينيه عن تلك المأساة، في حين عدّتها البندقية فتحاً نبيلاً للقسطنطينية!

لذا، سيكون طبيعياً لأي إمبراطور بيزنطي أن يضع البندقية على رأس قائمة انتقامه. كنت واثقاً بأنني سأجد "المرسوم" في مكان ما على شاهدة قبر داندولو العدو اللدود، وهي بلاطة رخامية عرضها ثلاث أقدام وطولها خمس أقدام تقريباً، نُقش عليها "هنريكوس داندولو". انحنيت فوقها وكدت أبصق عليها لكنني كبحت جماح نفسي في اللحظة الأخيرة. ركّزت على ثلاثة مستطيلات رخامية داكنة صغيرة حُشرت تحت البلاطة، وبدا أن هناك شيئاً مخربشاً عليها بقلم حبر من نوعٍ ما، ولمست الأيسر بسبابتي وفركته - والأمل ينتابني - من اليمين إلى اليسار، وشعرت بشيء ما. ومنحتني المستطيلات الثلاثة كلها انطباعاً مشابهاً. في حالة إثارةٍ غادرت المتحف، وذهبت إلى المنزل، واغتسلت بماء منعش، وابتلعت مهدّئاً، وأويت إلى السرير، وعدت قبل ساعة من وقت الإغلاق، حاملاً حقيبة في داخلها عدسة مكبّرة ومعجم يوناني-إنكليزي بيزنطي.

كانت حركة السياح في الأعلى تهدأ، ولم يُعر أحدٌ اهتماماً لفحصي نقش داندولو بعدسة مكبّرة. وعندما دوّنت ثلاث كلمات مكتوبة بأبجدية يونانية وترجمتها، حصلت على التالي: "احرقوا قصر الدوق". انتابتني لأول مرة أزمة ضحك، وفاضت الدموع من عينيَّ، فالتقطت فتاة يابانية لم ترغب أن تفوّت فرصتها ثلاث صور "لرجل يضحك حاملاً عدسة مكبّرة أمام شاهدة قبر"، ثم نزلت مسرعة على السلالم. تركت الكنيسة من دون استدعاء الفريق لتوضيح الأمر لهم، وربما سيخمنون بأي حال من تعبير وجهي، فبعد قضية أسكاريس ظننت أن بمقدوري النأي بنفسي عنهم قليلاً. غادرت الساحة، ونظرت إلى آيا صوفيا من الخارج، مذهولاً مجدداً، وفكّرت أن العثمانيين أرادوا منعها من الطيران بتثبيت حوافها بأربع مآذن! حقاً، لم يكن منافياً للطبيعة أن تنتصب آيا صوفيا على أنها كنيسة ومسجد في

الوقت ذاته ، وخطرت في ذهني صورة السلطان محمد الفاتح ؛ رأس الإمبراطورية العثمانية- البيزنطية ، وتلك في الواقع هي الرسالة الحقيقية ليكون النسر برأسين الختم الإمبراطوري: السيادة على كل من الشرق والغرب. كانت الإمبراطورية تعدُّ قوة عظمى توحّد - بإرادة طيبة - أوروبا وآسيا.

تذكّرت أنني سألتقي نومو بعد أسبوع ، وكنت بحاجة إلى خطة لحماية البندقية من انتقام المنظمة. هذه المرة ، لم يكن بمقدور أبي مساعدتي.

قبِلَت ميسترال وأبوها دعوتي للزيارة في نهاية آب ، ولم تتركني حبيبتي أبداً ، وقضى بابا كوستاس ثلاثة أيام في غلطة ، ثم ذهب إلى جزيرة برينكيبو لمدة أسبوع. أسبغ شكره - بالتركية - علي لعثوره على الكثير من أصدقائه القدامى الذين لا يزالون أحياء ، وشعرت بالغبطة من علاقة الأب-البنت غير المتحفّظة والمليئة بالدعابات. في اليوم نفسه الذي عاد فيه كوستاس إلى أثينا ، سافرت وميسترال جواً إلى ستوكهولم ، وقبل أن نفترق جميعاً ، قال لابنته: "إذا لم تتزوجي رجلاً تركياً ، فسأجد امرأة تركية عجوزاً وأستقر في برينكيبو".

كنت سأعقد اجتماع موت-أو-حياة مع نومو في لندن ، وأردت أن أتحدث إلى باسيل أنجلوس أولاً ، فذهبت قبل يومين لأرى الرجل الشهم ، وشعرت بأنني أحلُّ أحجية قبل الدخول إلى غرفة التعذيب. زرت نادي شطرنج غولدرز غرين ، واكتشفت أن الأعضاء الدائمين يهود كبار في السن قد هاجروا من إسطنبول ، ومعاً داوينا حنيننا إلى الوطن ، ولم يتحدّاني العم سالفادور من بلاط في مباراة فقط ، وإنما دمّر خطتي بتركه يفوز حين عرف استراتيجيتي أيضاً. انتقلت ذهاباً وإياباً بين محطات بعيدة تحت الأرض تحمل أسماء مبهمة ، وأمعنت النظر إلى الوجوه في مقصورتي ، إطاراً بعد آخر ، ورأيت في الفتى لاتينو قصة حب محرّمة ، وفي وجه فتاة أثيوبية قصيدة عن الأمل ، وأحببت أطفالاً من بعيد ، وشممت عبق أوقات الماضي في متاجر تتعامل بكتب ، وخرائط وعاديات نادرة ، وغفوت في حدائق حيوانات ومرابي مائية. (هل كانت الشرارة التي ستشعل ناري ضد نومو تنتظرني في كابوس ؟).

أقمت في ميريديان حيث كنت نزيلاً منتظماً ، والتقيت أنجلوس في المشرب المعتم. قبل مغادرة إسطنبول ، كنت قد خضعت للشكليات التقليدية ، وارتقيت رسمياً إلى مرتبة "المختار" ، وقد نقل أنجلوس اكتشافي البند الأخير في وصية قسطنطين في مغلّف مختوم إلى نومو التي قارنته بالوثيقة الأصلية. كان ثلاثة رجال آخرين - كما عرفت - قد ارتقوا إلى مستوى المختار الأرستقراطي في آخر 500 عام ، لكنهم أخفقوا جميعاً في الخطوة الأخيرة من حل شيفرة الوصية.

أنهيت أيضاً الإجراءات القانونية الضرورية لأصبح رئيس مجلس إدارة الشركة المسمّاة مونوديا، وكنت على وشك تولّي زمام الأمور في نومو. ألم تكن "مونودي" اسم الأغاني الفردية في المأساة اليونانية؟ ألّف البيزنطي أندرونيكوس كاليستوس؛ الذي لجأ إلى إيطاليا بعد سقوط القسطنطينية وتوفي في لندن، ترتيلة بعنوان "مونوديا"، وندب فيها خسارة قسطنطين؛ الأكثر حكمة من سايروس، وعدلاً من قاضٍ، وشجاعة من هرقل، أكثر مما تحدّث عن العاصمة نفسها. لم أستطع التفكير في اسم أفضل لشركة عملها الرئيس الانتقام المالي.

سقط مغلّف سميك وإضبارة من الحزمة التي أحضرها أنجلوس. أمسكت قارورة الشراب من تسكو وصعدت إلى غرفتي لأقرأ الأوراق. وضمَّ المغلّف السميك رسالة مخطوطة باليد تلخّص - بالتركية - تاريخ نومو، وتخبرني عن مجلس إدارة مونوديا الذي يتكوّن من أربعة أعضاء: ممثّل عن كل من أسر بالايولوجي، وكانتاكوزني، وكومنيني، والإمبراطور؛ الرئيس طبعاً، الذي يستطيع إدارة الشركة كيفما يشاء، باستثناء قضية تصفيتها التي تحتاج إلى موافقة عضو واحد آخر على الأقل. كان يُتوقّع من ممثّل بالايولوجي أن يكون الداعم المخلص للإمبراطور. وفي الواقع، يكون رئيساً للمجلس في غياب الإمبراطور.

كانت مونوديا خاضعة للقانون البريطاني، وقد أسّست عدّة تدابير وقائية بهدف منع عزل الإمبراطور. مثلاً، يُطلب من ثلاثة أعضاء في المجلس أن يقدّموا إلى الإمبراطور رسائل استقالة موقّعة من دون تاريخ. وبوصفه رئيساً، يمكنه أن يضعها قيد التنفيذ في أي وقت لإحباط أي تطوّرات ذات طبيعة غير مرغوبة.

ضمَّت الإضبارة الميزانيات العمومية؛ بدءاً من 30 حزيران 2009، لسبع شركات استثمار، تمتلك مونوديا ستاً منها، ورأيت رسوماً بيانية وجداول كثيرة توضّح قيمتها الصافية. كانت مقرّاتها في نيويورك، وهونغ كونغ، وفرانكفورت، وطوكيو، وميلانو، وأدنبرة، وقد حظيت بأسمائها من مزيج حروف من الأبجدية البيزنطية، وأرباحها تأتي من دخل إيجارات وعقارات وفائدة على حسابات مصرفية وسندات حكومية، ورصيد كل منها أقل من مليار جنيه لتفادي لفت انتباه الاقتصاد العالمي. وكما هو ثابت في دفاتر مونوديا،

كانت قيمتها الإجمالية 5.5 مليار جنيه، والأملاك الأصلية 4.2 مليار، والفائدة نصف السنوية 183 مليون جنيه.

في الوقت القصير الذي قضيته وأنا أقرأ التقارير بدأت أتوتر، ولاحظت أن جبيني يتغضّن مثل أمي تماماً. مشيت في أرجاء الغرفة، وعدت إلى مقعدي مع شراب منعش، وشعرت بسعادة حقيقية، وليس بمجرّد استرخاء، لأنني أحلُّ مشكلة. كنت سأتصرّف لأول مرة على أنني ابن عقيلة أسيل وأحشر المجلس في زاوية، فقد وجدت الشرارة التي كنت أبحث عنها. قرأت التقارير المالية بحماسة جديدة، ودوّنت ملحوظات تبرز سياسات المجلس السلبية.

اتصلت بأنجلوس بعد الفطور وأخبرته أنني أريد عقد الاجتماع في اليوم التالي عند الثامنة والنصف بدلاً من الساعة العاشرة، وحرصت على إخفاء التوتر في صوتي. خرجت واشتريت بزّة وربطة عنق من هاكيت؛ لأنه ببساطة اسم أبـي عينه، وعندما عدت التقيت مصادفة سلجوق ألتون وزوجته يخرجان من المصعد في الردهة. كانت بالتأكيد مفاجأة، ورفعت كيسَي تسوّق هاكيت تقديراً، وتساءلت عن احتمال رؤيته على أنه عضو في نومو.

á á á

كان رصيف كناري هو البقعة التي يبدأ فيها نهر التايمز بلون الشفق بالاستدارة من الشرق نحو المدينة. في الثمانينيات، بدأت شركات استثمار تنتقل إلى ناطحات السحاب التي تطعن قلبه، وبدا برج لانكستر في حي تشرشل مثل مربى مائي مغسول ومقلوب ليجف. كان خُمس الطوابق الأربعة والثلاثين في المبنى يخص مونوديا، وقاعة اجتماع المجلس طبعاً في الطابق الأعلى. دخلت المصعد مع أنجلوس، وتخيّلت نفسي وأنا أنزل بعد ساعتين متجاوزاً كل تلك الطوابق بعد تقديمي استقالتي.

لم أشعر بالرضا بشأن طابق يعمل فيه أربعة وعشرون شخصاً، وبدا كئيباً مثل مكتب حكومي قد أُجّل تحديثه باستمرار لنقص في الأموال. أُرشدت إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة، ورأيت أنه مؤثث بعاديات، ويليق حقاً بقاعة ملكية لإمبراطور في المنفى. شعرت بالإثارة للحظة حين فكّرت أن كوني أول شاغل له امتياز لي، فضلاً عن الكرسي المطعّم

بأمهات اللؤلؤ لزيادة الدلال ، وحاولت ألا أبتسم. وضع أنجلوس ملفين أمامي ، في أحدهما رسائل الاستقالة غير المؤرخة لأعضاء نومو في مجلس مونوديا ، وفي الآخر سيَرهم الذاتية الموجزة.

كان ممثل بالايولوجي يدعى ثيوفانيس توروسيديس المولود عام 1963 ، وقد درس التاريخ في أوكسفورد ، ويجيد أربع لغات ، بما فيها التركية ، وهو عضو منذ أحد عشر عاماً.

ولد ممثل كانتاكوزني ستليوس موراس عام 1949 ، وأنهى تخرّجه من كلية العلوم السياسية في جامعة جورج تاون. كان يجيد ثلاث لغات تماماً لكن تركيته بسيطة ، وهو عضو منذ ثمانية عشر عاماً.

كان ممثل كومنيني ديميتريو نينيس الذي ولد عام 1940 ، وتعلّم الاقتصاد في يال. كان أيضاً يجيد ثلاث لغات لكنه ضعيف بالتركية ، وهو عضو في المجلس منذ ستة وعشرين عاماً.

عرفت أن الفريق متشوق للقائي ، وأخبرت أنجلوس: "أحضرهم إلي". كان أول من دخل ثيوفانيس توروسيديس الذي أعرفه باسم ثيو باباس ، وابتسم معتذراً ، فقرصت وجنتيه وقلت له بالتركية: "إذاً يا باباس ، هل هذا أنت مجدداً ؟". وتابعت بالإنكليزية: "نجحت في أداء دور المهرّج التراجيدي-الكوميدي. لا بد أنك مخرج ومؤرخ ممتاز". لم أعد بحاجة إلى التساؤل عمّن رتّب المربعات الأرجوانية في طرابزون وأنقذني من مكيدة لسكاريس. كان المؤرخ خريج أوكسفورد معلّمي ومراقبي وحارسي طوال عام ، ونائب رئيس نومو وعقلها المدبّر.

بدا موراس مثل عريس محلي متأنق ، ونينيس مثل أستاذ متعب. لم يتصرّفا مثل محليين من منطقة إيجة ، ورغم هذا لم يكونا بغيضين ، ورحّبت بهما بود.

في قاعة اجتماعات المجلس ، بعد الاهتمام بموضوع معروف معين ، يمكن أن يبدأ الاجتماع الرسمي. أرسلت أنجلوس إلى الخارج ، ودعوت أعضاء نومو إلى الطاولة المربّعة ، ثم أخرجت استقالاتهم ، ومزّقتها بتكلّف ، وقلت: "لنناقش قضية وصية الإمبراطور. إذا كان لدينا أي سوء فهم يتعلق بهذه النقطة ، فسيكون وجودي في الاجتماع التالي مستحيلاً.

مزّقت هذه الاستقالات حتى تتمتعوا بحرية التعبير عن آرائكم ، وإذا بقيت رئيساً لمجلس إدارة مونوديا ، فلن أطلب أي رسائل استقالة من أحد. إذا أراد أحد أن يستقيل ، فيمكنه أن يفعل ما هو مطلوب من تلقاء نفسه". توقفت ونظرت إلى أعضاء نومو ، وبدوا منوّمين مغناطيسياً.

"أنا شاكر لكم ، ليس بسبب المكانة التي أسبغها علي خمسة أشخاص ، وإنما لمساعدتي على تطوير إدراك بأعظم حضارة في التاريخ. أدين بشكر عميق لكم جميعاً ، ولأسلافكم الذين كرّسوا حياتهم للحفاظ على إرثنا النفيس.

أيها السادة ، عندما قال قسطنطين الحادي عشر: احرقوا قصر الدوق ، لم يمنحنا 500 عام لنفعل هذا ، وافترض أن أحد أحفاده سينفّذ المهمة حين كانت البندقية لا تزال دولة ، لكن أفراد سلالته لم يتمكّنوا من إنجاز مهمتهم. في الوقت نفسه ، فقد ورثة البندقية روحهم بالاستسلام أولاً إلى فرنسا عام 1797 ، ولاحقاً إلى النمسا. وعام 1866 انضمت البندقية إلى إيطاليا ليس كدولة ، وإنّما كمدينة. وبدلاً من الدوق ، حصلت على حاكم. أخيراً ، أصبح قصرها الذي يبدو مثل حمّام بيزنطي متحفاً من الدرجة الثانية ، لذا كانت البندقية نفسها هي التي نفّذت البند الأخير من وصية قسطنطين الحادي عشر. وبعد عام 1866 سيكون أي عمل آخر - برأيي - مرادفاً لإخراج جثة من قبر وإطلاق النار عليها.

ينبغي أن أسلّط الضوء على البندقية هنا ، فأنا أعرفها أفضل من إسطنبول ، وأستمتع بها بالقدر عينه. هناك مدينتا بندقية ؛

الأولى ، كانت سابقاً أثرى دولة-مدينة على الأرض ، وتعدُّ الآن مدينة ملاهي السياح الأثرياء والسطحيين. والثانية صفحة مجيدة من الإرث البيزنطي. التأثير البيزنطي الضخم على عمارة الكنائس والمباني الرسمية المشيّدة في العصور الوسطى بارز في كل دليل سياحي ، لكن ما يبقى مجهولاً هو الطريقة التي تستنسخ بها قصورها الممتدة مثل خيط لؤلؤ على كلا جانبي القناة الرئيسة ؛ القرن الذهبي البيزنطي. على الأقل ، تُعرض التحف الفنية المسروقة في متاحف البندقية على أنها أغراض بيزنطية ، ولا أحد يعرف عدد المخطوطات البيزنطية النفيسة المحفوظة بأمان في مكتبة مارشيانو ، ولهذا السبب وحده

أظن أن نومو ينبغي أن تتحمّل مسؤولية البندقية.

باختصار، لقد تحقّقت رغبة قسطنطين الحادي عشر الأخيرة بالقتل الرحيم للدوقية، ورغم هذا، أنقذ أحد أحفاده البعيدين، بحل شيفرة وصيته عام 2009 روح الإمبراطور من العذاب أخيراً. أرجو أن تعرفوا أن لا نية لدي لتصفية مونوديا، وإنما على العكس، أريد مساهماتكم لمهمة ورؤية جديدتين للشركة".

طلب توروسيديس الكلام، وكانت لهجته مثل ممثل شكسبيري. ثمّ بالنهوض، لكنني قلت له بالتركية: "أرجو أن تبقى جالساً حين تتكلم، ويا باباس أفندي، تطرّق إلى صلب الموضوع". أحنى الآخران رأسيهما وحاولا ألاّ يضحكا، وبدا أن توروسيديس يستجيب جيداً لمضايقتي.

قال: "لقد شرّفتنا بأخذ وجهات نظرنا بعين الاعتبار يا صاحب الجلالة، ونحن نتفق تماماً مع ملحوظاتك. سيرقد قسطنطين الحادي عشر بسلام من الآن فصاعداً؛ لأن إرثه قد انتقل أخيراً إلى خَلَفٍ حكيم وصادق".

وعندما أومأ الآخرون موافقين قلت لتوروسيديس: "فكرة من تسميتي قسطنطين؟".

"جاءت من حمي؛ فاسيلاس سبيروبولوس يا صاحب الجلالة. عرفه جدّك على أنه إقطاعي من إزمير التقاه مرة في مونتي كارلو، وكان في الواقع ممثّل بالايولوجي قبلي. بعد إذنك، يستطيع السيد نينيس، الذي عمل مع حمي، أن يسرد القصة".

رأيت ديميتريوس نينيس ينتظر إذني ليتكلم فقمت بالإيماءة الضرورية (من الأفضل ألا أتغاضى عن الطقوس المعتادة). انطلق أقدم أعضاء نومو مقدّماً ملحوظاته؛ وكأنها عظة.

"اعتاد السيد سبيروبولوس زيارة جدك المبجّل بانتظام يا صاحب الجلالة. بعد وفاة جدك، تابع الزيارة مرتين في العام ليراقبك بعناية، وانتابته آمال كبيرة بشأنك. أخبرنا عن مدى تأثّره بقدرتك على تحويل المدة بعد طلاق أبويك إلى فرصة للنضج بدلاً من الانهيار، وصدّق أنك ستكون أكثر دهاءً من مانويل الثاني الذي تشبهه باهتماماتك التعليمية".

تذكّرت السيد سبيروبولوس الغامض الذي تجوّل دائماً في الأرجاء حاملاً عصا مشي مزخرفة رغم أنه لم يعرج أبداً. كان المديح الذي يغدقه على أمي بتركيته غير الوافية يصيبني

بالارتباك. بدا مريحاً أن أعرف بشأن اهتمام نومو. لكنني طرحت سؤالاً حاسماً.

"لا بأس، ماذا كنتم ستفعلون إذا أمرت بحرق قصر الدوق؟".

نظر إلى عينيَّ وقال: "أقسمنا أن ننفّذ أوامر تتوافق مع إرث قسطنطين الحادي عشر يا صاحب الجلالة. وإذا كانت هذه رغبتك، فيمكنني أن أجعل ذلك المبنى يُدمّر تماماً في اثنتين وسبعين ساعة".

حاولت إظهار استيائي من النبرة الحماسية في صوته في تعبير وجهي.

وعندما انتقلت إلى موضوعي الثاني، شعرت أنني ينبغي أن أقرَّ بحسن النية الذي اختبرته في النقاش الأول.

"سأقدّم بضعة تعليقات موجزة، ثم - إذا توصلنا إلى اتفاق - لدي اقتراح أعرضه. قد نستطيع بدء حقبة جديدة في تاريخ نومو.

لقد أُديرت موارد مونوديا بنحو متحفّظ تماماً. وفي بيانات الربح والخسارة، لم أجد تدفقاً نقدياً غير الفائدة والإيجارات. الآن، إذا اشترينا سندات مشتركة من قطاعات اتصالات وطاقة ورعاية صحية، وبعناها مع ودائع استثمار، وإذا حصلنا على ذهب ومال مثل سندات خزينة، فستتضاعف الأرباح المتراكمة خمس مرات على الأقل. بالتأكيد، هناك دائماً عامل مخاطرة في هذا العمل، لكن اسمعوا: في أثناء الركود العالمي الحالي، فقدت بعض عقاراتنا التي كانت تعدُّ استثماراً خالياً من المخاطر، عشرين في المئة من قيمتها، وتحمّلنا خسارة كبيرة في دخل الإيجارات.

أيها الأصدقاء، هدفي هو مضاعفة رأسمال مونوديا في سبعة أعوام؛ وهذا يعني أحد عشر مليار جنيه. لفعل هذا، ينبغي أن نزيد أرباح الشركة مئة في المئة كل عام، وتستطيع مؤسسة بقيمة نقدية مثل شركتنا تحقيق ذلك الهدف في المدى المتوسط. طبعاً سنخصص كل أرباحنا لخدمة القضية البيزنطية، وهذه مهمتي الجديدة لمونوديا. يمكن أن نبدأ بتخصيص مواردنا لترميم الكنوز التاريخية، ولا ينبغي الصفح عن أشخاص ومؤسسات تستحق العقاب، وبالمناسبة، هذه الجملة لا تدل على نشاط إرهابي.

لدينا وقت كافٍ لتحضير قائمة ملائمة، لكن ينبغي ألا نجلس ساكنين في هذا الوقت.

سأذكر شعوري بالإحراج، مثلاً لدى رؤيتي ما يدعى النَصب التذكاري لقسطنطين الحادي عشر في أثينا، الموجود خلف تمثال ضخم لأسقف مثل دمية سانشو بان‌زا".

تابعت بمقدار معين من توبيخ نومو، لكن بلطف. وأخيراً وقفت وقلت: "إذا لم يكن هناك اعتراض، يُفضُّ الاجتماع".

غطّت صور عقارات تمتلكها مونوديا بالشراكة مع كينونات مختلفة جدران قاعة الاجتماعات مثل شبكة عنكبوت، وراقبت هبات القبح تلك بتعبير متجهّم. استفدت من ملحوظاتي في اجتماع مجلس الإدارة لجعل المالكين والمديرين يتعرّقون. وفي النهاية، تقرّر إنشاء قسم لشراء سندات مشتركة وأصول استثمارية وأسهم تعدين، وبيعها. الأهم من كل شيء آخر، ديكور مونوديا الداخلي سيُحدّث، بموافقة مني.

حان وقت تحديد راتبي. كان توروسيديس، المدير الإداري ونائب الرئيس، يأتي إلى العمل كل يوم، ويحصل على ثلاثين ألف جنيه، في حين يحصل نينيس وموراس على خمسة عشر ألفاً لكل منهما. وإضافة إلى هذا، يتلقّون جميعاً حصصاً من ربحٍ صافٍ سنوي. خفضت راتبي من تسعين ألف جنيه إلى نصف ذلك المبلغ، وقلت: "ولن أحصل حتى على كل ذلك إن لم أكن سأنفق مبلغاً كبيراً منه على منح دراسية لأولاد فقراء". أنهيت الاجتماع بقرار عقد اجتماع الربع الثالث، المقرّر في 22 تشرين الثاني، في فندق فورسيزن‌ز، القائم على أساسات القصر البيزنطي الكبير.

دعوت نومو إلى العشاء عند بروفايدورز، وخططت لعدم طرح أسئلة شخصية في تلك الليلة الاجتماعية، لكنني لم أستطع مقاومة الرغبة بسؤال توروسيديس: "باباس، من أي جزء من إسطنبول أنت؟". كان ذراعي اليمنى، كما تبين، الابن الوحيد لقس فينير، ولم يكن سؤاله عن طريقة دخوله أوكسفورد بعد مدرسة فينير اليونانية الثانوية ضرورياً.

á á á

بحلول وقت ركوبي الطائرة إلى ستوكهولم، شعرت أنني قد تقدّمت بالعمر خمسة أعوام، لكنني اكتسبت ثقة كبيرة بالنفس. ظنّت ميسترال أن مونوديا شركة استثمار متوسطة المستوى، أحد أصدقاء جدي شريك فيها. وعندما أخبرتها أنني رئيس مجلس

الإدارة، قالت: "آه، أرى الآن سبب تباهيك بنفسك".

قلت: "إذا كنت تعرفين جميلة مستعدة للعيش في بيزنطة، فسأطلب الزواج بها".

ردّت: "أعرف عانساً مستعدة للذهاب إلى أي مكان على الأرض معك". ثم اتصلت بكوستاس من إدرميت وقالت: "بابا، لقد طلبني خلاص للزواج الآن. ماذا عن فكرتك بأن رجلاً تركياً لن يقبل امرأة عاقراً؟".

كنت قد وجدت حب حياتي، لكن بدا واضحاً أنني لن أكتشف أفراح الأبوة. كانت هذه معضلة تليق بأرستقراطي بيزنطي، وربما لم يكن المصير يرغب بإثراء التاريخ بسلطان بيزنطي آخر بعدي.

خططنا للزواج في نهاية فصل الخريف الدراسي، وستتابع ميسترال عملها الأكاديمي في إحدى جامعات إسطنبول، وسأجد عملاً يليق ب.ي. اتصلت بأمي وخيال اللتين لم تدهشا لدى سمعاعهما الخبر، وقالت عقيلة: "ينبغي أن تزف الخبر السعيد إلى جدتك بنفسك؛ لأنها ستقتلني إن أخبرتها". في حين قالت خيال: "أيها الأخ الكبير، أبلغ ميسترال أن تنتعل حذاءً من غير كعب في الزفاف؛ فهي ليست أقصر منك".

في إسطنبول، رُحّب ب.ي فوراً في حضرة جدتي، وعندما أبلغتها الخبر، بدأت تحرّك حبّات مسبحتها بسرعة. كان ذهنها مشغولاً بمشكلة أكثر عمقاً من عقم العروس المحتملة.

"خلاص يا بني، خُذ تلك الفتاة الشقراء إلى الأمام قبل أن تتزوجها. دعها تنتقي اسماً مبجلاً مثل أمينة أو عائشة وتعتنق الإسلام".

قلت: "جدتي، طلبت الزواج من ميسترال، ولم أطلب منها شيئاً آخر باستثناء الانتقال إلى إسطنبول. ربما ستتأثر بك وتعتنق الإسلام طواعية، من يعرف؟".

قالت : "يا ابن الأمريكي عديم الفائدة، هل تظن أنك تخدع طفلة صغيرة؟". ورمت مسبحتها علي، فالتقطتها في الهواء وبدأنا نضحك. عانقتها حين هممت بالخروج وقبّلت وجنتها، فشممت رائحة ماء الورد.

استيقظت عند الفجر مسروراً، وفي حلمي كنت ونومو قد امتطينا الخيول الأربع التي سرقها أهل البندقية من القسطنطينية، ونركبها عائدين إلى إسطنبول. كنت في المقدمة

وأرتدي قفطاناً أرجوانياً ، وضحكاتنا تختلط بالصهيل المرح للكدريجة. كُتب على الصفيحة النحاسية التي تركناها خلفنا تحت المنصة الفارغة في كنيسة سان ماركو "الوطن غال".

دخلت غرفة المعيشة لأراقب تحوّل الفجر إلى نهار. سكتت رياح غلطة العتيقة والنوارس كلها ، والأذان كان على وشك أن يُرفع من 3000 مسجد في المدينة. ذهبت إلى المكتب ، وأخرجت دفتر ملحوظاتي الفاخر من درج الطاولة ، وكتبت "مهمة ب" على الصفحة الأولى ، ثم انفجرت ضاحكاً. رسمت على قفا الصفحة رقعة شطرنج ، وكتبت فوقها ، بشيفرة أبجدية متعددة للمدن-الدول من القرن الخامس عشر "إنقاذ الكدريجة". هل كنت قد اكتشفت متعة تكوين الألغاز بدلاً من حلّها؟ عدت إلى السرير. كنت عندما كنت طفلاً ، إذا جافاني النوم أقرأ ثلاثة أدعية صغيرة علّمتني إيّاها جدتي لي لأغمض عيني. لكن هذه المرة ، كانت أبيات من كاراكا أوجلان هي التي قفزت على شفتيّ:

راسخة في قلب صدرها الرائع
توجد بئر زمزم المبجّلة
إذا شربت منها فسيقتلونني
وإذا لم أفعل ، فسأموت.

انتهى

(*) لا إجماع على هذا التاريخ.